

• شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

• تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية . الرباط . المغرب

المساواة في الإسلام بين النظرية والتطبيق

الفكر الغربي على طريق الإسلام

شخصيات مغربية من خلال معجم المؤلفين

العدد 237 • شعبان - رمضان 1404 / يونيو 1984 • الثمن : 4 دراهـــــم



تبدأ مرحلة جديدة من التطور والتجديد



- 12 عدداً في السنة.
- 4 دراهم للنسخة الواحدة.
- 50% زيادة في الكمية المطبوعة.
- توزيع واسع داخل المملكة وخارجها.

رقم الايداع القانوني 1981/3 مطبعة فضالة - المحمدية - المغرب



شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الرباط - المملكة المغربية



أسسها:
جلالة المغفور له
محمد الخامس
قدس الله روحه
سنة
1376 هـ — 1957م

التحرير:
الهاتف: 601.85

الإدارة و التوزيع
636.93
627.03
627.04
608.10

الاشتراكات:
في المملكة المغربية: 55 درهما
في البلاد العربية: 67 درهما
في العالم: 77 درهما

الحساب البريدي: رقم 55-485. الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55 à Rabat

فهرس العدد 237



صيام الفكر

●● جعل الله سبحانه وتعالى الصوم عاملا للتوازن في حياة الإنسان بقدر ما هو مدعاة للتأمل ومراجعة للذات ومراقبة للنفس ومجلبة للموعظة والاعتبار.

● ولقد شرع الله الصوم عبادة وركنا من أركان الدين لحاجة الناس كافة إليه ولكونه مدرسة للتهذيب والتطهير، ومناسبة للتقييم والتقويم، وفرصة للتدبر والتفكير في الحال والمآل، وفي السلوك والمعاملة، وفي النفس والجماعة، وفي المجتمع والكون، وفي رسالة الإنسان من حيث هو إنسان في هذه الحياة، وفيما أنيط به من مسؤوليات التعمير في الأرض، والاستخلاف عن الله تعالى بالحق وبالعدل وبالتقوى وبالطاعة. فكما أن الصوم ليس انقطاع عن الأكل والشرب والجماع في زمن محدود معلوم، وإنما هو امتناع عن المنكرات بالجوارح والحواس، وبالنوايا والعواطف، يمكن أن يكون له أيضا مدلول أشمل يمتد إلى الجوانب الفكرية من حياة الفرد والجماعة، ليشمل مختلف نشاطات العقل البشري من تفكير وتصور وتخيل، ومن اقتناع واعتقاد والتزام، ومن نظر ورأي واجتهاد يمس الإنسان والحياة والكون.

●● وصيام الفكر إنما يتم بالامتناع عن تبني كل فكر أو رأي أو تصور أو اعتقاد يخالف ما أمر به الله، ويتعارض، بصورة أو بأخرى، مع ما هو معلوم من الدين بالضرورة، ويناهض فطرة الإنسان التي فطره الله عليها،والتي تقوم على التوحيد وإفراد الله عز وجل بالألوهية والربوبية،والإذعان لمشيئته وقبول حكمه والرضى والإيمان والتسليم بخاتم الرسالات والنبوات ممثلة في رسول الله محمد ﷺ.

فصيام الفكر عن كل ما يخرج عن هذا المسار ويخالف هذا الاتجاه فضيلة من الفضائل التي تنبثق عن شهر رمضان المعظم وتكتسب منه وتكتسي صفتها من طبيعته وغايته وأثره في حياة الفرد والمجتمع على السواء.

● والمسلمون اليوم مطالبون بالتحلي بهذه الفضيلة، والتخلي عن كل ما من شأنه أن يخدش ولاءهم لدينهم وينال من التزامهم بتعاليمه. خاصة والعالم المعاصر يموج بالفكر المنحرف البالغ الانحراف وبما لا يحصى من النظريات والإيديولوجيات والتصورات التي تعادي الإنسان وتحاربه وتقهر فيه نوازع الخير والصلاح والفضيلة، وتفضي به إلى حيث يفقد هويته وذاتيته وأصالته وإنسيته. ولو صامت الإنسانية عن هذا الفكر المتمرد على سنة الله في الأرض، الرافض للإيمان والتقوى، لاستقامت على الطريق، ولهداها الله تعالى سبل الرشاد والرشد والحكمة والوقاية من الزلل والدمار والانهيار.

●● ولعل من فضائل هذا الشهر الكريم أنه يبعث فينا روح التجديد وإرادة التغيير وعزيمة العمل لاصلاح ما بأنفسنا على سنن من الدين ووفق إرادة الله وعلى هدي شريعته التي ارتضاها للعالمين ●●



خطاب جلالة الملك الحسن الثاني بمناسبة اليوم العالمي للقدس.



●● ألقى جلالة الملك الحسن الثاني بمناسبة اليوم العالمي للقدس (18 ماي 1984) كلمة سامية جدد فيها التزام المغرب ملكا وحكومة وشعبا بالدفاع المستميت عن القضايا العربية والإسلامية مؤكدا حفظه الله استعداد بلادنا للتضحية بالدم في سبيل نصرة الأمة وتعزيز كفاحها العادل في فلسطين والقدس الشريفة.

وفيما يلي النص الكامل للكلمة الملكية السامية ●●

الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه،

شعبي العزيز،

إخواني المسلمين،

تقرر في الانعقاد الأخير للجنة القدس بفاس هنا، تلك اللجنة المنبثقة عن المؤتمر الإسلامي تقرر أن يكون يوم ثامن عشر ماي من كل سنة يوم ذكرى القدس.

وهي في الحقيقة هذه الذكرى ليست إلا رمزية، ذلك أن القدس في قلوبنا ونصب أعيننا صباحا ومساء في كل يوم في كل أسبوع من كل شهر من كل سنة.

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم : ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾.

لننظر بكيفية سريعة شعبي العزيز إلى الأحقاب الماضية حتى نرى كيف ذهبت القدس من أيدينا وأصبحت محتلة، كان ذلك في سنة ألف وتسعمائة وسبع وستين فوقعت تلك الحرب الضروس المخجلة، التي ذهبت في يوم واحد بالقدس الشريف، بالضفة الغربية من الأردن، بالجولان من سوريا، بسيناء وغزة من مصر، وكنا ولازلنا نظن أن الأسباب التي أدت إلى تلك الكارثة قد اضمحلت وانمحت مع السنين والأعوام، كنا نظن أن روح العجرفة والهيمنة والوصاية والحجر قد انقضت وانمحت من أوطاننا وبلداننا العربية حتى لا يمكن لأي أحد إذا صرخ أو غضب أو ضحك أن يعتقد أن صرخته أو غضبه أو ضحكته هي للعرب كافة من المغرب الأقصى إلى المشرق الأقصى، ولكن ويالأسف، لم نعط للدروس حكمتها وناحيتها الإيجابية، وها نحن اليوم بالنسبة للمغرب وقبيل هذا اليوم بيومين نرى هيمنة أخرى وحماية أخرى وحجرا آخر يريد أن يسيطر على الموقف وأن يصبح وينصب نفسه الضمير الحي للدول الإسلامية والعربية، فعلى الجميع أن يعلم أن المغرب لا يلتزم عفوا أو بكيفية ظرفية، المغرب إذا التزم أولا، يحلل ما هي عناصر التزاماته ثم يضرب الحساب لما يتعلق ويترتب على تلك الالتزامات علما منه أن كل التزام كان ثنائيا أو جماعيا، يتطلب من جميع الأطراف المعنية تنازلا عن رضى عن شيء من السيادة حتى يصبح الالتزام كاملا وشاملا، وحينما التزم المغرب غداة استقلاله بالانضمام إلى الجامعة العربية كان التزامه مخضرما، كان التزاما عقلانيا ووجدانيا، وجدانيا لأننا كنا دائما نطمح أن نصبح عضوا ممثلا في تلك الجامعة التي كنا نرى فيها ولا زلنا نرى، المعول والرمح والظل الذي سيمكننا من إضافة قوة للقوى العربية تعامل باللين وبالجد كلما اضطرت الظروف إلى ذلك للوصول إلى الأهداف العربية، إما الشاملة أو الجهوية، وكان كذلك التحاقنا بجامعتنا العربية امتدادا وجدانيا وعقلانيا للخطاب التاريخي الذي ألقاه جلالة محمد الخامس طيب الله ثراه الذي ننتسب إليه بالبنوة والتلمذة حينما ألقى خطابه التاريخي بطنجة، ذلك الخطاب الذي هز أركان الاستعمار ومن ذلك اليوم والمغرب يلتزم بالتزاماته التزاما كافيا وشافيا، التزاما واضحا لا غبار عليه، وضميرنا مرتاح ولا يمكن لمن أراد بنا السوء أن يركب المراكب المزيفة حتى يمد يده إلينا، المغرب كامل السيادة، المغرب يعقد فوق أرضه المؤتمرات المغربية التي يريد، ومن حقه أن يستدعي المغاربة أينما كانوا، ومن حقه أن يستدعي المغاربة اليهود أينما وجدوا، المهم أن المغرب أثناء ذلك المؤتمر الذي لم يكن مؤتمر الدولة، ولكن كان مؤتمرا داخلا في حرياتنا العامة - ولكن ربما هذا اللفظ بعض الدول في الشرق لا تعرفه، وأخاف ألا تعرفه منذ سنين، داخل في إطار حرياتنا العامة وأثناء ذلك المؤتمر ما صرح المغرب بشيء يمس القضية العربية، وما التزم المغرب بشيء، وما تنكر المغرب لأي التزام من التزاماته بل يعتقد المغرب أنه بمثل هذه اللقاءات يخدم القضية العربية، والذين هم اليوم يريدون أن ينالوا من المغرب، هم أعرف الناس على ما قلنا لهم أخيرا بواسطة مبعوثيهم ووزرائهم رغم جميع المحاولات الدبلوماسية والسياسية التي سيقوم بها المغرب سوف تجدون المغرب على العهد كما في الماضي، وسوف تسمعون إطلاق النار، لا أقول الطلقة الأولى، ولكن الطلقة الثانية إذا ما اقتضى الحال، من بندقية مغربية وسوف تجدون الشهيد الأول أو الثاني جنديا، أو ضابطا مغربيا، مع هذا وهذا هو الالتزام والتضحية بالنفس والنفيس للوصول إلى الغرض المطلوب والمنشود، وما عدا

هذا، فهو متروك لسيادة أية دولة عربية ولا يمكن لأي أحد أن يرجع بنا إلى عهد المرحوم جمال عبد الناصر الذي كان يفرض ما يريد على من يريد إلا على المغرب، فهذه تذكرة أولا بتاريخ المغرب وبالتزامات المغرب وباستعمال المغرب لالتزاماته واحترامه إياها، وتذكرة كذلك بالأغلاط أو التغالطات أو التغليطات التي أوقعت العالم العربي والإسلامي في كارثة القدس، ولا أضيف إليها لا الجولان ولا الضفة الغربية ولا قطاع غزة ولا سيناء.

وبما أننا طوينا هذه الصفحة ونرجو بالنسبة للجميع أن تكون مطوية نهائيا فلندخل إذن بكيفية موجزة في موضوع القدس.

القدس، كما قلت لكم، ليس في حاجة أن يكون يوم 18 ماي هو يوم القدس، يوم القدس، هو كل يوم، في قلب المغاربة والمسلمين وكنا نريد أن يدلي كل بلد مسلم بأكثر مما أدلى به، وبأغلى مما أعطاه لأن القدس هي القبلة الأولى والحرم الثالث، ولكن لي اليقين أن احتفالنا الرمزي في جميع قارات العالم وهذا هو المهم لأن المسلمين يوجدون في جميع القارات، أوربا، افريقيا، آسيا، أمريكا، أمريكا اللاتينية، المهم هو أن تكون القلوب تنبض دقة واحدة في يوم واحد مفكرة في شيء واحد، مؤمنة بقضية موحدة آخذة العهد عليها وعلى من يرثها أن تسترجع كرامة العرب والمسلمين في القدس، وأن ترد للقدس قداسته.

إنك تعلم شعبي العزيز، أن المؤتمر الإسلامي الأول انعقد في الرباط لأن القدس بدأ فيها الصهاينة أعمالهم التخريبية، بالمسجد وتلك الأعمال التخريبية لم تقف عند ذاك، بل استمرت تلك الأعمال وتلك الأفعال، واستمرت بكيفية هوجاء، واستمرت بكيفية لا تحترم لا التاريخ ولا الأصالة ولا الدين ولا الوحدانية التي يدين بها أبناء سيدنا ابراهيم عليه السلام، وفي اجتماع لجنة القدس الأخير، كان لك شعبي العزيز أن ترى بيد أخينا رئيس منظمة التحرير الفلسطينية السيد ياسر عرفات شقيقنا، أن تراه وبيده خريطة القدس، ما دمر منها وما هو في حالة التدمير وما هي المخططات التي تريد أن تنال من القدس وقدسيته وصبغته العربية، حقيقة أن مدينة القدس لهي الكفيلة أن تكون النبراس لكل من يدين بدين الوحدانية ولكل من يدين إما باليهودية أو بالنصرانية أو بالإسلام، علينا أن نبث في أذهان الجميع، وبالأخص في أذهان غير المسلمين، أن قضية القدس ليست قضية صراع عربي - إسرائيلي، هي قضية صراع إسلامي - نصراني - مسيحي - صهيوني - هي قضية إذن تميز بين الحق والباطل، قضية من أقدس القضايا. وغريبة هذه القضية أنها لا تنبني - مشكلة القدس - لا تنبني لا على عنصرية بالنسبة للجلد ولا على عنصرية بالنسبة للغة ولا على عنصرية بالنسبة للدين، بالعكس، ربما هي القضية الوحيدة الماثلة بين أعيننا في هذا القرن، قرن المادة والتكنولوجيا والفضاء، هي القضية الوحيدة التي تجمعنا جميعا دون فرق بيننا لا في الجلدة ولا في النطق ولا في اللون ولا في الدين، هي القضية الوحيدة التي لا أرضية لها إلا القيم الروحية والرجوع إلى مناهل العقيدة، هي القضية الوحيدة التي تمكن من أن نرى ابن آدم مجردا من الأطماع، مجردا من الشره والنهم السياسي أو الاقتصادي أو حب التوسع، هي القضية الوحيدة قبل أن نلقى الله حفاة عراة، التي تظهر بني الإنسان بمظهره الحقيقي الكريم العزيز المتعلم المترفع عن جميع الظرفيات، ذلك الإنسان الذي لا يرى إلا ألوهية الله، ووحدانية الله، وقدسية كتب الله ورسله، هذا ما يجب علينا أن نفسر وأن نشرح وأن نحارب من أجله لا من أجل أن نصبح فلانا ضد فلان أو نريد أن نتطاول على فلان ظلما وعدوانا.

هذا هو الكتاب الذي يجب أن نتأبطه وأن نخترق به البحار والقارات لنصل إلى الأذهان الغالطة لأن أغلبية الأذهان غالطة في الموضوع، أن نصل إلى غزو الأذهان وفتح الأفكار والرجوع عن الغي والالتحاق بالصواب، وهذا ما قرره المؤتمر الإسلامي المنعقد بالدار البيضاء، وهذا ما أقرته لجنة القدس المجتمعة أخيرا بفاس.

كما تعلم شعبي العزيز، إن لخديمك هذا، مخاطبك اليوم، الشرف العظيم والجليل في آن واحد لأن يكون رئيسا للجنة القدس وأن تكون رئاسته تجددت ثلاث مرات، وكما قلت لك شعبي العزيز، حينما كنت أتكلم عن التزاماتك وعن المعنى الذي تعطي للالتزام ما يجري عليك، يجري على خديمك، قبل أن أقبل الرئاسة الأولى وأن اقبل تعددها مرتين أو ثلاث مرات، كنت أنا الأول أقيم عقلانيا وليس ديماغوجيا، أقيم المسؤولية، وكنت إذ ذاك بين اختيارين، أن اقبل الرئاسة علما مني أنها ستكبل يدي وأنها ستنقص شيئا ما من حرية تحركاتي وبالتالي من حرية تحركات السياسة الخارجية المغربية، ولكن اخترت بين حرية التحرك ونوعية التحرك فإذا كانت هذه الرئاسة أولا التزاما واستلاما لثلاث وأربعين دولة تقيد شيئا ما من حرية التحرك، فهي لا تمنعنا من أن نميز بين نوعية العمل والتحرك، فنوعية التحرك هي متروكة لضمائرنا، ونوعية العمل متروكة لضمائرنا طبعا والتعريف بالهدف لا فالهدف هو تحرير القدس، وهذا لا مجال لأي تفسير فيه ولا لأي تعليق لأن الهدف واحد مفهوم ومعروف والتنقيص شيئا ما، عن رضا من لدن ومن طرف أي عضو من أعضاء المؤتمر الإسلامي هذا شيء وارد لا هذا هو مقابل المعاملات الدولية ولكن التنقيص الجزئي من التحرك لا يعني أنه يمكن لأي واحد منا أن يجادل أخاه أو صاحبه إذا كانت الثقة موجودة المهم أن لا نتنكر لالتزام وأن لا نلتزم بالمنكر.

وبوعيك شعبي العزيز، وبوعي الأمة الإسلامية كلها، وبتحملنا وصبرنا وبفصاحة حجتنا وبقيمة حججنا وتفسير حججنا سنصل إلى - كما قلت لك آنفا - أن نفسر لأبناء المولى ابراهيم عليه السلام أنه لا قضية تشرف الإنسان كقضية القدس، لأن قضية القدس تقدس الإنسان لأنه يعمل متجردا شريفا نزيها لوجه الله، ولوجه كتبه ورسله، تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض.

أظن شعبي العزيز، أنك فهمت خطابي وآمل أن يكون جميع إخواننا من الأسرة الإسلامية قد فهموا كذلك الخطاب وآمل أن نطوي الصفحات وأن نفتح السجل، هذا هو أول عيد للقدس، آمل أن نطوي فيه الصفحات وأن نبدأ جميعا في الأسرة الإسلامية السجل الجديد بصفحة بيضاء قدسية مقدسة.

ولنختتم بهذه الآية من الكتاب الكريم :
﴿وقالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، فهزموهم بإذن الله﴾.

صدق الله العظيم والسلام عليكم ورحمة الله.



كلمة حكومة صاحب الجلالة بمناسبة ذكرى تأسيس القوات المسلحة الملكية

●● وبعد الانتهاء من الخطاب الملكي السامي، ألقى الأستاذ محمد باحنيني وزير الدولة كلمة السيد محمد كريم العمراني الوزير الأول باسم حكومة صاحب الجلالة بمناسبة الذكرى الثامنة والعشرين لتأسيس القوات المسلحة الملكية.

وفيما يلي نص هذه الكلمة القيمة :

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

مولاي صاحب الجلالة،

في هذا الظرف الأغر السعيد، ظرف حلول إحدى الذكريات التي تتبوأ من قلوب شعبكم المخلص الوفي مقعدا عليا ومقاما سنيا، تضفي علينا جلالتكم أطال الله بقاءها شرف المثول بين يديها، وتشفع هذا الإنعام السابغ بالسماح لنا، باذلة من وقتها الغالي الثمين، بأن نجهر بحضرتها الكريمة ببعض ما تجيش به قلوبنا من مشاعر.

بالأمس احتفل أبناؤكم المغاربة، يامولاي، فرحين معتزين، مشمولين برعايتكم السمحة الدائبة ومتملين

لإشرافكم السامي المنيف، بذكرى مرور ثمانية وعشرين عاما على تأسيس والدكم العظيم جلالة محمد الخامس رضي الله عنه وأرضاه للقوات المسلحة الملكية، لقد كان هذا التأسيس إحدى اللبنات الوثقى في بناء صرح الاستقلال ومعلما وضاحا من معالم مسيرة استرجاع الكرامة واستئناف ممارسة السيادة، ومنذ ذلك اليوم الأبرك الأيمن الذي افتتح به وبأمثاله الغر البيضاء جلالة محمد الخامس قدس الله روحه وطيب ثراه عهد التحرر والانبعاث، وأنتم الساهر الأمين والراعي الحدب الذي بذل لهذه القوات بأريحية وسخاء، أعلاق عقله وفكره - وما أكثرها وأوفرها - وذخائر قلبه ووجدانه - وما أنفسها وأعزرها - حتى أصبحت أداة محكمة قوية فعالة تضطلع ماهرة مقتدرة مقدامة بأدق وأصعب وأجل ما تنيط بها جلالتكم من مهام صيانة الأمن والحماية والدفاع.

وهذه الأداة التي صنعتموها صنعا، ونشأتموها على تقديس القيم المغربية الأصيلة، لم تكتفوا بجعلها الدرع الواقية لسيادة الوطن وحريته واستقلاله، والحصن الحصين الذي يدرأ المكاره عن مقدساته ومقدسات الإسلام، وإنما أعددتموها إعدادا لتكون في كل وقت، ناصرة لقضايا العرب والمسلمين ولقضايا الأفارقة العادلة.

فما أروع ما قدمته دفاعا عن التراب الوطني، وصدا للعدوان، وما أظهرته على أرض الوطن العربي وعلى أرض إفريقيا من دلائل الإقدام الباهر، وآيات الشجاعة والبطولة التي تنتزع الإعجاب وتفرض التجلة والإكبار.

ولا بدع أن يحالفها التوفيق ويصاحبها النصر المؤزر وهي فيما تبدئ فيه وتعيد، إنما تنطلق من إرشادكم السديد وتوجيهكم الرشيد وتصدر عن أوامركم الصائبة الحكيمة.

وبالأمس القريب اغتنمتم مناسبة إتمام القوات المسلحة الملكية للسياج الأمني الذي أنطتم إنجازه بعهدتها في أقاليمنا الصحراوية فنوهتم بما باشرته أكرم تنويه وأشدتم بجهودها التي لا تكل ولا تسأم أجمل إشادة وأثنيتم الثناء المحض العطر على ما تواليه من مساع حميدة وتداركه من أعمال مجيدة.

وإذا كانت قواتنا المسلحة الملكية تستحق من قائدها الأعلى ورئيس أركانها العامة ومن الشعب المغربي كافة، كل ثناء وكل إطراء لما تؤديه على الوجه الأكمل من واجب، ولما تسترخصه في أداء هذا الواجب من تضحيات جسيمة جليلة، فما أعظم استحقاقكم يا مولاي للثناء، والإجلال والإشادة والإكبار، فأنتم صاحب الرأي الحصيف والتوجيه الذي لا يخطئ، والمبادرة الملهمة والتدبير الصالح والإشراف اليقظ الساهر وأنتم منبع التحفز والحماسة ومصدر الأعمال الناجحة وأصل المساعي الموفقة، وما أعظم ما لكم يامولاي، في هذا المجال، وفي كل مجال من مجالات عنايتنا واهتمامنا من منة ويد بيضاء ومن دين على المغاربة أجمعين.

والله وحده القادر على شكر عوارفكم وأياديكم وهو المتفضل المتطول القادر وحده على أن يثيب جهودكم ويكافئ أعمالكم، وحسب خدامكم الأوفياء وفي طليعتهم خادمكم ووزيركم الأول اطمئنانا وارتياحا أن يصعد إلى جلالتكم أيدها الله، من هذه الكلمة، على قصورها وعجزها، ما يشيع في نفوسكم العظيمة اليقين بحبنا المكين إياكم، ووفائنا وإخلاصنا لشخصكم وأسرتكم وعرشكم، وإجلالنا وإكبارنا وحمدنا للرعاية المستديمة التي تولونها شؤون شعبكم صغيرها وكبيرها، وللسياسة التي تنهجونها في الداخل والخارج لصالح وطنكم.

فهنيئا لبلادكم وشعبكم يامولاي إمساككم لمقاليد الملك، وهنيئا لنا قواتنا المسلحة الملكية السائرة على هدى قيادتكم، المقتعدة من قلوبنا مكان الاعتداد والاعتزاز.

وأطال الله يامولاي، بقاءكم وأدام علاءكم وسناءكم، وواصل لكم نعمة التيسير والتوفيق، ومنة التأييد والنصر، وأبقاكم لشعبكم المتفاني في حبكم الذخر والموئل والملاذ، وأراكم في شعبكم ما به تسرون وتفرحون، وأقر عينكم الكريمة بولي عهدكم الأبر الأمجد صاحب السمو الملكي الأمير سيدي محمد وبصنوه الأعز الأرشد صاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد وبأخواتهما الأميرات المصونات المبجلات إنه سميع مجيب.

والسلام على مقامكم العالي بالله.

خادم الأعتاب الشريفة :
الوزير الأول :
محمد كريم العمراني





للدكتور التهامي محمد الوكيلي

● ● الدولة العلوية الشريفة، دولة عظيمة أعطت للمغرب أبعادا جديدة، وخلقت فيه حمية للعلوم والتقدم والحفاظ على التراث وعلى وحدة الوطن. فكان لها مع التاريخ مجموعة من الملاحم البطولية في شتى المجالات، سجلها التاريخ بمداد الفخر والاعتزاز في صفحات مشرقة بالمجد الرفيع.

ومن صفحات هذا التاريخ، تأتي سيرة السلطان العالم سيدي محمد بن عبد الله الذي كانت إسهاماته رائدة في مجالات عديدة ومتنوعة، قلما اجتمعت لسلطان واحد في زمن واحد...

وقد جمع الأستاذ الدكتور التهامي محمد الوكيلي جملة من سير ملوك المغرب في كتاب سماه : «موجز تراجم ملوك المغرب» وهو جزء من سلسلة من الكتب تتعلق بكتب المعرفة البالغ عددها 555 كتابا تتولى الآن مؤسسة دار الاعماق بإشرافه وإشراف الأستاذ نور الدين عبد الحق إصدارها ونشرها.

وكان الدكتور التهامي محمد الوكيلي قد خص هذه المجلة في عددها 227 الخاص بعيد العرش المجيد لسنة 1983 ببحث تاريخي عن جلالة السلطان مولاي الحسن الأول.

واليوم تنشر المجلة للكاتب الدكتور محمد الوكيلي بحثا جديدا عن سيرة السلطان العالم سيدي محمد بن عبد الله تعميما للفائدة، وذلك بعد أن استأذنت المجلة سيادته في نشر هذا البحث التاريخي القيم الذي يلقي أضواء ساطعة على سيرة هذا الملك العظيم، والذي يتضمن معلومات تاريخية جديدة، لم تكن معروفة من قبل عن هذا السلطان العلوي العظيم، اجتهد الباحث فترة طويلة في العثور عليها، وبذل جهدا مشكورا ليضعها إضافة جديدة في دراسة التاريخ المغربية، ورصيدا من المعرفة للأجيال والباحثين والمتخصصين.

هو السلطان سيدي محمد بن عبد الله بن السلطان المولى اسماعيل بن الشريف بن علي بن محمد بن علي بن يوسف بن علي الشريف بن الحسن بن محمد بن الحسن الداخل بن قاسم بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أبي محمد بن عرفة بن الحسن بن أبي بكر بن علي بن الحسن بن أحمد بن إسماعيل بن قاسم ابن محمد ـ الملقب بالنفس الزكية والذي ثار في المدينة في العهد العباسي مطالبا بحق البيت العلوي بالخلافة ـ بن عبد الله الكامل بن حسن بن الحسن بن علي وفاطمة الزهراء بنت رسول الله عليه أزكى الصلاة والسلام.

ولد بمدينة مكناس عام 1134 هـ / 1721 م في أواخر عهد جده المولى إسماعيل الذي تولى تربيته واعتنى بتعليمه عناية فائقة.

وفي عام 1143 هـ بعث والده المولى عبد الله أمه السيدة خناثة بنت الشيخ بكار المغفري / وهي فقيهة وعالمة وزوجة السلطان المولى إسماعيل ومستشارته / إلى الديار المقدسة لحج بيت الله الحرام وزيارة مقام الرسول الكريم، وأرسل معها إبنه سيدي محمد وهو دون البلوغ، ومعهما جماعة من الشرفاء والعلماء كالقاضي أبي القاسم العميري والكاتب الوزير الشرقي الإسحاقي، فرحلوا برا إلى طرابلس ومصر في موكب فخم يليق بهيبة المغرب وعظمة والدة السلطان وابنه. كانوا محل التكريم والإجلال في كل مكان وخاصة من طرف باشا طرابلس الذي بالغ في إكرامهم والاحتفاء بهم.

وحين وصلوا إلى مكة المكرمة دخلوها في يوم مشهود. فأغدقت السيدة خناثة على الفقراء والمحتاجين من الأموال بما سارت به الركبان، ومنحت من صنوف الهبات والعطايا ما أكسبها الذكر الحسن والثناء الجميل. فأمر المولى عبد الله كاتبه الإسحاقي بإثباته في سجل يُدون أخبار هذه الرحلة ويُبقي ذكراها للإجيال من بعده، وتوجد نسخة بذلك في خزانة القرويين منذ عام 1156 هـ.

ولما عاد الأمير الصغير من المشرق إلى أرض الوطن، تزاحمت في ذهنه صور المواقف التي حضرها، ونبض قلبه بالأخوة الإسلامية الشاملة. فكان أحرص الناس على التعاون والتواصل، والدعوة إلى العروة الوثقى التي لا انفصام لها. وكانت مدينة مكناس حينئذ، حيث عاش المولى سيدي محمد في كفالة والده وجدته، تعرف نوعا من القلق والاضطراب السياسي الذي لم يؤثر في الأمير الصغير إلا أثرا ضعيفا.

شب الأمير الصغير تحت رعاية والده وعناية جدته، ونهل من منابع العلم حيث تمكن من دراسة الأدب والتاريخ والفقه والحديث قبل أن يهتم بالجمع والتأليف إلى أن أصبح من العلماء الأفذاذ والبارزين في قضايا الشريعة والأحكام.

وما كاد يبلغ الخامسة والعشرين من عمره حتى عينه والده خليفة له على مراكش، نظرا لما كان يتحلى به من شخصية قوية وكفاءة عالية في التسيير والتدبير. وبرزت مواهبه في الحكم والسياسة في تلك المدينة التي كانت تجتاحها يومئذ الفوضى والانحلال والمكائد من طرف المتمردين الذين حز في نفوسهم أن يروا مراكش ترفل في الرخاء، وتنعم بنظام محكم، ويسود فيها النظام بعد الفتن التي تمخضت عن عصيان قواد جيش البخاري وتمردهم في مكناس بعد وفاة المولى إسماعيل وتنازع أبنائه : أحمد الذهبي والعباس وعبد المالك وعلي والمستعين على الملك.

ولقد حاول المولى سيدي محمد بن عبد الله إصلاح أوضاع مدينة مراكش بمجرد حلوله بها، ولكن العناصر المناوئة له ناصبته العداء، فرجع إلى مدينة آسفي حيث انكب على وضع خطة تضمن إقرار الأمن والازدهار والعمران لسائر القبائل المحيطة بمراكش.

وتفطن المتمردون ـ فيما بعد ـ لمزايا سياسة سيدي محمد الثالث فبعثوا وفود المستشفعين إلى آسفي يطلبون رجوع الأمير إلى مراكش، فتفضل بالاستجابة لهذه الرغبة وعاد إلى المدينة متفرغا فيها لأعمال البناء، والتشييد وتنظيم الجند ووضع المشاريع وتنفيذ ما كان يسعى إليه من إستقرار وعمران.

وفي ربيع الأول من عام 1162 هـ / 1749 م شقت عناصر من جيش البخاري عصا الطاعة على والده المولى عبد الله بمكناس وزرهون وخطبوا باسمه وأرسلوا يستقدمونه إليهم من مدينة مراكش، ولكن سيدي محمد بن عبد الله برهن على حسن ولائه لأبيه ووفائه له، فرفض الانسياق لهذه المؤامرة، بل وبذل جهودا محمودة لإرجاع

تلك العناصر إلى طريق الصواب وحملهم على التصالح وتقديم فروض الطاعة والولاء للسلطان المولى عبد الله.

والحقيقة أن سيدي محمد كان يقظا بعيد النظر، متعمقا في دراسة التاريخ، شديد التمسك بالحق وبوحدة الوطن. فتغلب وفاؤه لأبيه على وسوسة النفس الأمارة بالسوء، فرفض ما دعاه إليه المتمردون، ورد عليهم بيعتهم، وقبح أعمالهم، وسعى بعد ذلك في إصلاح ما بينهم وبين والده.

وجاء إلى مكناس عام 1163 هـ فوجدهم مستمرين يخطبون باسمه، فدعاهم من جديد إلى طاعة والده، وتشفع لهم عنده، ولكنهم لم ينتهوا إذ عادوا سنة 1164 هـ إلى مراودته مرة أخرى، ولكنه ردهم إلى طريق الصواب وكتب إلى أبيه فسامحهم وعفا عنهم.

وفي عام 1169 هـ/1756 م توجه إلى سوس، فأصلح أحوالها، وتمكن من إقرار الأمن فيها، وتقوية حامياتها، واهتم بشؤون تارودانت وأكادير، وتفقد قبائل الشاوية، وبسط السلطة الشرعية على الناحية كلها، ثم سار إلى العدوتين والقصر الكبير وشفشاون وتطوان وطنجة والعرائش فأصلح من شأنها ورتب أعمالها وأقام نوابه على المدن والقبائل واجتهد في إنشاء السفن.

وقد استطاع سيدي محمد بن عبد الله تحقيق كل هذه الأعمال بحنكة سياسية ومهارة عالية وخطط خالية من أي شكل من أشكال القمع والعنف والإرهاب، كما أكدت ذلك وثائق عدد من الدبلوماسيين الأجانب الذين عاشروه، مثل القنصل الفرنسي شينيي والمؤرخين تيراس وجاك كايي، كما أكدتها كذلك الشهادات والكتابات والمذكرات التي سجلها ودونها المؤرخون الذين اهتموا بدراسة حياة هذا السلطان وبالمناخ السياسي والاجتماعي الذي كان سائدا في عصره.

ونظرا لما عرف به سيدي محمد بن عبد الله من لين في السياسة وحزم وعزم في التدبير والتنفيذ، ألقى إليه المغاربة زمام أمورهم وبايعوه بعد وفاة والده في فاس يوم 25 صفر 1171 هـ/ بداية شهر نوفمبر سنة 1757 م.

وقد بويع أول الأمر في مدينة مراكش، ثم حمل إليه أهل فاس بيعتهم، فتوجه إليها معرجا على الثغور، يتفقد أحوالها، ويرعى شؤونها قبل وصوله إلى العاصمة العلمية حيث تولى الملك وقد حنكته التجربة والدراية، وسئم الناس الفتن، فأعاد إلى النفوس الطمأنينة، وإلى الحياة بهجتها، وسار في الناس سيرة حسنة، وبنى المآثر الخالدة، ورعى الدين وأقام العدالة، وجدد للمغرب عزه وصولته ومجده وبطولته، وعد مجدد الدين والدولة على رأس المائة.

وكان سيدي محمد في خلافته الكبرى كعهده في خلافته الصغرى، حين كان نائبا وخليفة لأبيه. بيد أن مسؤوليته صارت أعظم، وأعباءه أثقل، لأنه أصبح يسوس ملكا متباعد الأطراف، فكان دائم السعي، متواصل الحركة، لا يهمل شيئا من أحوال رعيته، ويحسن اختيار الرجال والقيام بأعمال الجهاد ورعاية شؤون البلاد، يتعهد الثغور ويتفقد الأطراف ويتغلغل داخل الوطن.

وتعرض المغرب خلال تلك الفترة لمجاعة وقحط شديدين، فرأى الناس من سلطانهم رحمة وشفقة خففت من وطأة البؤس والغلاء عليهم، ثم إنه أمر بجلب الأقوات من خارج الوطن وبيعها بأثمانها، ولم ينس إعداد المطاعم للأرامل والأيتام والمساكين، وترتيب الخبز للضعفاء في كل حي من أحياء المدن لتوزيعه على الدور، حتى قيل إن عطاءه لأهل العدوتين شمل الخواص والعوام زيادة على أصحاب الفاقة من أرباب البطاقات، فكان أمناء الخبز يطوفون به ويطرقون الأبواب، وكانت المواد الأخرى الضرورية توزع ببطاقات مطبوعة يأتي بها الشخص في متم كل شهر ليأخذ من المكلف ما تنص عليه تلك البطاقة، ويشهد على ذلك العدول.

وفي هذه السنين المجدبة أسقط المولى سيدي محمد بن عبد الله كل أنواع الخراج والضرائب عن الناس إلى أن عم الخصب وارتفع القحط وعاد الرخاء.

ومع ذلك كله، لم ينس سيدي محمد بن عبد الله مكتبته وقراءاته، فاشتغل بدراسة كتب الحديث إلى أن تبحر فيها، وأصبحت له أفكار ثاقبة ورائدة في المذاهب الفقهية والكلامية، فتزعم بذلك النزعة السلفية التي تدعو إلى الاقتداء بالسلف الصالح لإصلاح أمور الرعية، بالإضافة إلى ما يقوم به من الشؤون الداخلية وجمع كلمة الأمة.

وهكذا وضع سياسة محكمة في ميدان المالية، واعتمد أنظمة فعالة لتقوية مالية الدولة وضبط مداخليها وتحسين مواردها المالية بواسطة برامجه الإصلاحية في الميدان المالي، وبذلك نمت مداخيل الدولة وارتفع المستوى المالي للحكومة وأصبحت قادرة على مواجهة المطالب العديدة، وتأمين النفقات التي تتطلبها مشروعات التجهيز والتنظيم التي كان يقترحها ويسهر على تنفيذها السلطان سيدي محمد الثالث بنفسه.

كما أعاد تنظيم التجارة الخارجية، ونظر فيها من حيث التصدير والاستيراد بعين المصلحة العامة، فشجع التجار الأجانب على التعامل مع المغرب وعلى إقامة وكالات لهم في مختلف المدن المغربية.

واتخذ أيضا تدابير إيجابية تضمن للاقتصاد المغربي ازدهاره ورواجه، فأنشط حركة التسويق للبضائع من الموانىء المغربية إلى أقطار أوروبا كلها، فانتعش هذا الجانب من الاقتصاد الوطني وعاد على الدولة بالخير الكثير والمنفعة العظمى.

واتجهت عنايته كذلك إلى معالجة المشاكل الاجتماعية للرعية، وخاصة تخفيف الفقر والبؤس، فنظم الإحسان وأنشأ له إدارة خاصة تضم دواوين متعددة تتولى توزيع العطايا والصلات على الطبقات المحتاجة وتعنى بالضعفاء والطلبة والأيتام والأرامل والمساكين والعلماء والمؤذنين وغيرهم من الطبقات المعوزة.

واعتنى أيضا بالناحية الأخلاقية والإنسانية، فأصدر وصية للأمة يدعو فيها كل طبقات الشعب بالنصائح الثمينة والإرشادات السديدة والآراء الحكيمة إلى جمع الكلمة والاقتداء بسنة سيد المرسلين، ويحثها على طلب العلم والسعي إلى الارتواء من ينابيعه وبثه بين الناس.

وأصلح العدل والقضاء في البلاد، واهتم بإصلاح أحوال جامعة القرويين بفاس، وأصدر مرسوما أمر فيه بقراءة التفسير والحديث والفقه من الكتب القديمة، وبتدريس السيرة النبوية والنحو والصرف والبيان والأدب والحساب والفلك، عاملا على إنعاش وتنشيط الحياة الثقافية والفكرية والعلمية في عهده الزاهر.

وقد شهد له المؤرخون بسعة اطلاعه وإدراكه وقوة حافظته، سيما في التاريخ والأدب والسياسة والعلوم الفقهية، حتى قال عنه مؤرخه الزياني : (كان يستحضر كل ما يطالع حتى كاد أن يحفظ كتاب الأغاني برمته لا يعزب عنه منه إلى النادر).

وقال عنه أحد علماء المغرب : (إن محمدا بن عبد الله هو سلطان العلماء وعالم السلاطين).

وقال آخر : (أما خزانة جامع القرويين فإنه عني بأمرها وشدد في صيانة نفائسها وجعل فتحها لا يقع إلا على يد العدلين القائمين عليها بحضور القاضي والإمام، وأمر أن لا يخرج منها كتاب إلا بإشهاد، وقد نشر منشورا بين فيه ما يراه صالحا للتدريس في مساجد فاس، وأمر بالاقتصار عليه، فنص في الحديث على تدريس المسانيد والصحاح، وفي الفقه على دراسة المدونة والبيان والتحصيل والمقدمات لابن رشد وجواهر ابن شاس ونوادر ابن أبي زيد القيرواني ورسالته، وكتب الأقدمين. أما المختصر فقصر دراسته لمن أراده على شرحي بهرام والخرشي الكبيرين والمواق والحطاب والأجهوري، ونص في السيرة على الاكتفاء للكلاعي وسيرة ابن سيد الناس، ونص في النحو على التسهيل والألفية، وفي البيان على الإيضاح والمطول، وفي الأدب واللغة على دواوين الشعراء الستة ومقامات الحريري والقاموس ولسان الإيضاح والمطول، وفي الأدب واللغة على دواوين الشعراء الستة ومقامات الحريري والقاموس ولسان العرب، ورأى الاكتفاء في الكلام بعقيدة ابن أبي زيد، وأطلق فيما يقرأ في التفسير والتصريف والاسطرلاب والحساب، ونهى عن قراءة مواضع من الكتب كالربع الأخير من الشفاء وحديث الافك من البخاري، أما المنطق والكلام والفلسفة وكتب غلاة الصوفية والقصص فمنع قراءتها في المساجد خشية إضلال طلبة البادية : «فإنهم يأتون من بلادهم بنية خالصة في التفقه في الدين وحديث رسول الله ﷺ، فحين يسمعونهم يدرسون هذه العلوم التي نهينا عنها يظنون أنهم يحصلون على فائدة بالعلوم المذكورة ويتركون مجالس التفقه في الدين واستماع حديث خير المرسلين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وإصلاح ألسنتهم بالعربية فيكون سببا في إضلال الطلبة».

وفي حقل التعليم والتدريس والتحصيل، فقد وجه كثيرا من جهوده وأعماله إلى هذا الميدان، فعني بنشر وإشاعة العلم في جميع المدن والمداشر والقُرى والدواوير النائية عن الحواضر، ومهد للطلبة سُبل الحصول على العلم، وساعدهم بالمنح، وشيد لهم الدور والمدارس، وحث العلماء والفقهاء على الانتقال إلى الأرجاء والأنحاء القصية لتعليم الصبيان، وكان يخص العلماء بالنعم والعطايا السخية ويقضي حاجاتهم ومآربهم حتى يتفرغوا إلى التدريس والتأليف والتعليم.

وكانت بمكناس دويرة للكتب إسماعيلية النسبة تشتمل على ما يزيد على اثني عشر ألف مجلد، فوزعها على جميع مساجد المغرب وحبسها عليها ليعم نفعها طلاب العلم ورواد المعرفة، فأصبحت كتبُها مشاعة الفوائد دانية القطوف بعد أن كانت على رفوفها مقصورة وفي دويرتها محصورة، وكان شروعه في ذلك سنة 1175 م.

وشارك السلطان محمد بن عبد الله في التأليف فصنف على سبيل المثال لا الحصر كتاب (الفتوحات الإلهية في أحاديث خير البرية) و(مواهب المنان بما يتأكد على المعلمين تعليمه للصبيان) و(الجامع الصحيح الأسانيد المستخرج من ستة مسانيد).

وكان السلطان العالم سيدي محمد بن عبد الله تربطه بعلماء مصر علاقات متينة، فكان يكاتبهم ويكاتبونه في عدة مسائل، وكان يعرض عليهم بعض ما يخطر له من الخواطر المتصلة بهذا الجانب أو ذاك من جوانب الحياة العلمية وقضاياها المختلفة، وكذلك كانت له صداقة مع شيخ الإسلام بالاستانة - إسطنبول اليوم - وقاضي قُضاتها وفقهائها.

وباختصار، كان هذا السلطان العظيم مفكرا حرا ومُصلحا اجتماعياً ودينياً وداعية من دعاة الوحدة العربية والإسلامية، وكان ذا عقل وقاد وفكر عبقري وهمة عالية، وكان في جميع أحواله وأعماله يحدوه الإخلاص وخدمة الإنسانية.

وعرف المغرب في عهده إزدهارا واسعاً واستقرارا شاملا لم يعرفهما منذ وفاة جده المولى إسماعيل، وأصبح في سنوات قلائل محل إعجاب وتقدير واحترام من كل الدول التي كانت تربطها بالمغرب روابط الصداقة والتعاون، حتى تلك الدول التي لم تكن قد اتصلت به من قبل.

وقد تميزت مدة خلافة السلطان سيدي محمد بن عبد الله بتنظيم الجيش المغربي وإصلاح الإدارة وتحرير مدينة الجديدة من الاحتلال البرتغالي، وتجهيز الجيوش لمحاصرة الثغور المغربية التي كان يحتلها الاسبان في شمال البلاد، واعتنى بالبحرية المغربية وأحيا صولتها وأمر بإنشاء السفن في كل من الرباط وسلا والعرائش، وأنشأ فيها مراكز هامة تتولى صناعة السفن الحربية وغيرها.

وهكذا كثرت السفن على اختلاف أحجامها وطاقاتها ومهامها وأنواعها، وارتفع عدد البحارة المتمرسين القادرين، كما زودت السفن بالمدافع وأسند أمرها إلى الرجال الاكفاء، حتى يضمنوا للمغرب هيبته، ويقوموا بحراسة الشواطئ حراسة كاملة.

ولم يغفل عن بناء قواته البرية وإمدادها بما تحتاجه، لأنه كان يقتدي بجده العظيم المولى إسماعيل، ويريد أن يُكمل مشروعه بتحرير الثغور المغربية وتطهير شواطئها من الاحتلال الأجنبي، وهكذا افتتح سنة 1182 مدينة الجديدة التي كانت معروفة آنذاك باسم البريجة، وطوق مدينة مليلية بنفسه سنة 1185 هـ، وأما المنجزات العمرانية التي أقامها سيدي محمد الثالث فكانت عديدة ومتنوعة، منها المدن والأبراج والجسور والمساجد والقصور والقصبات وغيرها كثير.

ثم جهز قوات من المشاة بلغ عدد أفرادها في عهده أزيد من 24 ألف رجل علاوة على كتائب قارة للحراسة المستمرة في الأبراج والموانئ كطنجة والعرائش والمهدية والرباط وسلا والمحمدية والدار البيضاء وأزمور وآسفي والصويرة وأكادير وغيرها، كما جدد صناعة السكر التي كانت عنوان تقدم المغرب الصناعي، وقام بتقسيم المملكة إلى تسع عشرة ولاية، كما أنشأ بعض المدن مثل الصويرة وفضالة ووسع رقعة مدينة الرباط وأكثر من بناء القلاع والحصون والأبراج لصيانة الأمن داخل البلاد وحراسة الوطن من المفاجآت الخارجية.

واستطاع السلطان محمد الثالث بفضل سياسته الحكيمة أن يجمع بين البناء الداخلي وبين مواصلة الجهاد

لتحرير الثغور المغربية، مع السعي الدائم إلى وضع حد للاسترقاق بواسطة الافتداء المتبادل للأسرى المسلمين والمسيحيين، وقد بلغ عدد من افتدى من الأسرى المسلمين أزيد من 50 ألف أسير.

وأبرم في هذا النطاق معاهدات واتفاقيات مع كثير من الدول الأوروبية، كما كان أول من اعترف باستقلال الولايات المتحدة الأميركية، وعقد مع جورج واشنطون معاهدة كانت بمثابة اللبنة الأولى في صرح العلاقات المغربية الأمريكية.

وفي عام 1203 هـ/1790 م اضطر محمد الثالث إلى التحرك من مراكش لتدارك أمر ابنه المولى اليزيد الذي اعتصم بضريح المولى الصالح مولاي عبد السلام بن مشيش بعدما تمرد على سلطنة والده بتغرير وإيعاز من بعض المنحرفين من قادة الجيش.

وقد اشتد به المرض في الطريق فتوفي قرب وادي شراط وذلك بعد العشاء من ليلة الاثنين 26 رجب 1204 هـ/1790 م ودفن بالرباط، وكان له من العمر سبعون سنة قضى منها في الملك ثلاثا وثلاثين سنة.

السلطان العالم

دون السلطان سيدي محمد بن عبد الله عدة مجموعات في الفقه والحديث، لا تزال إلى اليوم منتشرة في المغرب وفي غيره من البلدان العربية والإسلامية والافريقية، وقد كتب العلماء تقاريظ كثيرة لهذ الكتب الآتية أسماؤها :

1) ـ «مواهب المنان بما يتأكد على المعلمين تعليمه للصبيان»، وقد ذكر فيه أنه حين كان في طريقه من مكناس إلى مراكش وجد كل من اختبره منهم ضعيف العلم بالدين فـ : حملني ذلك، لما انطوى عليه الفؤاد من حب النصح للمسلمين، أن أجمع لهم مسائل مهمة من علم أمور الدين، قريبة المقاصد، شهيرة الموارد، مقتصرا فيها على الضروري ليسهل حفظه على الصبيان، وهي أيضا نافعة لمن اقتصر عليها في دينه من الشيوخ والكهول والشبان.

2) ـ «طبق الارطاب فيما اقتطفناه من مساند الأيمة وكتب مشاهير المالكية والإمام الحطاب ـ ذكر في بدايته أنه كان قد ألف كتابه (بغية ذوي البصائر والألباب في الدرر المنتخبة من تأليف الحطاب).

فبرز (وسارت به في الآفاق الركبان، وانتفع به الناس ولله الحمد في سائر الأقطار والبلدان). وإنه كان اقتصر فيه على عقيدة ابن أبي زيد وكتابي الطهارة والصلاة، ثم بعد سنة من تأليفه رأى كماله ببقية قواعد الإسلام فألف : الفتح الرباني، فيما اقتطفناه من مساند الأيمة، وفق الإمام الحطاب، والشيخ ابن أبي زيد القيرواني.

ثم بعد سنتين من تأليفه أعاد النظر فيه ونسب المسائل لقائلها وسماه طبق الارطاب، وفرغ من تأليفه أوائل ربيع الآخر سنة 1204 فيكون آخر مؤلفاته، وتوجد منه نسخة بخزانة القرويين عليها تقريظان أحدهما للشيخ محمد بن محمد الأمير المالكي الأزهري، والآخر للشيخ محمد بن المعطي الأزهري الحريري الحنفي بخطهما.

3) ـ الجامع الصحيح الأسانيد المستخرج من ستة مسانيد.

وهو كتاب استخرجه من الصحيحين والموطأ ومساند أحمد والشافعي وأبي حنيفة ورتبه على أبواب الفقه من عبادات ومعاملات، وذيله ببابين أولهما في المواعظ والرقائق، والآخر في فضل الذكر، وختمه بفصلين أحدهما في شرح قوله في طالعة كتبه الحنبلي اعتقادا، وثانيهما في الأيمة الأربعة، وقد قرظه من علماء مصر الأمير والحريري وتقريظهما بخطهما يوجد على ظهر نسخة منه بالخزانة الزيدانية، وفي خزانة القرويين منه نسخة في جزءين آخرهما الحج والعمرة.

4) ـ الفتوحات الإلاهية الصغرى :

تشتمل كما ذكر في أولها على ثلاثمائة حديث وزيادة، وكان مراده أولا جمع أربعين حديثا، وقد خرج فيها أحاديث من الصحيحين واصحيحين والموطأ ومسند الإمام أحمد. ولم يكن قد ظفر بسندي أبي حنيفة والشافعي، وصدره بمقدمة في حديث إنما الأعمال وقسمه كتبا على : الإيمان ثم العلم والطهارة والصلاة والأذان وفرض الصلاة والجمعة والزكاة والصيام والحج والعمرة والجهاد والادعية والاذكار، وفي كل كتاب تراجم، وختمه

بذكر آل البيت ومن استشهد منهم : عبيدة بن الحرث وحمزة وجعفر ومناقب علي وفضائل خديجة وبناتها (زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة) وابراهيم والحسن والحسين والعباس ثم مناقب الخلفاء الأربعة، ثم مناقب الزبير وبقية العشرة.

5) - الفتوحات الإلاهية الكبرى :

وهي أشهر مؤلفاته فرغ منها في جمادى الآخرة سنة 1198 - وتولى بعضهم شرحها، وممن أقرأها بالمغرب الشيخ التاودي بن سودة (1209) والشيخ محمد بن أبي القاسم السجلماسي (1214)، وممن شرحها السيد محمد بن عبد القادر الصبيحي - النافعي الزغلولي المعروف بابن قدور دفين زرهون (1231)، وكان شرحه للفتوحات في عهد مؤلفها.

أما في المشرق فقد حبس مؤلفه على إقرائه وتدريسه أحباسا في المدينة المنورة والاسكندرية فجعل - سنة 1201 - لمن يقرأ الفتوحات والجامع الصحيح الأسانيد من أهل المذاهب بالمدينة مائة دينار في كل ختمة يأخذ الفقيه مائتي دينار كل ثلاثة أشهر عن ختميتهما، وحبس على من يقرأ كتاب (الفتوحات) ويدرسه في الاسكندرية أوقافا، وقد استمرت العادة على ذلك إلى عهد السلطان مولاي عبد الرحمن.

وكان للسلطان سيدي محمد بن عبد الله فضل كبير في نشاط حركة التأليف في عصره، فقد كلف ثلاثة من العلماء بشرح مشارق الصغاني هم الشيخ التاودي والسيد عبد القادر بوخريص، والمولى ادريس العراقي الحافظ، إلا أنه مات ولم يتمه، فأمر ولده المولى عبد الله بإكماله. وكلف السيد التهامي بن عمرو بشرح الأربعين النووية، وأمر كاتبه الغزال بتدوين رحلته للأندلس فكتب (نتيجة الاجتهاد) كما أمر كاتبه ابن عثمان بكتابة رحلته الحجازية فجمعها في (احراز المعلى والرقيب) وكلف غير هؤلاء من العلماء بكتابة مسائل علمية أخرى.

ونقل إلى مراكش علماء من فاس منهم المولى عبد الله المنجرة والسيد محمد بن الشاهد، ومن مكناس السيد أحمد بن عثمان ومن تادلة السيد محمد بن عبد الرحمن الشريف، ومن سلا الطاهر بن عبد السلام، وهؤلاء وزعهم على مساجد مراكش، فكانوا يدرسون بها ويحضرون معه في مجالسه الحديثة التي كانت أساسا للمجالس الحديثية عند ملوك الدولة العلوية الشريفة، فقد اقتفى أثره في مجالسه العلماء ومباحثهم ولده السلطان المولى سليمان وابن أخيه وولي عهده السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام بن محمد بن عبد الله حيث أصبحت المجالس الحديثية سنة مرعية إلى عهد جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله.

وكانت للسلطان المترجم مجالس أخرى مع العلماء والفقهاء والأدباء.

د. التهامي محمد الوكيلي

من الأزهر الشريف إلى مجلة دعوة الحق

●● ننشر في العدد القادم ردا وافانا به الأزهر الشريف بمصر، حول مقال "أخطاء مصحف مصر" للدكتور الراجي التهامي الهاشمي ●●

العرش المغربي أقدم العروش

للأستاذ عبد العزيز بنعبد الله

(4)

وأسفرت الدسائس الموصولة المنسقة بين بعض دول أوربا عن تشديد الضغط على المغرب بواسطة القروض الإجبارية وحركات التهدئة المتعللة بحماية الرعايا الغربيين والتخوم الشرقية عن فرض الحماية على السلطان مولاي عبد الحفيظ الذي كانت انتفاضته في الجنوب تهدف إلى صون السيادة بجيوش استنفرت من الصحراء وأقصى الجنوب وتجمعت حشودها في الساقية الحمراء بزعامة الشيخ ماء العينين وولده (الهيبة) وانضمام المجاهدين من الأطلس والسهول وما كاد نبأ توقيع المعاهدة بفاس يطرق الأسماع حتى انتفض السكان والقبائل المجاورة وطوقت المدينة وامتلأت الأسوار بآلاف المجاهدين بزعامة الحجام وثار الجيش السلطاني على ضباطه الفرنسيين وكانت ملحمة دامية قتل فيها عدد من الفرنسيين (17 أبريل 1912) وشارك في الحملة الجماعية ضد الوجود الفرنسي العلماء والتجار والنساء والأطفال فقتلت فرنسا جانبا من المدينة وأعدمت عشرات السكان وتجمعت السلطات في يد شخصية عسكرية هي الجنرال اليوطي الذي ورد على فاس يوم 28 مايو في خضم من الاضطرابات الشعبية مالبثت أن شملت المغرب عن بكرة أبيه (27) فثار بنو مطير وكروان وزعير وتادلا وزحف (الهيبة) على مراكش ونقل السلطان بعد تنازله عن العرش إلى فرنسا فبويع أخوه مولاي يوسف من الغد وسير اليوطي خمسة آلاف جندي لصد (الهيبة) وجيشه الزاحف نحو الشاوية وحصل منذ 1914 من فرنسا على قرض بلغ مائتي مليون فرنك لتصفية الماضي وشراء بعض الضمائر وتركيز القواد الإقطاعيين في الجنوب وفي طليعتهم (التهامي الكلاوي) ومحاولة قمع شعاب الأطلس الكبير في حركة عسكرية من مراكش إلى الصويرة ودمنات بمعونة جهاز إقطاعي عملت فرنسا على مساندة تعنفاته وواصل الجنرالان مانجان وكورو حركة الإبادة في الشمال والشرق ثم قامت الحرب وحجزت الحماية قموح المغرب لفائدة فرنسا المحاربة التي درت عليها هذه الصفقات خلال ثلاث سنوات (1914 ـ 1917) ثلاثمائة مليون فرنك ذهبي (28) واندلعت الثورة في تافيلالت عام (1916) ثم الملوية العلوية (1919) وظل جيش الاحتلال

---

27) يلاحظ أن العمال المغاربة الذين كانوا يشتغلون إذ ذاك في مد السكة الحديدية بين الرباط وسلا غادروا أعمالهم في جنح الليل دون المطالبة بأجورهم (كتاب أندري كوليز حول الحماية 1930 ص 104).

28) أي مليار ونصف بصرف 1930 وأكثر من 30 مليارا بالصرف الحالي.

المتحرر من قيود الحرب يواجه الحملات القبلية طوال أربع سنوات (1920 ـ 1923) في الأطلس الصغير وبين لكوس والملوية.

واتسعت شبكة المقاومة المسلحة في الأطلس والصحراء والشمال والجنوب فاستمرت في زيان وبني مكيلد إلى عام 1923 وفي وادي العبيد (29) من 1929 إلى 1931 وفي آيت يحي وآيت إسحاق والبحيرة إلى 1923 وفي ملول وأعالي الأطلس إلى 1933 وقد اصطدم القواد الإقطاعيون في نفس الوقت بصمود شعبي أججته الحملات التي تبلورت في مراكش ضد المستعمر وأعوانه ثم في الشمال هزم محمد أمزيان بالريف عام 1909 ثلاث فرق أسبانية مات من رجالها جنرالان وعشرة آلاف جندي ثم ثارت جبالة عام 1913 في الشاون وتطوان إلى أن تحالف الأسبان مع الريسوني خلال الحرب العظمى ورغم انهزام جيش الجنوب في سيدي عثمان فإن حركة الفداء امتدت جذورها في الساقية الحمراء والسوس والأطلس الكبير إلى عام 1935 (30) وقد ذاق الفرنسيون الأمرين في تافيلات وآيت عطة على يد الشريف الملالي المعروف بموحا حمو نيفروطن الذي كافح ضد الجنرال (بويميرو) من 1917 إلى 1929 في انتفاضة أودت بحياة جم غفير من الجنود وواصل النضال خلفه النقادي إلى 1935.

وكانت الأمة من نهر السنغال إلى سواحل المتوسط قد قامت قومة رجل واحد لمناوأة المحتل ولم تنجح أساليب الاستعمار الناشىء التي ارتجلها (لوطي) ودعت إليها أبواقه الصاخبة لأن الأمة لم تضع السلاح إلا بعد نفاده في غير رهبة ولا رغبة.

وقد انبرى آل عبد الكريم الخطابي غب الحرب العظمى يواصلون سلسلة الغارات على الأسبان بمعركة (أنوال) التي انهزم فيها الأسبان في 21 يوليو عام 1921 بعد اصطدام شديد مدة ستة أيام واستولى المجاهدون على عشرات المراكز الحربية و220 مدفع و20.000 بندقية ومليون خرطوشة علاوة على السيارات مما ساعد الجيش الريفي على خوض غمار موقعة (عريت) والضرب على أيدي الأسبان الذين طوردت فلولهم إلى أرباض مليلية وفي يوم 25 مارس 1922 تصدت المدفعية الريفية لجيش العدو حول الحسيمة فخر (برانجي) ثمانية آلاف بين قتلى وأسرى ودمر المغاربة مراكز كما أغرقوا بوارج حربية بمفعول سفينتهم الوحيدة واهتاج الأسبان وانصاعوا للاتفاق وفي عام 1923 استولى المقاومون على مراكز العدو بين جبل درسة وشفشاون وكبدوه هزيمة فظيعة حول مدينة (داغيت) تحرج بعدها موقع الجيوش الأسبانية فبادرت حكومة مدريد بطلب الصلح وبدأوا ينسحبون عن مائتي مركز من مراكزهم وأحست فرنسا بتزايد الخطر الداهم الذي أصبح يهددها لا في المغرب وحده بل في إفريقيا فحشدت في ربيع 1926 اثنين وخمسين جنرالا ومائة وعشرين ألف رجل و22 سربا من الطائرات وعتادا ضخما، فأسفرت الحملة المنسقة التي عززت بعناصر التخاذل ودعاة الهزيمة من رجال القبائل والمشعوذين ـ عن استسلام محمد بن عبد الكريم يوم 25 مايه 1926.

وحجرت فرنسا على السلطان رمز السيادة والمؤتمن على التشريع فصارت تحضر ما تشاء من الظهائر وتدفعها للختم السلطاني وتحكم المغرب حكما مطلقا من وراء السلطان والوزراء وثلة من رجال المخزن لا يتجاوزون الستين فكان الصدر الأعظم يركز القضايا الإدارية بصفته وزيرا للداخلية ويقنن بواسطة قرارات وزيرية وتساعده في تسيير الشؤون العامة ظاهريا وزارات العدلية (لا العدل) والأوقاف والأملاك المخزنية وكان الصدر يشرف على المحكمة الجنائية العليا التي تبت في الأحكام الصادرة عن القواد والباشوات بينما يخضع مجلس الاستيناف الشرعي لوزارة العدلية.

وكان الحاكم الحقيقي هو المقيم العام الذي استغل نفوذه المزدوج كموظف فرنسي ومغربي في آن واحد لفرض التشريعات وتمثيل السلطان مع الدول الأجنبية والإشراف على المصالح الإدارية وقيادة الجيوش البرية والتصرف في القوات البحرية بمساعدة أربعة دواوين وكانت توجهه عمليا وزارة الخارجية الفرنسية كما ينوب عنه وزير مفوض عند

---

29) أسر الوطنيون في بني ملال أربعة أوربيين فدتهم فرنسا بسبعة ملايين فرنك (گوليز ص 155).

30) راجع الحركات الاستقلالية في المغرب العربي للأستاذ علال الفاسي 1948 ص 107.

الاقتضاء وكانت الكتابة العامة للحماية هي التي تسير مصالح المراقبة عن طريق إدارة الشؤون الأهلية والاستعلامات وإدارة الشؤون المدنية (البلديات والسجون والشغل والشؤون الاجتماعية) كما تسيطر على مرافق الدولة بواسطة المصالح المالية (الميزانية والضرائب والتسجيل والأملاك المخزنية والخزينة العامة) والاقتصادية (إدارة الأشغال العمومية وإدارة الفلاحة والتجارة والتعمير وإدارة البريد والبرق والهاتف) والاجتماعية (الإدارة العامة للتعليم والفنون الجميلة والقديمة والإدارة العامة للصحة) والإدارة العامة للشؤون الشريفية (المكلفة بربط العلاقة بين المخزن والإقامة العامة عن طريق مراقبين).

أما في الأقاليم فإن الباشوات والقواد والقضاة أصبحوا يتقاضون أجورا خاصة وتراقب أعمالهم من طرف موظفين فرنسيين كان معظمهم ضباطا عسكريين وقد قسم المغرب آنذاك إلى أربع نواح عسكرية (فاس ومكناس وتازة ومراكش) وأربع نواح مدنية - الشاوية أو الدار البيضاء والرباط والغرب وعمالة وجدة - علاوة على أربع مقاطعات بدكالة (الجديدة) وعبدة (آسفي) والشياظمة (الصويرة) ووادي زم.

وقد أحيلت المراكز الحضرية إلى بلديات عددها خمس عشرة يعين الباشا على رأسها بظهير بصفته رئيسا للبلدية والمؤتمن على التقنين البلدي وممثل السلطة العليا وبجانبه رئيس فرنسي للمصالح البلدية وقد صدر ظهير عام 1917 يجرد الباشا من نفوذه لفائدة هذا الموظف الفرنسي في ميدان الشرطة والأعمال البلدية والصحة والإسعاف ومراقبة البناء والمالية والحالة المدنية أما المجالس البلدية الأهلية أو المختلطة فإن نظامها كان عرفيا يستمد من تقاليد المدينة باستثناء بلديتي فاس والدار البيضاء ففي الأولى ينتخب أعضاء المجلس البلدي الأهلي بينما يشكل الفرنسيون مجلسا خاصا بهم وفي الثانية يعين الأعضاء بمقتضى ظهير 1922 لثلاث سنوات يجدد ثلثهم كل عام وينتخبون نائبا للرئيس.

وكانت إدارة الحماية (إدارة المالية) تتصرف في ميزانية الدولة التي تستشير في إعدادها مع لجنة الميزانية المركبة من المعمرين الأجانب الذين يحتكرون وضع التقارير المالية فيما سمي بمجلس شورى الحكومة وتصادق وزارة الخارجية الفرنسية على المقررات قبل أن تعرض شكليا على الخاتم السلطاني.

وقد ثقل كاهل الدولة المغربية بقروض متوالية انضافت إلى سلفات ما قبل الحماية (نحو 170 مليون بين سنتي 1904 و1910) فاستلفت فرنسا باسم المغرب لأداء الديون وتعويضات ضحايا حوادث فاس ومراكش 242 مليونا عام 1916 ثم 744 مليونا عام 1920 أدى المغرب منها 300 مليون فبقي عليه عام 1928 أزيد من 700 مليون يؤدي منها أكثر من مائة مليون سنويا.

وظلت السكة الحسنية المضروبة عام 1880 هي العملة الرائجة في السوق الرسمية وإن كان الأجانب طفقوا يستعملون النقود الأسبانية والفرنسية في صفقاتهم وكانت قيمة الحسني ترتفع وتنخفض نظرا لاحتياج الناس إلى العملة الأجنبية في الشتاء لاقتناء السكر والشاي والقطنيات وقد استقرت القيمة منذ 1916 في 125 فرنك.

كان تنازل الدول الأجنبية عن امتيازاتها القضائية القنصلية يستلزم تنظيم العدل بالمغرب عن طريق مراسيم يصدرها رئيس الجمهورية الفرنسية للمصادقة على الظهائر السلطانية وقد تأسست بمقتضى ذلك محاكم أوربية كما أدخل نظام جديد على المحاكم المغربية.

ويشمل هذا النظام الجديد محكمة استينافية بالرباط وخمس محاكم ابتدائية بالعاصمة والدار البيضاء ووجدة ومراكش وفاس وإحدى عشرة محكمة للجنح في كبريات المدن على رأسها قضاة فرنسيون يمتد اختصاصهم إلى الأجانب الذين تنازلوا عن الامتيازات (باستثناء انجلترا والولايات المتحدة) وتخضع هذه المحاكم لمحكمة النقض والإبرام الفرنسية) وقد نظم ظهير 10 يناير 1924 مهنة المحاماة ضمن نقابات تضطلع بالدفاع في هذه المحاكم كما يدافع عن الحق العام وكلاء أو نواب جلهم خاضعون لوكيل الدولة العام.

وقد نص ظهير 4 غشت 1918 على أن السلطان يمثل السلطة القضائية بصفته الإمام الأعظم وينوب عنه القضاة الشرعيون بإصدار أحكام يراجعها مجلس الاستيناف الشرعي في خصوص الشؤون العقارية والأحوال الشخصية (إرث وزواج وطلاق) أو الباشوات والقواد في القضايا

الجنائية التي تستأنف أمام محكمة الجنايات العليا ويسمح فيها للمحامين بالدفاع حيثما وجد مندوب فرنسي للحكومة أي في تسع مدن حسب ظهير 23 أبريل 1926 أما في البادية فإن القواد يتمتعون بالحكم المطلق دون مراجعة في الاستيناف ويسجنون المتداعين إلى حد سنتين دون تعقب وقامت إلى جانب هذا المحاكم الخاصة باليهود المغاربة والمؤسسات العرفية في الأقاليم البربرية حيث يقضي القواد بآرائهم جنائيا وتقضي مجالس الجماعات مدنيا.

وهكذا نرى أن معظم المنجزات التي حققتها الحماية في هذه الفترة كانت تهدف إلى تعزيز الاستعمار والاستغلال وإن كان المغرب قد استفاد منها بصورة غير مباشرة محققا بذلك خطوة مهمة خاصة في ميدان الاقتصاد والتجهيز.

وقد بدأت حركة النضال السياسي موازية للثورة المسلحة تذكيها وتدعو إليها فانبثق بالدار البيضاء عام 1924 مركز للتوزيع والنشر تابع لقادة الريف كما انعقد مؤتمر بفرنسا في السنة التالية نظمه العمال المغاربة لتنسيق العمل التضامني مع جيش الثورة وفاضت قرائح الشعراء في الإشادة بالأبطال وانبرى رسل المغرب منذ شبوب الحرب العظمى يجولون في أقطار شمال أوربا المحايدة للتنديد بالمستعمر ضمن وفود المؤتمر الإسلامي الذي أقر الدفاع عن استقلال المغرب وباقي الأقطار الإسلامية المحتلة وقد قام العالم المغربي محمد العتابي منذ 1915 بحملة ألقى خلالها محاضرات وأجرى اتصالات لتعريف العالم بمحنة المغرب تحت سيطرة الفرنسيين والأسبان وانعقد مؤتمر باستوكهولم عام 1917 نادى بوحدة موريطانيا والمغرب المستقل وكانت أصداء هذه الحركة الخارجية تصل إلى المغرب مقرونة برسائل الحث على المقاومة فتنظم الإضرابات والمظاهرات في الحواضر والبوادي في مختلف المناسبات وظل القصر الملكي في صراع يقوى ويضعف مع الإقامة العامة حين عارض مولاي يوسف سياسة الاستعمار الفلاحي التي دعا إليها المقيم (ستيغ) وطالب فرنسا بعزله.

وظهرت في هذه الغضون حركة سلفية للإصلاح الديني والثقافي باتصال مع المبادئ التي دعا إليها محمد عبده مالبثت أن أسفرت عن ظهور حركة وطنية هدفت إلى تحرير البلاد والعقل معا، باستعادة السيادة للوطن والطهارة الأصيلة للعقيدة الإسلامية وتأسست بالحواضر الكبرى جماعات سرية ركزت عملها السياسي على دعوة سلفية أساسها النهوض بالتعليم وبث الروح القومية والدينية وتوطيد العرى بين الأطر المغربية بجامعة القرويين والمعاهد العصرية وطلبة باريس والشرق وتأسيس المدارس الحرة وتنسيق الروابط مع جمعيتي الشبان المسلمين «والهداية الإسلامية» بالقاهرة إلى غير ذلك.

وقد شعرت فرنسا بخطر الوحدة الدينية ففكر اليوطي منذ عام 1913 بدعوى حفظ التقاليد البربرية (ظهير 11 شتنبر) في تفرقة الأمة بوضع الحجر الأساسي للسياسة البربرية وبعث الأعراف الجاهلية وتمخض العمل الاستعماري السري الموصول عن صدور الظهير البربري في 16 مايه 1930 لتفكيك أوصال وحدة المغرب العربي بتجنيس وتمسيح أغلبية المغاربة تحقيقا لمطمعهم في إدماج المغرب ضمن الحظيرة الفرنسية وهكذا حاول الاستعمار فرنسة البلاد بتحطيم وحدة النظام ووحدة اللغة وإقرار الفرنسية في المحاكم والمدارس والإدارات (31) واستئصال العربية والشريعة الإسلامية مما سمي بالمدارس البربرية والمحاكم العرفية.

وكان رد الفعل الشعبي عنيفا حيث احتشدت الجماهير في المساجد ضد سياسة الإدماج واكتظت الشوارع بالمتظاهرين وتشكلت بفاس لجنة تمثل سائر طبقات الأمة للاتصال بالإدارة الفرنسية من أجل إلغاء الظهير وتوحيد القضاء والاعتراف برسمية اللغة وتعززت هذه الحركة المنبثقة من جامعة القرويين (32) بصريخ العلماء المتعالي من جامع الأزهر وانتقلت المظاهرات الشعبية من مصر إلى الهند وأندونيسيا في سيول طوقت

31) لاحظ دومومبين في أطروحته حول التعليم بالمغرب، أن اللغة العربية كانت هي اللغة الإقتصادية والدينية والإدارية، إذ يرى فيها البرابرة لغة سامية (ص 118) (راجع الحركات الاستقلالية في المغرب للأستاذ علال الفاسي).

32) بقيادة شيوخ أمثال عبد الرحمن بن القرشي وزير العدل السابق وشباب مثل علال الفاسي.

السفارات الأجنبية وأوفدت الكتلة الوطنية رسلا إلى المؤتمر الإسلامي بالقدس لشرح نوايا الاستعمار.

وقد تبلورت هذه الموجة العارمة بتنسيق كتلة العمل الوطني أو الحزب الوطني الذي كان يؤجج الحماس في الشعب كما ينور الفكر العام في أوربا والشرق عن طريق (طلبة فرنسا ولجنة الدفاع عن المغرب) بالقاهرة وشخصيات مثل الأمير شكيب أرسلان واتخذت المقاومة شكلا رتيبا فوزعت النشرات وقوطعت المنتجات الفرنسية من منسوجات وسكر وشاي ودخان وسار العرب والبربر متراصين في هذه الانتفاضة التي حركت وعيا قوميا في نفس الشعب المغربي الموحد.

ودعت الكتلة منذ 1933 إلى إحداث «عيد العرش المغربي» يوم 18 نوتبر وهو يوم جلوس جلالة الملك محمد بن يوسف على العرش واحتفلت الأمة بهذا المهرجان الوطني أمام اندهال الفرنسيين الذين لم يجرؤوا على إعلان معارضته فكان هذا المكسب الجديد تخليدا لذكرى رمز الوطن، وواصلت الحركة الوطنية حملتها اللاذعة ضد سياسة الحماية والاستغلال العنصري مطالبة بإحلال المغاربة الأكفاء محل الأجانب في الوظائف المغربية وتحميل الميزانية الفرنسية لنفقات الاحتلال ولوازم النفوذ الفرنسي والثلث الاستعماري ومنددة بالحكم المباشر المتنافي حتى مع بنود الحماية القاضية بمجرد المراقبة وقدمت الكتلة في نوفمبر 1934 برنامجا أوليا للإصلاح ضمنته بعض مطالب الشعب المغربي في خصوص إلغاء الحكم المباشر وتوحيد النظام الإداري والقضائي وإعطاء الأسبقية للمغاربة في الإدارة وفصل السلط وإحداث بلديات ومجالس إقليمية ومجلس وطني متركب من نواب مسلمين وإسرائليين وغير ذلك من وجوه الإصلاح الاقتصادي والاجتماعي.

وانعقد بالرباط في 11 يناير 1944 مؤتمر ضم قادة الحزب الوطني الذي سمي بحزب الاستقلال وعدة شخصيات من الحركة القومية والهيآت الحرة فوقع المؤتمر على ميثاق وطني أبرز مرفوضية نظام الحماية الذي قاومه الشعب بالسلاح أزيد من ربع قرن والصبغة الاستغلالية التي اتسم بها هذا النظام وانبثاق عهد الحرية بمقتضى الميثاق الأطلسي وطالب بالاستقلال والوحدة والديمقراطية.

ورفع «ميثاق الاستقلال» لجلالة الملك فعقد في 13 يناير مجلسا وزاريا موسعا ضم بعض الرؤساء والأعيان والعلماء فصادق الكل على المطلب الوطني وتشكلت لجنة من وزيرين للاتصال بحزب الاستقلال وبحث مسطرة إقناع الإقامة العامة التي استمرت المحادثات معها ثلاثة أيام دون أن تحيد عن إصرارها على التشبث بعقد الحماية ونظم «أسبوع التضامن في سبيل الاستقلال» تواردت خلاله الوفود وعرائض التأييد على القصر الملكي. وفي 18 يناير أبلغ المقيم العام جلالة الملك «معارضة اللجنة الوطنية الفرنسية للتحرير بالجزائر كل ما من شأنه أن يمس نظام الحماية، ولكن صاحب الجلالة أبا إلا أن يعبر عن استعداده للتضحية بعرشه في مصالح القضية، وجاء تاريخ زيارة جلالة الملك لطنجة عاصمة مملكته الدبلوماسية فأثار الاستعماريون لعرقلتها مذبحة الدار البيضاء في 7 أبريل 1947، وبالرغم عن الحواجز المتعاقبة قام صاحب الجلالة برحلته الميمونة متعمدا جميع المظاهر التي تؤذن بأن طنجة قطعة من التراب المغربي، وخطب صاحب الجلالة أمام الملأ الدولي فأبرز عروبة المغرب ووحدة ترابه وأشاد بالرابطة الإسلامية والجامعة العربية وعبر عن ضرورة تحقيق أماني المغرب القومية وإقرار نظام ديموقراطي وترددت أصداء هذا الخطاب التاريخي في أنحاء المعمور فكان أكبر صفعة للاستعمار.

وقد بدأ الصراع العنيف بين العرش والحماية بخطاب طنجة عام 1947 ولكنه تبلور في الرحلة الملكية إلى فرنسا في 5 أكتوبر عام 1950 وكان جلالة الملك قد حضر عام 1945 في مهرجان عسكري بالعاصمة الفرنسية بصفته رئيس دولة أسهمت في الحرب برجالها وعتادها ولكن زيارته الجديدة لباريس كانت تهدف إلى اقتطاف ثمرة الانتصار المشترك والاستفادة مما أصبح الفكر الدولي يضمنه للشعوب وللتعجيل بتنفيذ ما أعطي للمغرب من وعود في مؤتمر (آنفا) الذي ضم عام 1943 إلى جانب جلالة الملك وولي عهده مولاي الحسن قادة الدول الحليفة (رزوفلت وتشرشل ودوكول وجيرو).

ولم تأت هذه الدعوة عفوا وإنما كانت محاولة مرنة من فرنسا لتلطيف الجو بعد اليأس الذي دفع نواب الغرف

التجارية المغربية إلى الانسحاب مما يسمى بمجلس شورى الحكومة في يوليوز 1950 (33).

كان جلالة الملك صارما في مواقفه بالرغم عن غلاف المرونة واللين، وكان مطلبه يهدف في غير التواء إلى ضمان سيادة البلاد وتحقيق أماني الشعب في الاستقلال دون تقييد بالانخراط في أنواع الرباطات والوحدات الفرنسية، فقدم مذكرة أجابت فرنسا عنها يوم 30 أكتوبر باقتراح إصلاحات جزئية ضمن معاهدة الحماية وعقبت المذكرة الأولى مذكرة ثانية انعقد بباريس جمع وزاري مصغر برئاسة جلالة الملك لتحريرها فتقررت المطالبة بتعديل عقد الحماية في شكل استقلال داخلي يكون مرحلة لتحرر البلاد التام وهنا بدأت المناورات الفرنسية التي كانت نقطة انطلاق لأزمة عارمة عندما دفعت الإقامة العامة عضوين مفروضين على الحاشية الملكية وهما القائدان الكلاوى (34) والعيادي لتزعم المعارضة بإعلان عدم الموافقة على المذكرة ولكن الملك عاد إلى الرباط بعد أن أرسلها صرخة مدوية أقضت المضاجع فاستقبله شعبه استقبال البطل الظافر وازداد تحمس الأمة عندما أعلن في خطاب العرش بعد عشرة أيام جهوده لإقرار الحكم الديموقراطي وعزمه على مواصلة السعي لتحقيق مطامح الشعب واكفهر الجو بتضايق المقيم من هذه الحقائق وعزز الجنرال جوان حملة صنائعه بتهديد الملك يوم 26 يناير 1951 والتعريض بخلعه وتمزيق وحدة البلاد وأرفق جوان هذا الوعيد باستغلال نفوذه العسكري في كتلة الحلفاء بدعوى السلام والأمن في البحر المتوسط والمحيط الأطلسي ضد كل ثورة إقليمية فكانت خطته محبوكة : إثارة الفتنة والارتكاز عليها للقمع باسم الدولة المغربية ورحل جوان صحبة رئيس الحكومة الفرنسية إلى الولايات المتحدة مخولا للقصر مهلة يسيرة للتفكير، وإلا اضطر بعد العودة إلى تنفيذ مؤامرته الجهنمية وكان يعلم أنه مقبل على تسلم مقاليد امة في الدفاع الأطلسي وأن الاستراتيجية العسكرية الغربية تحتم الهدوء في الإقليم المغربي حيث سمحت فرنسا من تلقاء نفسها ودون مشورة المغرب في اتفاق أبرمته مع أميريكا غداة قنبلة السلطان بباريس (22 دجنبر 1950) بتأسيس قواعد جوية في مراكز مختلفة من التراب المغربي ولعل ذلك كان محاولة لإلجام الولايات المتحدة المرتبطة أدبيا مع السلطان بوعود روزفلت ولكن جلالة الملك لم يعبأ بهذا التهديد رغم العرائض التي لفقها الخصوم وهذا الفشل لم يزد الاستعمار إلا عنادا إذ صدرت الأوامر إلى الإقطاعيين بتحريك فرسان القبائل في حشد عام لمهاجمة فاس والرباط وكانت الإقامة قد سلمت في نفس الوقت (25 يبراير 1951) رسالة إلى جلالة محمد الخامس من رئيس الجمهورية الفرنسية يلح فيها على تدارك الأمر بقبول الإصلاحات التي ستؤدي إلى الاستقلال الداخلي ولكن هذه المكايد المعسولة لم تنطل على القصر الذي رأى فيها استدراجا للتنازل عن مبادئه فواجهها بالبرود في إباء وشمم وكان زعماء الاستقلال ينددون في الشرق بهذه الحلقة الطائشة من الاضطهادات فهبت جامعة الدول العربية لتسجيل قضية المغرب في جدول أعمال هيئة الأمم المتحدة قافزة بها إلى الحقل الأممي ومعززة بملف ضخم يدين السياسة الفرنسية الخرقاء، وتعزز هذا الموقف بتبريك الملك في خطاب العرش لبادرة الأمم العربية والإسلامية وقدمت يوم 11 يناير مذكرة إلى صاحب الجلالة للمطالبة بإعلان الاستقلال فعمد القصر الملكي إلى تجديد مطالبة فرنسا بإلغاء الحماية وتشكيل حكومة مغربية وإجراء مفاوضات ثنائية لإقرار علائق جديدة وذلك في مذكرة إلى الحكومة الفرنسية بتاريخ 14 مارس، ولكن باريز ظلت متمسكة بالأوهام مصرة على إقرار الازدواجية في إدارة الحكم والهيآت النيابية لذلك لم يتردد الملك في رفض فحوى المذكرة الجديدة وكان الوضع يتأزم بين فرنسا وحلفائها فرفضت الكتلة الأطلسية إقحام المغرب بالرغم عنه في مجموعتها كما أدان التجار الأمريكيون بالمغرب أمام محكمة لاهاي (15 يوليوز 1952) سياسة التقنين الفرنسية المنافية لعقد الجزيرة ونق العمل الهادف إلى خلع الملك بعريضة للقواد سلمت إلى (بيدو) وزير خارجية فرنسا تندد بحياد محمد الخامس عن الدين وبمساندته للأحزاب وأبى الملك إلا أن يحذر فرنسا من عواقب هذا

---

33) كان ظهير 13 أكتوبر 1947 قد نظم الغرف الاستشارية المغربية التجارية والفلاحية وتقدم التجار والفلاحون الوطنيون إلى المشاركة في هذه الهيآت التي قبض على زمامها حزب الإستقلال بنجاح مرشحيه وقدمت جامعة الغرف التجارية مقترحات لتخطيط اتجاه جديد في السياسة الإقتصادية مع نقد لاذع للميزانية المطبوخة في الإقامة.

34) بقي الكلاوي بضعة أسابيع في فرنسا بعد عودة جلالة الملك وأوجس الناس خيفة مما كان يحاك من دسائس وراء الستار.

التيار الذي سوف يجرف بالاستعمار وأذنابه قبل أن يؤثر قلامة ظفر في صمود الملك والشعب ولكن المقيم العام (كيوم) طالب الملك في وقاحة بإمضاء وثيقة التنازل عن العرش فكان جواب الملك الرفض البات فلم يسع مدير الأمن سوى اعتقال الملك ونجليه الأميرين مولاي الحسن (جلالة الملك الحالي نصره الله) ومولاي عبد الله رحمه الله فسيق الجميع على متن طائرة فرنسية إلى جزيرة (كورسيكا) مع باقي أفراد الأسرة الملكية.

هناك انطلقت الشرارة الأولى من شعب فقد قائده وزعماءه فانبرى في اندفاعة ثورية يشق طريقه في واد من الدماء نحو التحرر وأسفرت هذه الثورة الشعبية عن انبثاق حركة فدائية طوحت بكثير من رؤوس الفتنة وبيادق الإستعمار وتعاقبت الضربات والقذائف على السلطان المفروض ابن عرفة وأذنابه واعترضته مفرقعات الفداء، وكان مؤتمر (إيكس ليبان) قد انعقد لجس النبض ولتغطية فشل السياسة الاستعمارية بمحاولة ترمي إلى إنقاذ الموقف وإيقاف تيارات النقد اللاذع المنصب على باريز وأصبح مطلب الشعب القاضي برجوع الملك حديث الأندية وترددت أصداء المحاولات داخل الكوالس في شكل إمكانيات وتساوقت الأحداث فعين مجلس مؤقت لوصاية العرش ونقل محمد الخامس إلى (سان كلود) بفرنسا وانصاعت باريز إلى مطامح الملك والشعب فاعترفت بالواقع وعاد الملك الظافر يوم 26 يونيه 1955 إلى الرباط ليحمل لشعبه وثيقة الاستقلال في خضم من الأفراح كللت ثورة الملك والشعب.

☆☆☆

وفي نفس المسار الحضاري توجه جلالة المرحوم محمد الخامس منذ بداية عهد الاستقلال في المغرب بإقامة نظام ملكي دستوري رصين انعكس في (دستور) عرض على استفتاء الشعب وتشكيل حكومة تبلور فيها تعدد الأحزاب وتعزز هذا الجهاز داخليا بإحداث دواليب ودوائر اقتصادية واجتماعية وثقافية، والشروع في دعم الإصلاح الزراعي ببناء السدود وخارجيا بتعيين سفراء على الصعيد العالمي والمشاركة في المنظمات الدولية وتخطيط سياسة المغرب الخارجية والسعي لاستكمال وحدة البلاد بفضل جيش عتيد بإمرة صاحب السمو الملكي ولي العهد المولى الحسن فكانت طفرة رائعة.

واصل جلالة الحسن الثاني بعد وفاة والده المقدس عام 1961 دعم كيان الدولة بوضع دستور جديد انطلاقا من واقع التجربة ومتطلبات أوضاع المغرب الخاصة في منطلق جعل من المغرب دولة عصرية بين الأمم النامية والأمم المتقدمة بفضل الأطر التقنية التي ملأت تدريجيا المجالات التي كان يشغلها الأجانب فأصبحت لهذه المغربة في مختلف الميادين الحضارية أبعاد بدأت تهيء الساحة لتعريب شامل ضمانا لوحدتنا العربية الإسلامية كما وطد المغرب لنفسه صيتا رصينا فرض نفسه في المحافل الأممية التي قدرت للمملكة عمق بادراتها وفعالية تخطيطاتها التي شملت التحضير العمراني وتحقيق اللامركزية وتوفير السدود وتوزيع الأراضي الزراعية ورصانة التأميمات وشمولية التنقيبات المعدنية والبترولية وتطوير موارد الفوسفاط وتشييد المركبات الصناعية وتعميم التعليم ورفع مستوى حياة السكان وخاصة العامل فأصبح للنظام الملكي طابع دستوري اقتبس من الإسلام ما يسد الثغرات الاشتراكية في إطار العدالة الاجتماعية ولعل هذا الجانب يشكل في العصر الحديث اختيارات لها وزنها في تقييم مدى مواكبة الشعوب لمقتضيات القرن العشرين ولكن المغرب عرف كيف ينسق بين أصالته الإسلامية وبين هذه المتطلبات العارمة ولنضرب لذلك مثالا حيا يعطينا صورة مكبرة عن منطقية وفعالية هذه المبادرات فقد أصبح المغرب ينهج في العهد الحسني نوعا من الاشتراكية لا تفقر الغني ولكنها ترفع مستوى الفقير بشتى الوسائل منها أربعة عوامل أساسية هي :

1) تأميم المصانع الكبرى وكذلك بعض الهيآت الاقتصادية كمكتب التسويق والتصدير ومكتب الشاي والسكر.
2) توزيع الأراضي على الفلاحين وتكوين تعاونيات للفلاحين وغيرهم في نطاق استفادة جماعية من أدوات الإنتاج مع دعم الإصلاح الزراعي بإقامة السدود.
3) نهج سياسة التنقيب الشامل على المناجم وحقول النفط ولو بمنح امتيازات للأجانب مع توظيف رؤوس الأموال الأجنبية وتصنيع البلاد.

4) إشراك العمال في الأرباح ببعض المصانع الحكومية كمعامل السكر انتظارا لتنفيذ المبدأ على المصانع الحكومية الأخرى ثم على المصانع الخاصة.

وقد اقترح صاحب الجلالة الحسن الثاني مشروع دستور استدعى الشعب المغربي لابداء رأيه فيه يوم 17 يبراير 1972 فوافق عليه وتم اقرار مشروعية الإستفتاء من طرف الغرفة الدستورية يوم 9 مارس 1972.

وهذا الدستور يحتوي كما كان الشأن بالنسبة لدستوري 1962 و1970 على المبادئ الأساسية التي تقرر على الأخص ما يلي :

1) أن المغرب ملكية دستورية ديموقراطية واجتماعية.
2) أن السيادة للأمة تمارسها مباشرة بالاستفتاء وبصفة غير مباشرة بواسطة المؤسسات الدستورية.
3) أن القانون أسمى تعبير عن إرادة الأمة.
4) أن جميع المغاربة سواء أمام القانون.
5) أن الإسلام دين الدولة.
6) أن شعار الملكية هو الله والوطن والملك.

وقد نص الدستور على المساواة بين الرجل والمرأة في التمتع بالحقوق السياسية وعلى الحريات التي يتمتع بها المواطن كما نص على أن (الملك أمير المؤمنين والممثل الأسمى للأمة ورمز وحدتها وضامن دوام الدولة واستمرارها وحامي حمى الدين والساهر على احترام الدستور وله صيانة حقوق وحريات المواطنين والمواطنات والجماعات والهيآت وهو الضامن لاستقلال البلاد وحوزة المملكة في دائرة حدودها الحق.

ولهذا واصل حفظه الله الجهاد الأكبر لتخليص المغرب من التبعية الفكرية للاستعمار ومن المرض والفقر والجهل دون أن يغفل الرسالة الكبرى التي حمله إياها والده المرحوم قدس الله روحه وهي تحرير الأجزاء المغتصبة من البلاد فكان في مساعيه السامية مثالا للتؤدة والرشد.

وقد ألقى جلالته خطابات ونظم استجوابات لشرح أبعاد قضية الصحراء مبرزا مفهوم حق تقرير المصير ومؤكدا معارضة جلالته لكل ما من شأنه أن يؤدي إلى «تقسيم الصحراء» أو فصل الأجزاء المغتصبة عن الوطن الوالد باستقلال مزيف ولذلك قرر حفظه الله رفع المشكل إلى محكمة لاهاي وتزويد الفكر الدولي بملف ضخم يضم مآت المستندات تشهد بمغربية الصحراء مؤملا أن يحل المشكل بالوسائل السلمية وإلا اضطر المغرب لحمل السلاح لانتزاع حقه المشروع واسترجاع أراضيه المغصوبة، وقد خطط جلالته معالم سياسته الحكيمة وأبعادها في كتابه «التحدي» Le Défi الذي رسم فيه صورا ناصعة عن سلسلة الأحداث التي طبعت المغرب في طفرته الواعية.

وقد انبثقت عن عبقرية جلالة الملك المسيرة الخضراء التي حررت الصحراء، وبذلك استكمل المغرب وحدته الترابية.

تلك صورة مقتضبة عن شمولية الإنجازات التي حققها جلالة الحسن الثاني ضمن صيرورة التاريخ وأصالة الأمجاد وعراقة الفكر الإسلامي الذي عرف جلالته كيف يضمن توازن عطاءاته موفقا بين الروح المثالية المتوثبة والخلق الإنساني المبدع ومادية الحضارة التكنولوجية العارمة.

المساواة في الإسلام
بين النظرية والتطبيق

للأستاذ أحمد بودهان

الموضوع يشمل ما يلي : عندما نتحدث عن المساواة في الإسلام ـ مفهوم المساواة قبل الإسلام وبعده ـ ميادين المساواة في الإسلام : المساواة في الكرامة الآدمية ـ المساواة في الحقوق المدنية العامة ـ المساواة في الحقوق الاقتصادية ـ المساواة في الحقوق الاجتماعية ـ المساواة بين المسلمين والأميين ـ المساواة في الحقوق السياسية ـ المساواة في الواجبات والمسؤوليات ـ إلى أي حد طبقت المساواة وكيف ولماذا.

عندما نتحدث عن المساواة في الإسلام :

أجل.. هي كلمة لابد منها بادئ ذي بدء، وهي أنه عندما يتحدث الإنسان عن المساواة في الإسلام في هذا العصر... عصر الماديات والأنانيات ـ يكاد يحس بشيء من الخجل والاستحياء لفرط ما قيل ويقال في هذا الموضوع دون جدوى، حتى أوشك أن يصبح موضوعا مبتذلا عند الجميع. لأن القرون الطويلة التي استغرقها المسلمون، ولا زالوا في الحديث عن المساواة في الإسلام نظريا لا تطبيقيا... قولا لا فعلا، جعلت الكثير من الناس يفقدون الثقة في كل ما يسمعون عن تعاليم الإسلام وخاصة ما يتعلق بالمساواة، مادام ان كلام النهار يمحوه الليل كما يقولون، ومادام أن الحديث عن المساواة في الإسلام يكاد يصبح حبرا على ورق، لافتقاره إلى عنصر التطبيق والتنفيذ عمليا وممارسة، لدرجة أن المسلم المؤمن التقي يخشى ـ حين يتحدث عن المساواة في الإسلام ـ أن يشمله مقت الله وغضبه في قوله تعالى : ﴿**كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون**﴾.

لست متشائما ولا مُنَفِّراً بكلامي هذا، بل انه كلمة حق، ينبغي أن تفهم في إطار النقد الذاتي لمجتمعنا العربي والإسلامي والإنساني عموما، وخصوصا وأننا جميعا مسؤولون عن تطبيق أو عدم تطبيق المساواة في الإسلام حسب مفهومها الشامل لميادين «الكرامة الإنسانية» و«الحقوق المدنية». و«الحقوق الاقتصادية»، و«الحقوق الاجتماعية»، و«الحقوق السياسية»، و«الواجبات والمسؤوليات» كما سيأتي توضيح ذلك في هذا البحث... كلنا مسؤولون عن المساواة انطلاقا من القاعدة إلى القمة.. من الفرد كفرد في أسرته إلى الجماعة إلى الدوائر الحاكمة، لأن الإسلام لا يفرق في هذا بين الحاكم والمحكوم، حيث يقرر : «كلكم مسؤول، وكل راع مسؤول عن رعيته...»، ويقرر : «من رأى منكم منكرا فليغيره...» الحديث. ويقرر : ﴿**كنتم خير أمة اخرجت للناس تامرون**

بـــالمعروف وتنهـون عن المنكر...﴾. - آل عمران - 110 - إلى : الفاسقون. فهذه مساجدنا وجامعاتنا ومدارسنا ومؤتمراتنا كلها تهتز وتلهث بسرد تعاليم الإسلام حول «المساواة» بكل ميادينها المشار إليها، ولكن فقط داخل الجـدران والسقف، أو في القراطيس والصحف. أمـا في الحياة العمليـة التطبيقيـة فالأمر دون ذلـك وذلـك لأسباب سوف نعالجها بعد أن نبين مفهوم المساواة في الإسلام، وميادين هذه المساواة مدنيا واقتصاديا واجتماعيا وسياسيا فنقول :

مفهوم المساواة قبل الإسلام وبعده :

أولا - المفهوم الخاطئ للمساواة عند الإنسان قبل الإسلام : قبل الإسلام، كان مفهوم المساواة لدى الإنسان مفهوما خاطئا، يرتكز على «أساس باطل» وهو مراعاة الجنس أو اللون أو السلالة أو العرق أو ما شابه ذلك من الاعتبارات الشكلية العنصرية الشعوبية. وعلى أساس هذا الأصل الجنسي العنصري أو ذاك، توزع الحقوق على البعض ويهمل الآخر لتفاهـة أصلـه الجنسي أو العرقي المزعوم :

- ففي الهند مثلا نجد خرافة «البراهميين» قديما قد أثرت في معتقدات الناس، فإذا بهم يؤمنون جهالة بما زعمه «براهما» المشرك الذي ادعى الربوبية، كما ادعى أتباعه من بعده من أنه هو الخالق أو أنه هو آدم الرب أبو البشر. وأنه خلق بعض الأجناس من «فمـه»، وبعض الأجنـاس من «فخذه»، وبعض الأجناس من «ذراعه». وبعض الأجناس من «قدمـه»، وأن درجات الحقوق والمساواة تختلف وتتفاوت بين هذه الأجناس تبعا لأصل خلقتها، حيث تسند الوظائف والحقوق الهامة إلى العنصر الأول الذي جاءت خلقته من «الفم»، ثم تنحدر الوظائف والحقوق في السفالة والحضيض تدريجيا حتى تصل إلى العنصر الأسفل الذي خلق من القدم وهو عنصر العبيد تبعا لأصل الخلق المزعوم.

- أما اليونانيون فكانوا قديما هم أيضا يعتقدون أن عنصرهم البشري هو العنصر الأفضل، وما عداهم لاحقوق لهم، ولا مساواة بينهم وبين اليونانيين، فكانت طبقة الأسياد والرقيق. والغريب أن «أرسطو» نفسه كان يؤمن بهذا الزعم العنصري، ويقـول بـه في موضـوع تـوزيـع الحقـوق والوظائف...

- ثم تأتي فكرة «الرومان» على هـذا النحو أيضا، وكـذلـك «الفرس» فقال الرومان، إن شريعتهم تقضي أن يعيش غير الرومانيين عبيدا الرومان، كما زعم ذلك أهل فارس أيضا...

- ويبدو أن اسرائيل كانوا أشد عباد الله عنصرية وتعصبا وتحيزا حتى زعموا زعمهم المشهور بأنهم «شعب الله المختار»، وخصوصا عندما بعث الله فيهم الرسل كي يوحدوه لكنهم كفروا وقتلوا أنبياءهم فغضب اللـه عليهم ولعنهم على لسان داوود وعيسى فقال تعالى في شأنهم : ﴿**لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم**﴾، المائدة 78. كما زعموا أنهم أفضل بني البشر بترويج تلك الخرافة التي يقولون فيها إن «نوحا» عليه السلام غضب على ولده «حام» حين فضحه في حالة سكر وفحش فدعا عليه بأن يصبح أولاده عبيدا لأولاد «سام»...

- وهكذا امتدت فكرة الشعوبية الفارسية، وخرافة اليونان العرقية، وأسطورة الرومان واليهود العنصرية إلى «العرب» حتى اعتقدوا هم أيضا أن غيرهم «شعوب أعجمية» حقيرة فكانوا لا يزوجون بناتهم لغير العرب، ومحنة الحرب التي جرت بين الملك النعمان وملك الفرس مشهورة في هذا المجال...

ومعنى هذا كله أن «المساواة قبل الإسلام» كانت متعذرة ومستحيلة حسب المفهوم الخاطئ في «أصل خلق الإنسان»، حيث أن كل جنس من الأجناس، كان يعتقد أنه خلق من عنصر أفضل من العنصر الذي خلق منـه الآخر، فتعددت العنصريات بتعدد عناصر «أصل الخلق» المزعومة، وبالتالي تعذرت المساواة في الحقوق العامة والخاصة تبعا للاختلاف في «قيمة الإنسان وأصله وكرامته» حسب الزعم القائل بأن أصل خلق الأجناس متفاوت ومختلف : بعضه مفضل عن البعض، وبالتالي تاتي الحقوق والدرجات والكرامة المعنوية والاعتبار الذاتي أو اللوني أو الجنسي غير متساوية، بل تكون حقوق كرامة الجنس المفضل أعلى من حقوق كرامة الجنس الذي يليه إلى أن تنحدر هذه الكرامة

وهذه الحقوق إلى الحضيض عند العبيد مثلا. وتبعا للاختلاف في «الكرامة» المتمثلة في «أصل الخلق» المختلف المزعوم، توزع الحقوق المدنية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والواجبات والمسؤوليات توزيعا مختلفا متفاوتا جائرا فتُهْضَم حقوق الضعفاء والمسحوقين وتلك هي فكرة الإنسان الخاطئة في توزيع المساواة قبل الإسلام لأنها فكرة قائمة على أساس عرقي جنسي تعصبي.

ثانيا - تصحيح مفهوم «أصل المساواة» حين مجيء الإسلام :

ولما جاء الإسلام وَجَدَّدَ دين الرسل والحنيفية على يد «محمد» ﷺ، صحح ذلك المفهوم الخاطئ بالنسبة لكرامة الإنسان وأصله الخلقي، وبالتالي صحح معه أيضا ذلك المفهوم الخاطئ في توزيع المساواة في الحقوق العامة والخاصة، فبيّن الإسلام أولا أن «أصل خلق الإنسان واحد» وأنه خلق من تراب ومن أب واحد وأم واحدة، وأن آدم هو أبو البشر، وأن النفس واحدة عند الله وأن كرامة كل إنسان كرامة واحدة ولها اعتبار واحد وأصل واحد حيث الجميع خلق من منبع واحد في الأول فقال تعالى في شأن تصحيح ذلك المفهوم الخاطئ لأصل الخلق : ﴿**ياأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء، واتقوا الذي تساءلون به والأرحام**﴾ النساء - 1 - وقال تعالى أيضا : ﴿**ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى...**﴾ الحجرات - 13 - وقال جلت قدرته : ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون...**﴾ الحجر - 26 - ويقول الرسول محمد ﷺ وهو يصحح للناس ذلك المفهوم الخاطئ لأصل الخلق الأول للإنسان : «كلكم لآدم، وآدم من تراب... لا فرق لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود ولا لأحمر على أصفر إلا بالتقوى». ويقول الرسول محمد ﷺ : «الناس سواسية كأسنان المشط» في الكرامة والمساواة والحقوق والاعتبار. وقد نهى الرسول ﷺ أصحابه عن ذلك المفهوم الخاطئ بخصوص كرامة الإنسان وأصله، فقال لأبي ذر الغفاري عندما رآه يتقزز من وجود بلال الحبشي الأسود مع الرسول فقال له عليه السلام : «إنك امرؤ فيك جاهلية ياأبا ذر» ثم قال الرسول الحديث : «لافرق لـ......» ثم يساوي الله تعالى جميع خلقه من عباده في الكرامة والتكريم باعتبارهم جميعا بني آدم فقال : (ولقد كرمنا بني آدم) إلى أن قال : (وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا...) الإسراء 40. واعتبارا لهذا «الأصل الخلقي المشترك بالنسبة لكل بني الإنسان» والذي يعود في بدايته الأولى إلى نفس واحدة، وأب واحد، هو أبو البشر آدم وأمنا حواء كانت «الكرامة الإنسانية في التصور الإسلامي كرامة متساوية» وشاملة للجميع، وبغض النظر عن الجنس أو اللون أو الجنسية أو العرق أو السلالة أو ما شابه ذلك من الاعتبارات العنصرية والشعوبية. وانطلاقا من هذا الأصل الخلقي المشترك وهذه الكرامة المشتركة المتساوية في الاعتبار المعنوي لقيمة الإنسان كإنسان - يقرر الإسلام المساواة بين الناس... المساواة في الكرامة الخلقية المشتركة، ثم المساواة في الحقوق والواجبات... لأن المساواة في قيمة الكرامة الإنسانية المتمثلة في كون «أصل خلقه واحدا» - هي أصل كل المساويات الأخرى في الحياة، فتشمل هذه المساويات : المساواة في القيمة والاعتبار والكرامة، ثم المساواة في الحقوق المدنية، ثم المساواة في الحقوق الاقتصادية، ثم المساواة في الحقوق الاجتماعية، ثم المساواة في الحقوق السياسية والحريات العامة، ثم أخيرا المساواة في الواجبات والمسؤوليات، كل حسب مواهبه وقدراته ومجهوداته وتقواه، لا حسب لونه أو عرقه أو جنسه أو سلالته، لأن الإسلام لا يقر التفاضل اعتبارا للون أو العرق، وإنما يقر التفاضل حسب السلوك والاستقامة والتقوى والمجهود المبذول، كما سنوضح ذلك في النقطة الموالية المتعلقة بـ «ميادين المساواة في الإسلام» وهي كالآتي :

ميادين المساواة في الإسلام :

أولا - المساواة في الكرامة والقيمة الآدمية :

المراد بالمساواة في «الكرامة» أن بني الإنسان متساوون في «أصل الخلق»، أي أنهم جميعا من طينة واحدة هي طينة آدم وحواء من جهة، وأنهم بعد ذلك، وتبعا لذلك، كلهم خلقوا من ذكر وأنثى طبقا لإرادة الخالق الذي صورهم في

الأرحام كيف يشاء، ثم أحسن صورهم كما جاء في القرآن حيث يقول تعالى : ﴿**ياأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك**﴾ الانفطار ـ 8 ـ من جهة ثانية.

وما دام أن أصل الخلق واحد، وأن الخالق والمصور في الأرحام واحد وهو الله، فإنه تبعا لذلك تكون الكرامة الآدمية واحدة ومتساوية في القيمة والاعتبار. ومن هذا التصور الإسلامي لأصل مفهوم المساواة القائم على وحدة الخلق والأصل والقيمة والكرامة الآدمية، يجب أن تكون المساواة بين بني الإنسان في كل الحقوق والواجبات، كل حسب استقامته وتقواه وسلوكه وكده وكدحه لا حسب اللون أو العرق.

ثانيا ـ المساواة في الحقوق المدنية عامة :

المراد بالحقوق المدنية التي أقر الإسلام المساواة فيها بين بني الإنسان دون استثناء ـ هي تلك الحقوق التي يجب أن يتمتع بها كل إنسان في الحياة بمجرد أن يصبح جنينا في بطن أمه، إلى أن يولد، ثم ينمو فيكبر فيعيش ويحيا طول عمره إلى إن يموت. بل إن الحق المدني هذا يجب أن يراعى للإنسان قبل ذلك، بحيث لابد من وجوب اختيار النطف والأزواج كما حث على ذلك الإسلام، وكما اقرتها القوانين الفقهية الشرعية بخصوص اختيار الزوجة الصالحة مثلا، واشتراط الكفاءة في الزواج، قبل أن يتم الزواج وقبل أن يصبح المولود جنينا وقبل أن يولد... ـ أنظر بتفصيل القانون المدني ـ الأحوال الشخصية ـ ومن هنا كانت المساواة في الحقوق المدنية هي أهم شيء حث عليه الإسلام بعد تقريره وإقراره للمساواة في «الكرامة والقيمة الآدمية بناء على الأصل الخلقي المشترك. كما أن الحقوق المدنية تأتي في الدرجة الأولى بالنسبة للحقوق السياسية مثلا، لأن هذه الأخيرة لا تتقرر للفرد ولا يتمتع بها إلا بعد ولادته وسن معينة من عمره، كما هو معروف في القوانين الوضعية والشرائع والنظم السياسية القديمة والحديثة والمعاصرة. وبتعبير القانونيين والحقوقيين والشرعيين، نقول : إن الحقوق المدنية هي «حقوق طبيعية»، لأن طبيعة الحياة تقتضي ذلك، ولذا قرر الإسلام المساواة فيها بين جميع بني الإنسان منذ ما قبل أن يولد إلى الوفاة بغض النظر عن الجنس أو اللون أو العرق أو ما شابه ذلك من العنصريات.

والمساواة في الحقوق المدنية تشمل ما يلي :

أ ـ المساواة في العدل : نعم، إن «العدل» أساس الملك، وأساس النظام وأساس كل نوع من أنواع الحكم والأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. إذ بغير العدل لا تستقيم أمور البشرية عامة، ولا أمور مجتمع ما خاصة، ولا يمكن أن يكون هناك تنظيم أو نظام في الحياة...

والعدل معناه الإنصاف، وإعطاء كل ذي حق حقه، بحيث الناس سواسية أمام العدالة، ولا فرق بينهم : بين الضعيف والقوي، أو الغني والفقير، فالقوي ضعيف أمام العدالة، والضعيف قوي بها. وفي هذا المجال يقول تعالى : ﴿**ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما، فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا...**﴾.

ويقول تعالى أيضا : ﴿**ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، أعدلوا هو أقرب للتقوى...**﴾. المائدة ـ 8 ـ ويقول جلت قدرته : ﴿**وإذا حكمتم بين الناس إن تحكموا بالعدل...**﴾. النساء ـ 58 ـ

ويقول الرسول محمد ﷺ : «وأيم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها...». وعلى هذا النهج في إقامة العدل بين الناس سار عليه الصلاة والسلام، وسار بعده الخلفاء الراشدون، وبذلك استتب الحكم واستقر النظام، وعم الأمن والاطمئنان في أمور الحياة العامة والخاصة، وتمتع كل الناس بحقوقهم ومساواتهم في العدل والحق والإنصاف، وبمجرد ما حاد المسلمون عن المساواة في العدل، وبدأوا يرتكبون المظالم دون رادع أو زاجر أو خوف ـ أخذوا في الفتنة الكبرى، وأخذ بعضهم يصارع البعض، فانعدمت المساواة في العدل بين الناس إلا نادرا، وبالتالي انعدمت الثقة في نفوس الحكام والمسؤولين أنفسهم فانتشرت الفوضى في المجتمع بسبب كثرة المظالم والاعتداء، وانعكس ذلك على ميادين الحقوق الأخرى...

ب ـ المساواة في حقوق التملك والكسب والتعاقد : إن الإسلام يمنح حق التملك والكسب والتعاقد وما يترتب على ذلك من بيع وشراء لجميع الأفراد من بني الإنسان ذكورا كانوا أم إناثا، ولم يستثن من الجميع إلا ثلاثة أنواع، هم : الأطفال دون سن التمييز ـ المجانين الذين فقدوا العقل ـ السفهاء الذين لم يحسنوا التصرف في مالهم ومال غيرهم. لأن هؤلاء يعتبرون فاقدين للأهلية الشرعية، وفي مصلحتهم ومصلحة المجتمع أن يوضع عليهم «الحجر» حتى يصبحوا مؤهلين (كتب القانون والشريعة)، والإسلام حين يقرر المساواة في حقوق التملك والكسب والتعاقد، لا يفرق بين الرجل والمرأة، أو الزوج والزوجة، ولا بين المواطن وغير المواطن من الأجانب مهما اختلفت العقائد أو العادات. كما أن الإسلام يقر المساواة في هذه الحقوق المدنية بين المسلمين وغير المسلمين من الذميين كما سيأتي...

والمساواة التي يحث عليها الإسلام في ميدان الكسب والتملك والتعاقد، تشمل كل أنواع المعاملات من : بيع وشراء وهبة وصدقة ووصية وديوان ورهن وكل ما يتعلق بالاستثمارات المالية. كما أن المساواة التي نادى بها الإسلام في ميادين الحقوق المدنية هذه، لا تفرق ولا تميز ولا تفضل بين الناس على أساس جنسي أو لوني أو عرقي أو ما شابه ذلك من الاعتبارات الشكلية أو العنصرية، بلدان الإسلام تعتبر الجميع سواسية في حق التملك والكسب والمعاملات التجارية بشرط مراعاة المصلحة والطرق المشروعة في كل ميدان.... وهكذا نجد أن الإسلام أبطل ذلك المفهوم الخاطئ للمساواة قديما حيث كانت المرأة مثلا تحرم من حق التملك والكسب، كما أن الضعفاء من الطبقات المسحوقة والعبيد يحرمون ويجردون من جميع حقوقهم المدنية هذه بسبب تلك الأساطير والخرافات والمعتقدات والآراء التي روجها اليونانيون والبراهمة والفرس واليهود وحتى بعض العرب والرومان بخصوص أصل خلق الأجناس، والتفاوت في الكرامة بين هذا وذاك.

ج ـ المساواة في حقوق التعلم : كما أن الإسلام لا يرضى لعباده الكفر والجهل والشرك والإلحاد والظلم وانعدام المساواة، كذلك لا يرضى لهم الأمية والتخلف الفكري والعلمي الذي كان سائدا في الجاهلية قبل الإسلام وخاصة عند العرب... وكذلك فإن الإسلام لا يرضى في نفس الوقت أن تكون هناك طبقة أو نخبة معينة محظوظة تتمتع بحق التعلم والتعليم والتربية والرعاية والتوجيه والتكوين والتثقيف، بينما هناك السواد الأعظم من العباد الآخرين يعانون من الجهل والأمية والتخلف الفكري والعلمي. بل إن الإسلام يقر المساواة في حق التعلم والتربية وتحصيل العلم، ولا فرق بين هذا وذاك من حيث الاعتبارات الشكلية أو العنصرية، والأهم في هذه المسألة أن الإسلام لم يقر المساواة في حق التعلم فحسب بل حث الجميع عليه واعتبره أمرا مفروضا على الجميع، حتى قال الرسول ﷺ : «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» رجلا كان أو امرأة...

والحقيقة أن الإسلام يرى أن الجهل هو أساس كل تخلف، وأن العلم هو أساس كل تقدم ورقي، لذا نرى الآن أن نهوض كل أمة يقاس بمقدار تقدمها أو تقهقرها في ميدان العلم والتعليم، وان وجود أميٌ واحد في شعب من الشعوب يعتبر وصمة عار. وهذه الحقيقة المتمثلة في أهمية التعلم والتعليم هي التي جعلت الإسلام يأمر أول ما يأمر به حين نزول الوحي «بالقراءة والتعلم والتعليم للخروج من ذلك العار» عار الأمية والتخلف الفكري والعلمي والمعرفي الذي كان يسود العرب. كما أن الرسول محمدا ﷺ كان أول عمل من هذا النوع قام به بعد الهجرة أن أمر أسرى الحرب من المثقفين أن يعلموا أبناء المسلمين ليكون ذلك افتداء لهم من الأسر، وقال عليه السلام : «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد»، وروي عنه أيضا أنه قال : «اطلبوا العلم ولو في الصين». كما قال : «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يصنع...»، أما النصوص القرآنية التي تحث على التعلم والتعليم وتحصيل العلم فأكثر من أن تحصى، ويكفي أن نشير إلى قوله تعالى الذي يقول : **﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾** الزمر ـ 9 ـ. كما أن المسلمين لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه في عهودهم الزاهرة إلا بفضل العلم والتقدم العلمي والبحث والاستنباط والاجتهاد في كل ميادين المعرفة، ولما أغلق باب الاجتهاد وانحصر التعلم في طبقات معينة وانعدمت المساواة فيه، بدأ عصر التقهقر والانحطاط...

والمـــــاواة في حـق التعلم أمر واجب، ولا فرق بين الغني والفقير أو القوي والضعيف، فـالنـاس فيـه على قـدم المـاواة.

د ـ المـساواة في حق العمل : يخطئ البعض حين يـزعمـون أن الإســـلام ديـن زهـــد ورهـبـانـيـــة وخمول وجمود ودردشة ومسكنة بدعوى الاستسلام للقضاء والقدر... أجل.. إنهم يخطئـون حين يـزعمـون هـذا الـزعم لأنهم يجهلون أو يتجاهلون بـأن الإسلام دين ودنيا «عبـادة وقيـادة» عقيدة وشريعـة.. قـول وفعـل مـادة وروح. فـالله يقـول : ﴿**وابتـغ فيمـا آتـاك اللـه الـدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الـدنيـا**﴾، القصص ـ 77 ـ والرسـول محمـد ﷺ يقـول : «ليس خيركم من ترك دنياه لآخرتـه، ولا آخرتـه لـدنيـاه، وإنمـا خيركم من عمـل لهـذه وتلـك». وثـبـت فـي الآثـــار : «اعـمـــل لـــدنـيـــاك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غـدا». ذلـك أن الإسلام دين القوة والعزة والكرامة لأنـه تعـالى يقـول : ﴿**ولله العزة ولرسوله وللمومنين**﴾ المنافقون ـ 8 ـ ورسوله عليـه السـلام يقول : «المؤمن القوي أفضل عند الله من المـؤمن الضعيف، وفي كـل خير». والعـزة أو القـوة أو الكرامة لا تتحقق إلا بـالعمل والكـدح والسعي، ولا تتحقق بالتواكل والتكاسل والانكماش والمذلة والمسكنة والدروشة، ثم إن اليـد العليـا خير من اليـد السفلى كمـا كـان يقـول الرسول عليه السلام واليد العليا هي اليـد التي تعطي وتنفق وتسخو، والعطاء مرهون بالكسب والتملك والعمل والكدح والسعي من أجل تحصيل المال بـالطرق الحلال المشروعة. والله تعـالى يقـول : ﴿**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمومنون**﴾. والعمل هنـا يشمل العمل الـدنيوي والعمل الأخروي. لأن الإنسـان مـادة وروح، والرسـول ﷺ يقول : «إن الله يحب العبد العـامل ويكره العبـد البطـال». والنصوص القرآنيـة والسنيـة كثيرة في هـذا المجـال، وليس هذا محله، لأننا نتحدث هنـا عن «المسـاواة في حق العمل» والشغل، والإسلام حين يحث على العمل فهو لا يريد أبـدا أن يفرق أو يميـز بين هـذا وذاك، بـل إن الإسـلام يقرر ويـأمر أولي الأمر والمسـؤولين بـأن يهتمـوا بإيجـاد الفرص المتكـافئة للجميع حتى تعم المسـاواة في حق الشـغـــل للحصول على لقمة العيش وإلا انتشرت البطالـة، والبطـالـة في نظر الإسلام هي أخطر الآفات في كـل مجتمع، لأنهـا تؤدي بالناس إلى التسكع والانحراف وزعزعة الإيمان بسبب الفقر، حتى قيـل : «كـاد الفقر أن يكـون كفرا». وبعبـارة أخرى أن الإسـلام هيـأ الفرد وحثـه على العمـل والكسب والتملك، إلا أن هذا العامل لـه الحق في أن يجد الأرضيـة المناسبة ليفجر طـاقتـه ورغبتـه في العمل، كمـا أن الإسلام نبّه الفرد إلى أن الرزق والكسب والشغـل والعمـل لا يـدق عليه بابه دون أن يبحث هو عنه، لأن السماء لا تمطر ذهبـا ولا فضة، كما يقول عمر بن الخطاب، ومن هنا نجد أن الله خلق الإنسان في هذه الأرض، وحمّله مسؤوليـة وجوده كي يعمرها بأن يحمي نفسـه من البؤس والجوع والفقر. ومن هنا سخر الله هـذه الأرض للإنسـان وذللها للجميع ليضربوا في مناكبهـا وأطرافهـا بحثـا عن لقمـة العيش، وعلى أولي الأمر المسـؤولين أن يهيـؤوا وينظمـوا ويـوجـدوا فرص الشغـل للجميع. فقـال تعـالى : ﴿**هـو الـذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في منـاكبها وكلوا من رزقـه**﴾ الملك ـ 15 ـ ويقول تعـالى : ﴿**سخر لكم البحر لتـاكلوا منـه لحمـا طريـا وتستخرجوا منـه حلية تلبسـونهـا**﴾ النحل ـ 14 ـ ويقـول سبحـانه : ﴿**هـو الـذي خلـق لكم مـافي الأرض جميعـا**﴾ البقرة ـ 28 ـ وقـال تعـالى : ﴿**لإيلاف قريش إيلافهم رحلـة الشتـاء والصيف**﴾ قريش 1 ـ2 ـ وقال جل من قـائل : ﴿**وعلمنـاه صنعـة لبوس لكم ليحصنكم من بـأسكم**﴾ الأنبياء ـ 8 ـ وقـال تعالى : ﴿**فـإذا قضيت الصلاة فـانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله...**﴾ الجمعة ـ 10 ـ وقـال تعـالى : ﴿**ليس عليكم جنـاح إن تبتغوا فضـلا من ربكم**﴾ البقرة ـ 198 ـ ويقـول الرسـول ﷺ : «أفضـل الكسب مـا كسبت يداك».

ومعنى كل هذا أن الإسلام يزاوج بين العبادة والعمل، والعقيـدة والشريعـة، والتقوى والمعـامـلات كمـا انـه يـوصي بالمسـاواة في إيجاد الفرص للعمل دون عنصريـة أو تعصب للجنس أو اللـون أو أي اعتبـار آخر لأن الـذي يعمـل على حرمان العامل من شغله يعتبر جريمة في حق العامل، وقـد قيل : «قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق».

ثالثا ـ المساواة في الحقوق الاقتصادية «الملكية» : أول ملاحظة ينبغي التنبيه إليها هنا ونحن نتحدث عن «المساواة في الحقوق الاقتصادية في الإسلام» هو أن المساواة بين الناس في شؤون الاقتصاد والظروف المادية، يختلف مفهومها قليلا عن مفهوم المساواة في الحقوق المدنية والكرامة الآدمية. وذلك على أساس أن المساواة في حقوق الكرامة الآدمية والحقوق المدنية، هي مساواة تامة، بحيث يجب أن تمارس من طرف الجميع على قدم المساواة باعتبار أن الناس فيها سواسية كأسنان المشط كما ورد في الحديث، أما المساواة في الحقوق الاقتصادية والظروف المادية بالنسبة لكل فرد فرد، فهي مساواة «نسبية» فقط، وليست مساواة متعادلة متكافئة، لأن الناس متفاوتون في القدرات والمواهب والمجهود البدني والفكري والعلمي، وبالتالي فهم يأتون ـ تبعا لذلك ـ متفاوتين في «الأرزاق». ومن هنا ينبغي أن نعلم أن المراد بالمساواة في الإسلام في الحقوق الاقتصادية هو «تقريب الهوة بين الطبقات باعطاء كل ذي حق حقه حسب ما يستحقه، وحسب الدور الذي يؤديه، والمجهود الذي يبذله في عمله دون اجحاف أو ظلم أو تمييز، المهم أن يتمتع كل فرد بما يستحقه ليعيش في الكفاف والعفاف، وحتى إذا كان هناك تفاوت في الدخل وفي الأرزاق فهناك «التكافل والتضامن والتعاون والإحسان والمساعدات التي يجب على الأغنياء أن يقدموها للفقراء ذوي الدخل البسيط، وبذلك تتحقق المساواة كيفيا لا كميا». والحديث عن «المساواة في الإسلام في الحقوق الاقتصادية» ينطلق بادىء ذي بدء من «الملكية». ومفاهيمها المختلفة باختلاف المذاهب الاقتصادية طبقا للنظم السياسية العامة في هذا المذهب أو ذاك. بحيث قد تعتبر «الملكية» ملكية فردية، أو ملكية اعتبارية جماعية، أو ملكية مشاعة عامة، واختلاف مفهوم هذه الملكيات هو الذي يساعد إمّا على التخفيف من الفوارق الاجتماعية قصد المساواة في الحقوق الاقتصادية نسبيا، وإما هو الذي يزيد الطين بلة. ويتضح لنا هذا عندما نلقي نظرة موجزة على الطرق التي تستغل بها هذه الملكية عند كل من النظام الرأسمالي، والنظام الاشتراكي، والنظامين القريبين لهذا أو ذاك، ثم النظام الاقتصادي الإسلامي في مفهوم الملكية والمساواة الاقتصادية في الحقوق المادية ولبيان التناقض الحاصل في المذاهب الاقتصادية الغربية الأربعة نورد هنا التقسيم المختصر الذي ذكره الدكتور علي عبد الواحد وافي في كتابه : «حقوق الإنسان في الإسلام»، إذ يقول :

إن النظم الاقتصادية في العالم لا تكاد تخرج عن خمسة أنواع هي :

1 ـ النظام الاقتصادي الشيوعي الذي يلغي رأس المال الفردي والملكية الفردية...

2 ـ النظام الاقتصادي الرأسمالي الذي يطلق العنان لرأس المال الفردي والملكية الفردية الخاصة...

3 ـ النظام الاقتصادي الاشتراكي المتطرف إلى اليسار وقريب من النظام الاقتصادي الشيوعي لكنه يضعف الملكية الفردية.

4 ـ النظام الاقتصادي الاشتراكي المتطرف إلى اليمين. وقريب من النظام الرأسمالي إلى تخفيف الرقابة على الرأسمال الفردي.

5 ـ النظام الاقتصادي الاشتراكي «الوسط» بين النظامين الرئيسيين الأولين والنظامين الهامشيين الأخيرين وهو النظام الاشتراكي الإسلامي...

ويستنتج من هذا التقسيم باختصار، أن الأنظمة الأربعة الأولى، لا يمكن أن تحقق المساواة الاقتصادية بين كل الطبقات، لأن النظام الأول يهمل كليا كرامة الفرد، وحقه الشخصي في التملك، بينما النظام الثاني غالبا ما يدعم البورجوازية، ويحطم البؤساء، أما النظامان المتطرفان القريبان لهذين النظامين، فلا يكادان يحققان أية مساواة اقتصادية نظرا لوضعيتهما الهامشية...

ويبقى النظام الأخير، وهو النظام الاقتصادي المعتدل الذي سنه الإسلام منذ خمسة عشر قرنا، أي قبل ظهور الرأسمالية والاشتراكية. ذلك أن النظام الاقتصادي الإسلامي هذا يختلف ـ بخصوص الملكية ـ اختلافا تاما عن الأنظمة الأخرى المذكورة. ومن هنا فإن المساواة في الحقوق الاقتصادية في الإسلام يمكن أن تتحقق بسهولة، إذا ما طبقت تعاليمه، حسب النصوص التشريعية والفقهية وحسب الاجتهادات والخبرات والتجارب التي مارسها المسلمون في صدر الإسلام كما سنرى ذلك...

فالإسلام يقر الملكية الفردية، ويعترف بها للأفراد ككسب، أو كملك خاص لكل فرد نتيجة عمله وكده وسعيه واجتهاده، وقد عبر القرآن عن الملكية الفردية بـ «الكسب» تارة، فيقول تعالى : ﴿...**كسبت أيديكم**...﴾ كما عبر عنها القرآن بـ «الملك» صراحة في قوله تعالى : ﴿**وما ملكت أيديكم**...﴾.

ويقول الرسول محمد ﷺ : «خير الكسب ما كسبته يداك». ولم يكتف الإسلام بإقرار الملكية الفردية فحسب، بل أقرها وأحاطها بدعائم تحميها من الظلم والتعدي والنهب والسلب، حيث يقول الرسول محمد ﷺ : «كل المسلم على المسلم حرام «دمه وماله وعرضه». والشاهد عندنا في «ماله». ويقول عليه الصلاة والسلام : «من مات دون ماله وعرضه مات شهيدا». وحكمة الإسلام في إقرار الملكية الفردية تتجلى في التشجيع على العمل والكسب والكدح والسعي الحلال كمنافسة شريفة ومشروعة في سنة الحياة، مادام أن الإنسان كفرد هو المسؤول عن وجوده في هذه الأرض كي يحييها ويعمرها، وكي يحمي ماء وجهه وأولاده وأسرته من الذل والهوان والفقر والجوع ومذلة التسول، وكذلك كي يزدهر الإنتاج، وتنشط الحركة العمرانية والتجارية والصناعية والزراعية، بالإضافة إلى أن الإسلام يفضل أن يترك الرجل أولاده أغنياء بعد موته، خير له من أن يتركهم فقراء يمدون أيديهم للغير بمجرد وفاته والعياذ بالله، وفي هذا المعنى يقول الرسول ﷺ : «لأن يترك أحدكم أولاده أغنياء أفضل من أن يتركهم فقراء». وقد جاء هذا الحديث في سياق الكلام عن الوصية التي أقرها الإسلام ولكنها لا ينبغي أن تتعدى الثلث والثلث كثير كما قال عليه السلام ...وكل هذا حفاظا على الملكية الفردية والكسب الفردي الذي جمعه من عرق جبينه وكده، بخلاف النظام الاشتراكي الشيوعي مثلا الذي يحطم حق الفرد وكرامته في الكسب الفردي. لكن مهلا حيث لا ينبغي أن يفهم من هذا أن الإسلام يشجع على الفوارق الطبقية، وانتشار البورجوازية، فكما أحاط الإسلام المكلية الفردية بسياج من الحماية رغبة في ازدهار الإنتاج، والمنافسة الحلال أحاطها أيضا بسياج قوي من «الرقابة» والمراقبة والقيود، حتى لا تطغى هذه الملكية الفردية كما طغت في النظام الرأسمالي مثلا. ومعنى هذا أن الإسلام حين يقر الملكية الفردية حتى يكسب الإنسان ما يشاء، ويمتلك ما يريد في نطاق المشروعية، فلن ي فلن ينسى أبدا أن هناك أناسا آخرين عاجزين عن الكسب والعمل، أو عاجزين عن المنافسة والمضاربة لسبب من الأسباب الصحية أو المادية أو ما شابه ذلك، فهؤلا لا يجب إهمالهم ونحن نتحدث عن المساواة في الحقوق الاقتصادية في الإسلام. لذا نجد أن تعاليم هذا الدين القيم وضعت بل فرضت احتياطات على الملكية الفردية من أجل تفتيتها وتوزيعها بطرق شرعية، وبكيفية إنسانية، حتى يستفيد أكبر قدر ممكن من المستفيدين من هذه الثروة المتمثلة أساسا في الملكية الفردية ومن أجل ألاّ تطغى هذه الملكية لتصبح أسلوبا اقتصاديا بورجوازيا، ومن أجل أن يكتنز المال ويحتكر في أيد واحدة معينة، وهي أيدي الأغنياء أصحاب تلك الملكيات الفردية، بل لابد في نظر الإسلام من تكسير شوكة هذه الملكية الشخصية ومراقبتها ومحاسبتها للتخفيف من غلوها واستعلائها حفاظا على مصير صاحبها نفسه، وحفاظا على التكافل الاجتماعي، والتوازن الاقتصادي، وبالتالي حفاظا على المساواة في الحقوق الاقتصادية لأن تعاليم الإسلام تحذرنا وتنبهنا في قوله تعالى إذ يقول : ﴿**إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى**﴾ العلق 6 ـ 7 ـ ويقول تعالى أيضا : ﴿**يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله**...﴾. المنافقون ـ 9 ـ

والقواعد والطرق والضوابط والأصول التي شرعها الإسلام لتفتيت هذه الملكية الفردية قصد التكافل والمساواة هي كثيرة، نذكر منها ما يلي :

الأصول الشرعية لتفتيت الملكية الفردية من أجل المساواة :

1 ـ الإرث : يعتبر الإرث في شريعة الإسلام عاملا هاما من العوامل التي تساعد على توزيع الثروة، وتقل الملكية الفردية إلى ملكيات متعددة حتى لا تبقى الأموال في يد واحدة، وحتى يستفيد من هذا المال عدد أكثر من بني الإنسان بسبب توزيع التركة على المستحقين المستفيدين شرعا من الإرث بعد موت الموروث، وهذا نوع

من المساواة في الحقوق الاقتصادية، لأن الثروة التي كانت مكتنزة في يد واحدة أصبحت موزعة بطرق شرعية معروفة في باب الإرث...

2 ـ الوصية : وهي تعيين قدر من المال أو الملك لشخص من الأشخاص غير الورثة يعطى له بعد موت الموصي، لقوله تعالى : ﴿**من بعد وصية يوصي بها...**﴾ ـ النساء 11 ـ 12 ـ أي أنها تعطى للموصى له قبل تقسيم التركة على الورثة، وهي لا تتعدى الثلث كما أشار الحديث «والثلث كثير». كما لا وصية لوارث أيضا... وتعد الوصية نوعا إنسانيا من أنواع توزيع الثروة حتى لا تكتنز في أيدي أشخاص معينة بجانب توزيع التركة...

3 ـ الزكاة : وأمرها معروف، وهي ركن من أركان الإسلام، تساعد على التخفيف من المشاكل الاقتصادية التي تعانيها الطبقات الفقيرة، وتساهم في نشر أواصر الأخوة والمساواة في الحقوق الاقتصادية وبالتالي توزيع وتفتيت قدر من الثروة والملكية الفردية حتى لا تتضخم وحتى لا تطغى، وخصوصا إذا أخرجت الزكاة بطرقها الحسنة المرغوب فيها كما أوضحها الإسلام...

4 ـ الوقف : وهو جائز في الإسلام كصدقة جارية، تدخل في نطاق التبرعات، وهو نوعان : وقف خاص يحبس على الأفراد الذين يعينهم الواقف وهو صاحب التبرع. ووقف عام يوقف لمصالح المسلمين تحت رعاية الوالي والسلطان أو الناظر أو وزيره أو من يختاره الواقف ويسميه «القيم». والوقف بمفهومه وقواعده وأركانه المعروفة في بابه يعتبر من أنواع توزيع الثروة لتحقيق المساواة في الحقوق الاقتصادية، وفي نفس الوقت تكسير لشوكة الثروة الفردية، وتهذيب للنفس من الشح والبخل...

5 ـ الكفارات والنذر : وهذا نوع آخر من أنواع تشتيت الثروة بطرق شرعية، حيث نجد أن الإسلام يوجب الكفارة على أمور كثيرة يرتكبها المسلم حتى يغفر الله له خطاياه ككفارة الصيام، وكفارة اليمين، وكفارة الظهار، وكفارات أخرى في الحج مثلا، وكذلك يقر الإسلام الوفاء بالنذر حين يلزم المسلم نفسه بعمل ما من الأعمال المشروعة المحللة، ثم لم يعملها فعليه الكفارة، والكفارات بجميع أنواعها غالبا ما تكون بالمال بدلا من الصوم أو العتق وحتى هذا الأخير يكون بالمال ولو أنه اندثر الآن.

6 ـ وجوه البر والعطاء والإحسان : وهذا نوع واسع جدا من أنواع توزيع الثروة الفردية حتى لا تكتنز في أيدي أصحاب الملكيات الخاصة، وتتمثل هذه الوجوه البرية في الصدقات والتبرعات والهبات وكل وجوه الإحسان والمعروف المختلفة كحق من حقوق الفقراء والطبقات الضعيفة ماديا. مع العلم أن وجوه البر والعطاء هذه غير الوجوه الخمسة المذكورة أعلاه، كما أن مقدار العطاء فيها غير محدد خلافا لما سبق مع التنبيه أيضا إلى أن وجوه هذه العطآت هي الأصل الأول الذي رغب فيه الإسلام وحث عليه قبل أن تفرض الزكوات، وتسن الوصيات والأوقاف والكفارات المفروضة، وفي شأن وجوه البر والإحسان هذه يقول تعالى : ﴿**وفي أموالهم حق للسائل والمحروم**﴾ ـ الذاريات 19 ـ ومقدار هذا الحق غير محدد وغير معلوم مقداره خلاف آية الزكاة مثلا التي تقول : ﴿**وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم**﴾ ـ المعارج 24 ـ 25 ـ أي ان مقدار الأموال التي تخرج في الزكوات معلوم ومحدد، أما الإحسان فمطلق لأنه هو المشروع الأول قبل مشروعية الزكاة. وكذلك قوله تعالى : ﴿**وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه**﴾ ـ الحديد ـ 7 ـ... وقوله عليه السلام : «الناس شركاء في ثلاث : الماء والملح والطعام» وفي رواية الماء، والملح والكلأ، يقول أيضا عليه السلام : «ليس من الإسلام في شيء من بات شبعان وجاره جوعان». والنصوص في هذا الباب» باب البر والخير والإحسان نصوص عديدة لا يتسع المقام لذكرها. وكلها تشير إلى حث المسلم على العطاء حتى يطهر نفسه من الشح والبخل، وحتى لا يتمكن المال من قلبه فيصبح لديه هو كل شيء، وحتى يسود نوع من الحقوق الاقتصادية بسبب تفتت الثروة الفردية بهذه الطرق المشروعة. فهذا رسول الله محمد ﷺ نراه أول عمل قام به بعيد الهجرة أنه آخى بين المهاجرين والأنصار إخاء اقتصاديا اشتراكيا ماديا بعد إخائهم معنويا وروحيا وإيمانيا، حيث أمر عليه السلام الأنصار بأن يشركوا معهم إخوانهم من المهاجرين فيما عندهم من الرزق والمال الحلال، حتى نزل في شأنهم قوله تعالى : ﴿**يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في**

صدورهم حاجة مما أوتوا ويوثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون﴾ ـ الحشر 9 ـ

7 ـ **بالإضافة إلى ما ذكر** من طرق توزيع الثروة الفردية رغبة في المساواة في الحقوق الاقتصادية، وتفاديا لاكتناز المال لقوله تعالى : **﴿كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾** ـ الحشر 7 ـ هناك طرق أخرى في شريعة الإسلام لتفتيت الملكية الفردية وذلك مثل توزيع الفيء والفناء، ودفع الخراج والجزية والضرائب ومصادرة الأموال وخاصة الأموال المكتسبة بطرق غير مشروعة، وكذلك الإرث الذي يأخذه بيت المال بالنسبة لمن لا وارث له...الخ.

وكل هذا يجعلنا نستنتج حقيقة واحدة، وهي أن الإسلام يعمل على توزيع الثروة وتفتيتها لفائدة الطبقات المحرومة من أجل إقرار المساواة في الحقوق الاقتصادية من جهة، ومن أجل المحافظة على التوازن الاقتصادي حتى لا تعم البورجوازية والفوارق الطبقية من جهة ثانية. وهذا كله انطلاقا من الأمر الإلهي الذي يقرر أن المال مال الله، وأن كل الخلق عيال الله، وأن الإنسان الغني ما هو إلا أمين الله على ماله وغناه، وليس المال ماله بل هو مستخلف عليه ليتصرف فيه طبقا لأوامر الذي أمّنه على ذلك المال حتى لا يطغى بسببه...

وكل هذا أيضا يجعلنا نستنتج حقيقة هامة في نطاق المقارنة بين مفهوم المال عندنا نحن معشر المسلمين الحقيقيين، وعند غيرنا أصحاب المذاهب الاقتصادية الغربية، ذلك أن المال في شريعة الإسلام «وسيلة» لا غاية في حد ذاته... وسيلة لتحقيق الغاية المتمثلة في نشر المساواة في الحقوق الاقتصادية لتعميم الأخوة والإنسانية مع اعتبار المال ظلا زائلا، وصاحبه مستخلفا فيه فقط...

أما المال في مفهوم المذاهب الاقتصادية الغربية فيعتبر «غاية» في حد ذاته، أي أن المال عندهم هو كل شيء وذلك بغض النظر عن أمور القيم أو المثل أو الأخلاق أو الدين عموما، وبغض النظر عن الطرق المحرمة في استغلال المال ومن هنا نرى أن المذهب الاقتصادي الاشتراكي الإسلامي الذي أوضحنا موقفه من الملكية الفردية المقيدة بالتعاليم الشرعية. هو المذهب المناسب الذي يرضي الطرفين في مراعاة حقوق الفرد وكرامته في الكسب والتملك ليزدهر الإنتاج بالمنافسة الحرة المشروعة المحللة من جهة، ومراعاة حقوق ومصالح المجتمع بمراقبته الملكية الفردية حتى لا تطغى وحتى لا تكتنز الأموال في أيدي الأغنياء من جهة ثانية، وهذا عكس ما نراه في المذاهب الغربية الاشتراكية منها والشيوعية والرأسمالية على العموم...

رابعا ـ المساواة في الإسلام في الحقوق الاجتماعية وخاصة بين الرجل والمرأة :

المساواة في الإسلام في الحقوق الاجتماعية تشمل العديد من الميادين الاجتماعية التي للأفراد حق في الاستفادة منها والمساواة فيها، وهي غالبا ما تتفرع عن الحقوق المدنية المشار إليها والحقوق الاقتصادية المذكورة، بحيث إذا توفرت هذه الحقوق على مستوى الأفراد تتوفر على مستوى الكل جماعات وأقاليم ووطن، ومن أمثلة هذه الحقوق الاجتماعية أن يستفيد الكل من المنشآت والمؤسسات التي تقيمها الدولة كحق الصحة في العلاج، وحق الأمن وحق المشاركة في الأندية الثقافية وحق مراعاة الأسعار وأعمال الحسبة، وإنشاء الأسواق والمرافق العامة الخ... ولعل أهم ميدان يعطى كمثال للمساواة في الحقوق الاجتماعية في الإسلام هو «حق المرأة» أمام الرجل... حيث نجد أن الإسلام ساوى بين الذكر والأنثى من بني الإنسان، وخصوصا إذا عرفنا أن المرأة قبل الإسلام وفي الشرائع المحرفة والشرائع الوضعية قديما، كانت المرأة مهضومة الحقوق تماما أمام الرجل وذلك لا لشيء إلا لكون العقلية الجاهلية التي سادت العالم يومذاك قبل مجيء الإسلام، كانت ترى أن المرأة ـ باعتبارها أنثى الإنسان والرجل ذكر الإنسان ـ لا تستحق ما يستحقه الرجل، لأنها أقل منه شأنا واعتبارا وقوة وعقلا وسلوكا، حتى أشاعوا عنها إشاعات عديدة، جعلت المجتمع ينظر إليها تلك النظرة السخيفة باعتبارها تعمل لحساب الشيطان، وأنها صاحبة التفاحة التي كانت السبب في هبوط آدم من الجنة، وأنها سبب في ارتكاب أول جريمة على وجه الأرض بين قابيل وهابيل

وأنها صاحبة العار والفضيحة لأنها لا تحمي الذمار ولا تدافع عن الديار حتى أن بعض فلاسفة اليونان الذين يزعمون أنهم أصحاب الفكر كانوا يأسفون على أنفسهم لكونهم أبناء المرأة، والمرأة الغربية هي أيضا كانت تعاني من كل هذه الوضعيات المزرية، ولم تبدأ في الدفاع عن حقوقها إلا بعد مجيء الإسلام حوالي القرن السادس الميلادي، وكذلك الشأن بالنسبة للمرأة العربية في الشرق فهي أيضا كانت قبل الإسلام كشقيقتها الغربية مهضومة الحقوق بحيث تُورث ولا ترِث، وتُملك ولا تملك، وتكره على الزواج أو تعضل منه، وأحيانا كانت تدفن حية كما يعلم الجميع وكما يخبرنا القرآن...

هكذا كانت وضعية المرأة الاجتماعية في الجاهلية قبل الإسلام، ولما جاء الرسول مجددا هذا الدين الإسلامي أصبح للمرأة شأن وأي شأن، فتساوت في الحقوق الاجتماعية بينها وبين الرجل، فكان لها حق الكسب، وحق التملك وحق التعاقد، وحق اختيار الزوج، كما كان لها الحق في التعليم وفي كل الميادين المدنية منها والاقتصادية والاجتماعية والسياسية، حتى أننا نجد في القرآن الكريم آيات يصعب حصرها هنا وكلها تنوه بالمرأة وبمكانتها الاجتماعية والاعتبارية التي يجب أن تنالها بجانب الرجل، سواء في ميدان الحقوق أو في ميدان الواجبات والمسؤوليات، كما نجد في القرآن سورة تحمل اسمها وهي «سورة النساء»...

يقول الله تعالى : ﴿**والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة**﴾ - النحل 73 - ويقول في نطاق مساواتها بالرجل في الحقوق والواجبات : ﴿**إن المسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمومنات، والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات، والصابرين والصابرات، والخاشعين والخاشعات، والمتصدقين والمتصدقات، والصائمين والصائمات، والحافظين فروجهم والحافظات، والذاكرين الله كثيرا والذاكرات، أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما**﴾ - الأحزاب 35 - ويقول في حقها في الزواج بمن تحب : ﴿**ولا تعضلوهن إن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف**﴾ ويقول تعالى وهو ينهى العرب عن تلك العادة الفاسقة في استغلال مال المرأة الزانية العاهرة : ﴿**ولا تكرهوهن على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا...**﴾.

ويقول جل شأنه منوها بحقها في الكسب وحق الصداق : ﴿**وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا**﴾. ويقول الرسول محمد ﷺ : «النساء شقائق الرجال». ويقول عليه السلام : «استوصوا بالنساء خيرا». وهكذا نفهم من هذه النصوص وغيرها من النصوص التي لم نذكرها في ميدان الأحوال الشخصية أن الإسلام أعاد للمرأة كرامتها ومكانتها ووضعيتها الاجتماعية حتى قيل عنها إنها نصف المجتمع، والرجل النصف الآخر، بل هناك من يرى أنها المجتمع كله إذا فسدت فسد، وإذا صلحت صلح، بل هناك من العلماء في ميادين الطب والاجتماع والبيولوجيا من يرى أن المرأة «هي الأصل» كما تذكر الدكتورة والطبيبة الباحثة السيدة نوال سعداوي في كتابها «الأنثى هي الأصل». وخلاصة هذا ان الإسلام ساوى بين الرجل والمرأة إلا فيما لا يلائم طبيعتها الأنثوية.

خامسا - المساواة في الحقوق في الإسلام بين المسلمين وغير المسلمين من الذميين :

الإسلام حقا دين المساواة، ودين العدالة الاجتماعية، ودين الإنسانية جمعاء، وهذا ليس فقط مع المسلمين فيما بينهم، بل حتى مع غير المسلمين من الأجناس الأخرى التي تعيش داخل البلدان الإسلامية، والذين يسميهم الإسلام بالذميين، سواء كانوا من أهل الكتاب أو من غيرهم...

فالإسلام يقرر أن لمثل هؤلاء ما لغيرهم من المسلمين في الحقوق والواجبات مدنيا واقتصاديا واجتماعيا. وموقف الرسول ﷺ مع اليهود وأهل الكتاب موقف معروف. وكان يقول عليه السلام : «من قذف ذميا حد يوم القيامة بسياط من نار». ويقول أيضا : «من آذى ذميا فقد آذاني». ويقول كذلك : «من ظلم معاهدا... فأنا خصمه يوم القيامة». حتى أن عمر بن الخطاب حذر عامله عمرو بن العاص بهذا الحديث فقال له : «إن معك أهل الذمة والعهد، فاحذر يا عمرو إن يكون رسول الله خصمك...».

وكل هذا فيه إشارة إلى أن الإسلام دين مساواة في الحقوق حتى بين المسلمين وغير المسلمين، وذلك بغض

النظر عن الجنس أو الجنسية أو العقيدة أو ماشابه ذلك من الاعتبارات العنصرية...

سادسا ـ المساواة في الإسلام في الحقوق السياسية والحريات العامة :

من المعلوم أن الإسلام لم يفصح عن نظام حكم معين، ولم يفرض على المسلمين مثلا النظام الجمهوري الرئاسي، أو النظام الديكتاتوري، أو النظام الإقطاعي الاستبدادي، أو النظام الأرستقراطي، أو النظام الملكي، بل إن نظام الحكم في الإسلام متروك كيفيته للمسلمين، حتى يكون الأمر شورى بينهم وحتى يروا ما يناسب ويتفق وظروف الحال، ومجريات الأمور، طبقا لمبادئ الشريعة الإسلامية ومقاصدها في اختيار الإمام حتى قال تعالى في هذا الشأن : ﴿**وأمرهم شورى بينهم**﴾. وقال سبحانه : ﴿**وشاورهم في الأمر**﴾. كما أن علماء وفقهاء الشريعة وضعوا شروطا يجب أن تتوفر في الإمام الحاكم، واسندوا عملية اختياره إلى أهل الحل والعقد، أو ما يشابه في هذا العصر النظام الديموقراطي المتمثل في عمليات الاستفتاء أو الاقتراع أو الانتخابات التشريعية أو الرئاسية، أو انتخاب شخص صالح يحكم أمور المسلمين، وترث ذريته هذا الحكم بعده كنظام ملكي عادل، على غرار تلك الأنظمة الملكية القديمة التي خلدت للإنسانية حضارات ومواقف وبطولات في الشرق كما يرى علماء القانون والنظم السياسية...

وبعبارة واضحة أن الإسلام لا يهمه هذا النوع من النظام أو ذاك، بل المهم عنده أن تكون هناك عدالة ونزاهة وأمن واطمئنان، سواء توفر ذلك في هذا الإسم أو ذاك من أسماء الأنظمة المذكورة، كما أن الإسلام يفرض الطاعة لأولي الأمر بغض النظر عن نوع النظام مادام الحاكم عادلا. فقال تعالى : ﴿**ياأيها الذين آمنوا وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم...**﴾.

والمساواة في الإسلام في الحقوق السياسية تتمثل أولا في مبدأ الشورى الذي تطور حاليا إلى مايسمى بالانتخابات المحلية والنيابية أو الرياسية ابتداء من القاعدة التي هي الفرد إلى القمة التي هي الرئيس، أو من القاعدة إلى ما دون القمة في النظام الملكي الدستوري الديمقراطي كالنظام المغربي. والمساواة في الحقوق السياسية تتجلى هنا في مشاركة جميع المواطنين في الانتخابات كواجب وطني عيني على كل من توفرت فيه الشروط ناخبا كان هذا الفرد أو منتخبا، وذلك من أجل تحمل المسؤولية في اختيار الممثلين الصالحين محليا كان أم نيابيا وطنيا وتشريعيا قصد بناء الهيكل الكلي للنظام العام. والمساواة في الحقوق السياسية تشمل أيضا إنشاء الهيآت والمنظمات والجمعيات والنقابات، من أجل التعبير عن الرأي، والدفاع عن حقوق المهضومين أمام المسؤولين باسم النقابة أو باسم هيئة من الهيآت الحزبية السياسية، وهو مظهر من مظاهر الديمقراطية والحريات العامة التي يقرها الإسلام.

سابعا ـ المساواة في الواجبات والمسؤوليات في الإسلام :

أجل.. تلكم كانت نظرة موجزة عن المساواة في الإسلام في الحقوق بما في ذلك «المساواة في حقوق الكرامة الآدمية»، «والمساواة في الحقوق المدنية»، «والمساواة في الحقوق الاقتصادية»، «والمساواة في الحقوق السياسية»، «والمساواة في الحقوق الاجتماعية»، «والمساواة في الحقوق بين المسلمين وغير المسلمين» من الناحية النظرية، وتبقى الناحية التطبيقية التنفيذية الفعلية...

والسؤال المطروح الآن هو أنه إذا كان الإسلام قد ساوى بين بني الإنسان في جميع الحقوق كما رأينا فهل فعلا نجد أن الفرد المسلم أو حتى غير المسلم يتمتع بكامل حقوقه كما أوضحها الإسلام ؟ ثم من المسؤول عن تطبيق هذه المساواة، أو عدم تطبيقها ؟ ولماذا ؟

1 ـ بالنسبة للإجابة على السؤال الأول المتعلق بمدى تمتع الفرد المسلم بمساواته في الحقوق المذكورة ـ يلاحظ في المجتمع الإسلامي خاصة أن هناك نوعا من التطبيق والممارسة الفعلية في حقوق الكرامة الآدمية كما يلاحظ في المجتمع الإسلامي أيضا أن هناك نوعا من التطبيق في الحقوق الاجتماعية سواء بين الرجل والمرأة أو بين

المسلمين والذميين في بلدنا، إلا أن التطبيق الشامل للمساواة التامة في هذه الحقوق مازال أمرا مشكوكا فيه نظرا لما يجري بين العرب والمسلمين من التناحر والتقاتل يذهب ضحيتها آلاف الأبرياء، وخاصة بالنسبة للكرامة الآدمية المهدورة التي تموت دون طائل، وما يستتبع ذلك من مشاكل اجتماعية، واقتصادية بسبب الموت والتخريب والدمار للمنشآت... أما بالنسبة لتطبيق المساواة في الحقوق الاقتصادية والسياسية فيبدو واضحا أن المجتمع العربي الإسلامي مازال يخطو خطوات بطيئة في هذين الميدانين الهامين، نظرا لانتشار البطالة وتفاقمها ونظرا لقلة التخطيط والتصميم، ونظرا لضعف الإنتاج، وسوء التوزيع مع قوة في الاستهلاك، ورفع في نسبة الواردات بالقياس إلى الصادرات. ونفس الضعف يمكن أن يلاحظ في المساواة في الحقوق السياسية، نظرا لما يسود هذا الميدان من الأنانيات والمحاباة والمحسوبيات وما يحصل فيه من المغالطات والتزوير بسبب أزمة الضمير وقلة الوعي السياسي...

2 ـ بالنسبة للإجابة على السؤال الثاني الخاص بـ «من المسؤول» عن تطبيق أو عدم تطبيق هذه المساواة في الإسلام ـ فيجب أن نعلم أننا عندما نتحدث عن الحقوق لابد وأن نتحدث عن الواجبات والمسؤوليات، لأن الإسلام كما ساوى بين الناس في الحقوق ساوى بينهم كذلك في الواجبات والمسؤوليات، ومن هنا نرى أننا كلنا جميعا مسؤولون عن تطبيق المساواة التي أمرنا بها الإسلام، ومسؤولون أيضا جميعا عن عدم تطبيقها في حالة انعدامها، لأن الإسلام يقرر «كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته» ويقول الإسلام «تغيير المنكر» كل على قدر المستطاع : «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان». ويقرر الإسلام أننا خير أمة أخرجت للناس مادمنا نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر كما أشرنا في بداية هذا البحث. ويقرر الإسلام : «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم...». ويقرر رسوله الكريم فيقول : «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم». ومع توزيع الإسلام لهذه الواجبات والمسؤوليات على الجميع ذكورا وإناثا فرادى وجماعات بخصوص عدم تطبيق المساواة في الحقوق المذكورة.. أقول رغم تعميم الإسلام لهذه المسؤوليات علينا جميعا ـ فإنه مع ذلك يبقى العلماء وأولوا الأمر هم الذين يتحملون النصيب الأكبر عن عدم تطبيق المساواة في كل ميادين الحقوق المذكورة : كرامة ومدنية واقتصادية واجتماعية وسياسية، لأن هؤلاء العلماء وهؤلاء المسؤولين المباشرين هم أدرى بمجريات الأمور لما لديهم من سلطة ونفوذ واعتبار...

3 ـ أما بالنسبة للإجابة على السؤال الثالث المتعلق بالأسباب التي تعرقل تطبيق المساواة في الإسلام، والذي يقول «لماذا لم تطبق هذه المساواة كما أوضحناها حسب تعاليم الدين» ؟ فإننا نقول كما قلنا في صدر هذا البحث من أن الإنسان يكاد يستحيي من نفسه عندما يتحدث عن المساواة في الإسلام، وذلك لكثرة ما قيل ويقال في هذا المجال دون جدوى، حتى أصبحت المسألة مبتذلة تقريبا بسبب انعدام التطبيق. والعلة في انعدام الجانب التطبيقي في معظم ميادين المساواة في الإسلام ـ رغم كثرة الحديث عنها ـ يكمن حسب تصوري في الأسباب التالية :

ـ أولا ـ إن السواد الأعظم من المسلمين لم يفهموا بعمق مقاصد التشريع الإسلامي في موضوع المساواة والمعاملات والحقوق والمسؤوليات والواجبات في الحياة بقدر ما فهموا العبادات الشكلية السطحية الجافة صوريا لا روحيا وجوهريا، وذلك لأن أسلوب الدعاة وأسلوب التربية الدينية عامة هو أسلوب لا يتلاءم مع الفكر المعاصر تجاه الشباب خاصة، لأنه أسلوب عقيم أكل عليه الدهر وشرب حتى أصبحت منهجيته غير صالحة لافتقارها إلى الأسلوب التحليلي العلمي المنطقي الجذاب، بل هو أسلوب يكتفي عادة بالسرد والحشو لا غير وبالتالي لا يستطيع أن يصل إلى الأعماق.

ـ ثانيا ـ إن الفعل الحاصل في منهجية التبليغ المشار إليها جعلت الإيمان مزعزعا في النفوس بسبب التيارات المادية والإلحادية المستوردة من الغرب، فإذا الوازع الروحي الديني الإيماني يكاد ينعدم.

ـ ثالثا ـ انعدام الثقة عند الناس في صحة ما يقال عن الإسلام نظريا بسبب التناقض الحاصل بين النظر والتطبيق...

ـ رابعا ـ تَنَبُّهُ الناس إلى بعض المواقف الانتهازية لاستغلال مشاعر الغير باسم الدين لتحقيق الأغراض الشخصية.

ـ خامسا ـ تهاون أولي الأمر وعدم استعمال الحزم من طرفهم قصد تطبيق تعاليم الإسلام في المساواة...

ـ سادسا ـ النقصان الحاصل في الميدان العلمي والفكري والوعي السياسي والتكنولوجي...

ـ **والبديل أو الحل للمشكل** يكمن في تجديد أو تطوير ما ينبغي تجديده أو تطويره، وتغيير ما يجب تغييره، وإصلاح مايجب إصلاحه، وإنشاء ما يجب إنشاؤه من الأمور والهياكل المشار إليها في الأسباب المعرقلة للمساواة في الإسلام المذكورة أعلاه...

إلا أن كل هذا لا يمنع الداعية الحق من مواصلة مهمته، حتى يعلم الجميع أن العيب فينا نحن معشر المسلمين، وليس العيب في الإسلام معاذ الله، وهذا ما جعلني اختار هذه المرة الكتابة في موضوع المساواة في الإسلام، فبينت موقف الإسلام في ميادين الحقوق والمساواة نظريا كما هو منصوص عليه في الشريعة السمحاء وكما طبق فعلا في صدر الإسلام وأتى أكله، وطرحت مشكل التطبيق ومن المسؤول عنه في إطار الإصلاح والنقد الذاتي لمجتمعنا العربي والإسلامي والإنساني عموما، حتى يتحمل كل منا مسؤوليته.. ويا ما أحوجنا إلى تحمل المسؤوليات عن استحقاق ! وياما أحوجنا إلى النقد الذاتي في نفس الوقت !؟

الناظور : أحمد بودهان

أهم مراجع هذا الموضوع

ـ القرآن الكريم
ـ التفاسير
ـ صحيح البخاري
ـ صحيح مسلم
ـ شروح البخاري للنووي والقسطلاني والقنوجي
ـ الأصول الثلاثة (الله ـ الرسول ـ الإسلام) لسعيد حوى
ـ الإسلام عقيدة وشريعة للشيخ شلتوت
ـ إسلامنا للسيد سابق
ـ دعوة الإسلام للسيد سابق
ـ حقوق الإنسان في الإسلام للدكتور علي عبد الواحد وافي
ـ مجموعة من كتب القانون المدني
ـ دروس في القانون الاجتماعي لموسى عبود
ـ محاضرات في النظم السياسية للدكتور أنور أحمد رسلان
ـ مدونة الأحوال الشخصية
ـ شرح مدونة الأحوال الشخصية للمزغريني
ـ الحريات العامة في الإسلام للدكتور علي عبد الواحد وافي
ـ الأنثى هي الأصل للدكتورة نوال السعداوي
ـ نظام الحياة في الإسلام ـ أبو الأعلى المودودي
ـ هل نحن مسلمون ـ محمد قطب
ـ الجنس اللطيف في الإسلام (حقوق النساء) رشيد رضا
ـ اليهود في القرآن ـ عفيف عبد الفتاح طبارة

من أعلام تطوان :

أبو عبد الله الفرطاخ

العالم المحدّث

للأستاذ سعيد أعراب

من الشيوخ الذين أعتز بمشيختهم، ولهم فضل كبير علي؛ - أبو عبد الله الفرطاخ، محدث تطوان، وآخر مشيختها؛ وإذا كان من برور بهؤلاء الأشياخ الذين أفاضوا علينا من علمهم، وأعطونا من وقتهم الثمين - بدون مقابل مادي - وتلك ميزة أشياخنا الأقدمين، فعلى الأقل أن نقول فيهم كلمة نرسم فيها بعض مآثرهم، ونسجل لمحات من تاريخ حياتهم؛ وهي لوحات ستبقى خالدة إلى الأبد - ما دام في الناس عرفان بالجميل؛ ويحدثنا القاضي عياض عن بعض شيوخه أنه كان يقول لهم : ما لكم تأخذون العلم عنا، وتستفيدون منا، ثم تذكروننا ولا تترحمون علينا (1) / ؟.

وهذا يعني أن الاعتراف بفضل هؤلاء الشيوخ، دين يجب الوفاء به، وهو لسان صدق في الآخرين، وتلك أمنية تمناها الأنبياء والرسل، ومن أرخ عالما، فكأنما أحيا أمة.

اسمه ونسبه :

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الفرطاخ، يتصل نسبه بالعارف الرباني أبي عبد الله محمد - فتحا - بن الحسن الجناتي الحياني (2) - دفين جبل (تسّا) - قرب وادي اللبن بقبيلة الحياينة - حوز فاس، ومن هناك انتقل أسلافه إلى مدشر الدردارة بقبيلة الأخماس، وأقاموا ثمة برهة من الزمن، ثم نزحوا إلى الدرادر - ببني ليث، وبعدها إلى ابن رتن، وبها موضع يسمى - إلى الآن - بخرية الحياني، ثم نأوا عنها إلى فج بني يدر ومسيعد، واستوطنوا هناك وتناسلوا، وكان فيهم علماء وقراء متنسكون، ومن بينهم العالم المشتهر بالفرطاخ (3)، وهو اللقب الذي التصق بهم منذ أحقاب السنين، ثم انتقلوا إلى جبل الحبيب - حيث نزلوا مدشر الخروب، ولم يلبث أن انتقل والد المترجم - بالأهل والأولاد - إلى مدينة تطوان، واستقر بها نهائيا، وكان وصولهم إليها في شهر رمضان عام تسعة وتسعين ومائتين وألف (1299 هـ) - حيث كان سكناهم بزنقة المقدم - درب سلامة - قرب جامع لوقش، وسن المترجم وقتئذ نحو عام ونصف عام، ويشير المترجم إلى هذا - في بعض قصائده (4).

1) أنظر ابن بشكوال، الصلة 446/2.

2) وجاء في بعض تقاييد المترجم هكذا : الجناتي، الحياني، الحسني، وفي كناش ابن رحمون ورقة (56) : أن ممن صح نسبهم، أولا سيدي محمد بن عبد الله - وهم أولاد الفرطاخ بالملاح - بجبل (تسا).
وكتب المترجم بالهامش : يعنى أولاد الفرطاخ بمدشر الملاح - حيث الجد الأعلى لهذا الفرع - وهو سيدي محمد بن الحسن الحياني.

3) وتذكر بعض الروايات أنه كان بدينا، فلقب بالفرطاخ، ولعله من فرطح الشيء - بالحاء المهملة - إذا صيره عريضا، ورأس مفرطح : عريض، فتحرف في العامية بالفرطاخ - بخاء معجمة، فيقال : فلان مفرطخ : إذا كان ناعم البدن، كامل الجسم.

4) أنظر قصيدته في الولي الصالح سيدي أحمد شتوان - دفين بني يدر - الديوان، ورقة 56 (أ - ب).

مولده ونشأته :

ولد أبو عبد الله الفرطاخ بمدشر الخروب - قبيلة جبل حبيب - في حدود أواخر ربيع الثاني عام ثمانية وتسعين ومائتين وألف (1298)، وانتقل به والده إلى تطوان - وهو ابن عام ونصف عام (5) - كما أسلفنا، وتعلم في الكُتّاب، ولكنه لم يكد يصل الحادية عشرة حتى توفيت والدته، وهو سابع سبعة إخوة - سبقوا أمهم - إلا هو، لأمر يعلمه الله ؟ فتزوج والده، وعانى من زوجة أبيه ما عانى؛ مما اضطره إلى الخروج من الكُتّاب، فأخذه والده معه إلى الدكان الذي كان يعمل به - وكانت مهنته الحدادة، فعالج نفخ الكير، وضرب الحديد - ردحا من الزمن، حتى اتقن صنعة الحدادة، واستقل بنفسه، ولكنه كان يشعر دائما - وكأن شيئا يدفعه إلى الخروج من تطوان، فانتقل إلى طنجة - وجعل يعمل مع المعلم حسين أبي طاهر السوسي - وكان من مهرة الحدادين، وقد توسم في المترجم - رغبة في الطلب، وحنينا متأججا إلى الدراسة والتعلم، فشجعه على الخروج إلى البادية لحفظ كتاب الله العزيز، وكان يمده من حين لآخر بكل ما يحتاج إليه، فالتحق بمدشر الخروب - بقبيلة جبل الحبيب مسقط رأسه، والمقر الأول لأبيه وجده، ومكث هناك مدة حفظ فيها القرآن الكريم، ثم خرج إلى قبيلة بني بدر - وفيها جماعة من أبناء عمومته، فقرأ على بعض الشيوخ المختصين في علوم القرآن، وأتقن رسمه وضبطه، وحفظ بعض الروايات، ثم دفعته نفسه الطموح - إلى تعلم العلم.

تعلمه ومشيخته :

قلنا إن المترجم لم يتعلم إلا بعد أن كبر، وكان له من العمر نحو (17) سنة، ومن شيوخه في العلم :

1 - الفقيه الأندلسي، أخذ عنه بجبل الحبيب (جبيلة)، ويقال إنه أقرأ مع الطلبة نحو مائة سلكة في العربية.

2 - ثم التحق بالفقيه ابن يرمق بماثة، وأدركه شيخا كبيرا، وكان من العلماء، العاملين، له مؤلف في العربية، أسماه بعض منافسيه بـ (خَرْبَقْ)، لابن يَرْمَقْ، وكانت له اليد الطولي في علم الجدول.

3 - وأنهى دراسته في العربية على عالم نحوي كبير - بمدشر القب بقبيلة اغزاوة - لم يحضرني اسمه الآن.

ثم عاد المترجم إلى تطوان - بعد غياب طويل، فصادف رجوع الفقيهين :

4 - 5 - أبوي العباس : أحمد بن الطاهر الزواقي، وأحمد الرهوني - من فاس، فجلس في دروسهما بضعة أشهر، وكانت الحرب قائمة بين أهالي تطوان وقبائل الجبل، بإيعاز من الاستعمار وأذنابه، عملا بمبدأ (فرق تسد).

ثم شد الرحال إلى فاس - عاصمة العلم، فأخذ عن جملة من علمائها ومشايخها، وكان في مقدمة من سمع منهم :

6 - أبو العباس أحمد بن الخياط الزكاري - وهو أول شيخ جلس بين يديه بفاس، وكان من الفقهاء المحدثين، والمفسرين المحققين، - إلى زهد وورع، وتواضع ودماثة أخلاق، له مؤلفات في التوحيد، والفقه، والحديث والقراءات. (ت 1343 هـ) (6) ذكره المترجم في الذيل، (7) وله فيه بعض قصائد (8).

7 - ومن شيوخه بفاس - وهو عمدته - أبو عبد الله محمد بن جعفر بن ادريس الكتاني، محدث مكثر، متضلع في علوم الحديث وفنونه، بصير بفقهه ومعانيه، دءوب على تدريسه وسرده، حسن النطق به، عارف بتراجم رجاله، مؤرخ، مطلع على أخبار صلحاء وعلماء فاس، وطبقات علماء المذهب، رحل إلى الحجاز غير مرة، وجاور بالمدينة المنورة مدة، ثم سكن دمشق إلى أواخر حياته، ثم عاد إلى المغرب فتوفى بفاس سنة (1345 هـ) (9). وله نحو 60

---

5) المرجع السابق.

6) أنظر الجحوي، الفكر السامي ج 2 - ق320/4 - 322، وعبد الحفيظ الفاسي، معجم الشيوخ 127/1 - 133، ومخلوف شجرة النور 436.

7) أنظر ص 296.

8) أنظر الديوان ورقة 64 (ب)، 87 (ب).

9) أنظر عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس 388/1، ومحمد مخلوف، شجرة النور ص : 435، وعبد الحفيظ الفاسي، معجم الشيوخ ص 77 - 82، والزركلي الاعلام 300/6.

كتابا، أكثرها في الحديث وعلومه (10)، وقد تأثر به المترجم أيما تأثر، ولازمه في الحل والترحال، وظل في خدمته - يفيد من فيض علمه - إلى أن فرق الموت بينهما، ذكره في الذيل (11)، وله فيه القصائد الطوال (12)، ألف كتابا في سيرته ومناقبه - لم يكمله (13).

8 - أبو عبد الله محمد - فتحا - بن قاسم القادري، الإمام النحوي النقاد، العلم الذي تتضاءل له الأوطاد، سلالة الأفاضل الأعلام، آية الله في التحرير والتقرير، إلى زهد وعفاف، وقناعة ورضى بالكفاف، طلق الدنيا بالبتات، ووأدها وأد البنات. (ت 1331 هـ) (14).

له حاشية على شرح الشيخ الطيب بن كيران على توحيد المرشد المعين في مجلدين، دلت على اطلاع واسع، وتحرير وتحقيق (15).

9 - أبو العباس أحمد بن الجيلالي الأمغاري، شيخ فقهاء الوقت، فارس المعقول والمنقول، بقية العلماء العاملين، ولسان المناطقة المتكلمين (16)، - في آخرين.

رحلاته :

رحل المترجم إلى بلاد الحجاز ثلاث رحلات :

1 - أولاها - وكانت صحبة شيخه أبي عبد الله محمد بن جعفر الكتاني - في حدود سنة (1325 هـ) وقضى هناك نحو سنة - أدى خلالها مناسك الحج، وكانت له اتصالات بشيوخ العلم ورجال الحديث، ثم انتقل رفقة شيخه الكتاني - إلى بلاد الشام، فزار في بيروت الشيخ يوسف بن اسماعيل النبهاني (17)، وبعد تبادل الشيخين الإجازات والمناولات، قال الشيخ الكتاني للنبهاني : أدع لأولادي هؤلاء : محمد الزمزمي، ومحمد المكي - وهما ولداي من صلبي، ومحمد الفرطاخ - وهو ولدي الروحي، فضمهم إليه، وأجازهم جميعا.

ثم عاد المترجم إلى المغرب في حدود أواخر سنة (1326 هـ)، فتزوج بتطوان ولم يمض على زواجه إلا نحو عامين حتى توفيت الزوجة، فتزوج أختها - وولد له معها ولدان : محمد الزمزمي، ومحمد المكي.

2 - ثم رحل إلى الحجاز - للمرة الثانية سنة (1331 هـ) - واصطحب معه الأهل والأولاد، فالتحق بشيخه محمد بن جعفر الكتاني - وكان مجاورا بالمدينة المنورة، ولم يلبث أن توفيت زوجته الثانية ثم الولدان، فسافر مع السيد محمد الزمزمي - ولد الشيخ الكتاني إلى القاهرة - بقصد الاطلاع على أعمال الطبع في ((الرسالة المستطرفة)) - للشيخ، فاهتبلها المترجم فرصة لزيارة الأزهر، ومديره الشيخ الأكبر مصطفى المراغي، وكان على صلة بالشيخ الكتاني، جرت بينهما مراسلات في عدة مناسبات.

وفي طريق عودته - عرج المترجم على الينبع، فقضى هناك مدة، تولى خلالها التدريس ببعض المؤسسات، وقد اختبره مشايخ الينبع، فاقترحوا عليه درسا في تفسير سورة البقرة، فألقى الدرس على المشايخ، وكان موفقا كل التوفيق، وكان أستاذه الكتاني - يناديه بشيخ الينبع - مباسطة له.

ثم عاد إلى المدينة، فجاوز مع شيخه - إلى أن قدم عليهم المولى عبد الحفيظ - وكان قد أدى فريضة الحج، فطلب من الشيخ أن يأذن للمترجم في العودة معه إلى المغرب ليعلم أولاده، فإذن له، فعاد ونزل طنجة في حدود سنة (1333 هـ)، وجعل يعلم أولاده - وفيهم المولى يونس - الذي تولى - بعد - مناصب عليا في الدولة.

وفي هذه الاثناء، تزوج المترجم - للمرة الثالثة، وكان زواجه بكريمة الحاج عبد السلام العمارتي - وهي من أسرة ريفية، استوطنت طنجة قديما، وأكثر أولاد المترجم من هذه الزوجة، وقد انجب عدة أولاد ذكور، تعلموا على والدهم، ثم التحقوا بمدارس ومعاهد، وهم

---

10) المرجع السابق.

11) ص 296.

12) أنظر الديوان - ورقة 12 - (ب)، 13 (أ)، 22 (أ)، 23 (ب)، 25 (ب)، 36 (أ).

13) أنظر مقدمة الرسالة المستطرفة - للمنتصر الكتاني ص (و).

14) الفكر السامي ج 2 - ق 317/4 - 318، فهرس الفهارس 292/2 - 293، معجم الشيوخ 52 - 55، شجرة النور ص 435.

15) المرجع السابق.

16) أنظر الفكر السامي ج 2 - ق 322/4 - 323، ومعجم الشيوخ 145/1.

17) ذكر ذلك في كتابه جواهر البحار، أنظر شجرة النور الزكية ص 436 - 437.

يعملون الآن في وظائف عمومية، وبعضهم يعمل في حقل التعليم الحر.

وقد قضى المترجم بطنجة بضع سنوات، تولى التدريس فيها ببعض المساجد والجوامع، منها : مسجد ابن ريسون، درس فيه العربية، والجامع الجديدة ـ وكان يدرس به موطأ مالك، ثم مسجد بوعبيد ـ وكان به خطيبا.

ثم عاد إلى تطوان، فاستقبلته بالأحضان، وكان سكناه بالسويقة، وهي الدار التي قضى فيها أكثر حياته، فتفرغ للتدريس، والتف حوله أفواج الطلبة، فأقرأ بجامع القصبة ـ وكان به خطيبا، وأقرأ بجامع المصدي عدة فنون، ثم بالجامع الكبير ـ وكان يدرس به مختصر خليل، ولما وصل إلى باب الجهاد عزم على إقرائه مع الطلبة ـ وكانت السلطة الحامية حظرت تدريسه بالمساجد والجوامع، فاتصل بالصدر الأعظم ـ وهو وقتئذ ابن عزوز ـ وكان شهما نبيلا، فكلمه في الأمر، فقال له : سر على عملك ولا عليك، فواصل إقراءه مع الطلبة، وكان أول من خرق هذا الحاجز الموهوم، ـ على أنه كلفه ذلك ثمنا غاليا !

وكانت دروسه في شهر ربيع الأول ـ كتاب الشمائل للترمذي، وبردة البوصيري، وبعض الموالد الخاصة، وله منظومة مطولة في هذا الباب، وفي شهر رمضان، كان يدرس شفاء عياض، ويتوسع في ذلك، فيملي ما في شروح الشفاء، ويضيف إليها من المواهب اللدنية بشرح الزرقاني، وسيرة ابن سيد الناس، وسيرة الحلبي، وسواها من كتب السير والأثر.

تقلبه في بعض الوظائف :

لقي المترجم ـ بعد عودته إلى تطوان ـ بعض مضايقات من رفاقه في الطلب، الذين تولوا مناصب عليا في الإدارات الحكومية، حتى كاد يرجع من حيث أتى، وقد اضطر إلى قبول وظيف كان دون مقامه.

ومن الوظائف التي تقلب فيها : مستشار ثان بوزارة العدل، ثم قاضي القضاة بإقليم الريف من شمال المغرب، ومستشار شرعي بوزارة الأحباس، ثم أخيرا أستاذ مادة الحديث بالمعهد العالي بتطوان.

رحلته الثالثة :

ثم حج الحجة الثالثة سنة (1356 هـ) (18) ـ وكان قد باع قطعة أرض من غرسة لزوجه بحي السواني من طنجة، فركب سفينة إسبانية تدعى ((ماركس دي كومياس)) وعندما أبحرت من سبتة، قال فيها قصيدته التي مطلعها :

فُلْكُ الثَّنَا ((مَارْكِيسَ دِي كُومِيَاس))
وَسَنَاؤُهَا لِلسُّفُنِ كَالنِّبْرَاسِ

وكان اصطحب معه في هذه الرحلة ـ ولده الأكبر محمد الزمزمي. ثم أرست بهم الباخرة في ميناء طرابلس ليبيا، فنزلوا إلى البر، وقضوا هناك بعض الوقت، فاتصل المترجم بكبار مشايخ العلم بطرابلس، وزار قبر الصحابي الجليل المنيذر الافريقي ـ دفين قرية غريانة من ضواحي طرابلس (19) ووقف على جامع أحمد باشا ـ وهو مسجد كبير عامر بحلقات العلم، فحضر درس شيخ الجماعة مصطفى بن باكر الطرابلسي، واستأذنه في إجازته والرواية عنه، فأجازه بكل ما لديه من معقول ومنقول ـ كتابة ومشافهة، وأخذ عنه الحديث المسلسل بالمصافحة وتشبيك الاصابع، والمعانقة، وقال له : أصافحك كما صافحني شيخي سيدي أحمد العطاس ـ وأورده بسنده المتصل إلى رسول الله ـ ﷺ. وأجازه في صحيح البخاري ـ إجازة مطلقة ذكر فيها سلسلة شيوخه وبعض أسانيده إلى الإمام البخاري، وكان المترجم يعتز بهذا السند ـ وربما كان أعلى سند له، وناوله المعجم الكبير، والصغير للطبراني، وعندما حلوا بجدة من أرض الحجاز، نظم قصيدة يقول فيها :

يا جدة جودي لنا
بالوصل فالقلب انضنى
يا جدة حي الحشا
بالقرب فالصبر انفنى

ـ وهي طويلة (20).

---

18) كان عين عضوا في الوفد الرسمي إلى البقاع المقدسة في السنة قبل هذه ـ (1355 هـ) ـ فلم يتيسر السفر لسبب أو لآخر.
فقال قصيدة مطلعها :
يا طائر بشرت بالإسعاد....
أنظر الديوان ـ ورقة 15 ـ (1).

19) قال أبو العباس أحمد النائب الأنصارى في نفحات النسرين ص (64 ـ 65) : وقبره بطرابلس لدى أهلها مشهور، يتبركون به، ولا يختلفون فيه. وانظر في ترجمته : الاستيعاب لابن عبد البر ـ ق 4 ص 1485، والإصابة لابن حجر 144/6.

20) أنظر الديوان ورقة 12 (ب).

ولما أدى المترجم مناسك الحج - وتهيأ للرجوع، وقف وقفة خشوع - وقد وخطه الشيب، ووقف على عتبة الستين - وهي مرحلة الشيخوخة والإنذار بالموت ! فدعا الله - عز وجل - أن يجعله من أحبائه، ومن خدام سنة نبيه محمد - ﷺ.

تدريسه للحديث وعلومه - ومنهجه في ذلك :

تفرغ المترجم في أخريات حياته لتدريس الحديث وعلومه، وكان له درس خاص بصحيح البخاري بجامع للا فريجة من حومة السويقة، على بضع خطوات من دار سكناه، وكان يلقيه بين العشاءين، يحضره نجباء الطلبة وعامة المومنين، وقد عشت هذه الدروس، وكنت السارد فيها مدة سنوات (21)، وكان المترجم لا يفضل على صحيح البخاري أي كتاب، مهما كان شأنه، ويرفض القول بأن المغاربة يفضلون صحيح مسلم على صحيح البخاري - لمزايا عدوها، ويقول : «إن المزية لا تقتضي التفضيل، وكان له منهج خاص في تدريسه».

1 - يفتتح الدرس بصلوات ودعوات، وتراتيل خاصة، ثم يتخلص لقراءة نص الحديث بسنده المتصل.

2 - يبحث وجه المناسبة بين الترجمة والتي قبلها - وهو موضوع ألف فيه بعض الأئمة - بوجه خاص (22)، ويقال : «إن فقه البخاري في تراجمه».

3 - ثم يرجع إلى رجال السند - واحدا، واحدا - إلى الصحابي راوي الحديث، فيورد ترجمة كل واحد، ويتوسع في ذلك أكثر من اللازم، حتى إنه يتراءى لك الراوي - وكأنك عشت معه، وعرفت أطوار حياته، والبلدان التي تجول فيها، والشيوخ الذين أخذ عنهم أو صحبهم، وما له من مدارك وخصوصيات - حتى الوفاة.

4 - ثم يشرح الكلمات الغريبة في الحديث، وهنا يرجع بك إلى معاجم الحديث، وقواميس اللغة، وأصول العربية - بتوسع مستفيض، وربما يختلف شراح الحديث في ضبط كلمة، أو إعراب جملة، فيكون الحكم فيها - سيبويه في كتابه، وابن جني في خصائصه، والزمخشري في مفصله، ويقول : دع عنك بنيات الطريق !

5 - ثم أخيرا - وليس أخيرا - ما يستنبط من الحديث : من أحكام فقهية، وفوائد علمية، وآداب، وأخلاق، إلى غير ذلك.

وكان الكتاب المسرود - عنده - إرشاد الساري على صحيح البخاري - للإمام القسطلاني، أما الجو الذي يعيشه الطالب مع الحديث، فهو ما يمليه ابن حجر في الفتح من شروح وتوضيحات، وما يورده من روايات، وما يصححه من أسانيد، وما يستخرجه من حكم وفوائد، وحدث عن البحر ولا حرج ! وهنا يسمو الشيخ، ويحلق في أجواء ما كنا لنعرف ما هناك - ونحن حديثو العهد بهذا الفن ! وكانت أحيانا تقع محاكمات بين العيني وابن حجر، فإنهما ربما اختلفا في فهم بعض العبارات، أو شرح إحدى الكلمات، أو ترجيح بعض الروايات، أو تبيين أحد المبهمات، فيقدم الشيخ ملفا ضخما يحتوي على وثائق ومستندات، وهكذا يعلن عن محاكمة الرجلين، ويدلي بحجج الطرفين، ويوضح حجة كل منهما، ثم يصدر حكمه، ويذكر ما فيه من حيثيات، ومستندات، وقد تطول هذه المحاكمة أو تقصر، ولكن الشيخ كان دائما مع الحافظ ابن حجر، ويقول : شتان ما بين الرجلين !

ولا أعرفه وقف - ولو مرة واحدة - إلى جانب العيني، وربما كان على حق في ذلك ؟

مصطلح الحديث :

أما درسه في علوم الحديث، وإن شئت قلت : في مصطلح الحديث، فغالبا ما يكون في غير أوقات الدراسة النظامية كيومي الجمعة والأحد، وفي الساعات الأولى، كالتاسعة، أو العاشرة، أو الحادية عشرة صباحا، وكان الكتاب المقروء - شرح الترمومي على ألفية السيوطي - وكنا نستنسخه، لأنه نادر الوجود، لكن الشيخ لم يكن يقتصر على ذلك، بل يستوعب كل ما كتب في هذا الفن،

21) وكان شرع في هذه الدروس بعد عودته من الحجة الأخيرة في حدود سنة (1357 - 1938) - وحضوري بها كان في حدود (1362 هـ) - ولا أعرفه تأخر عنها - ولو يوما واحدا - الا لعذر قاهر - رحمة الله عليه.

22) منهم ابن رشيد السبتي (ت 721 هـ)، ألف فيه كتابه «ترجمان التراجم» وهو عمدة ابن حجر في الفتح، وغيره من شراح البخاري.

من مثل مقدمة ابن الصلاح، وشروح ألفية العراقي، وطرفة الفاسي، ونخبة الفكر - بشرحها - لابن حجر، وسواها، ويخرج من كل ذلك بزوائد وإضافات، ثم ينظمها على الإثر، فتجمع لديه من ذلك - مؤلف كبير، أسماه (الذيل)، وهو كذيل الطاووس، أناق على الأصل بعدة أبيات، وكان يحفظ كل ذلك عن ظهر قلب، لما يتمتع به من ذاكرة قوية - رغم كبر سنه، والأمراض التي كانت تناب من حين لآخر، ويعاني من داء الفتق الأمرين - حتى يكاد يسقط في محرابه، وهو في كل ذلك صابر محتسب - لله تعالى.

تلاميذه :

تخرج على المترجم أفواج عديدة من تلاميذه، فيهم القضاة والمفتون، والحكام والمدرسون، والقواد والمحتسبون، ولنقصر القول على الطبقة الأولى منهم، أو على الأصح، من ودعوا هذه الحياة.

ومن هؤلاء :

1 - الفقيه النابغة أبو عبد الله محمد الدردبي، وكان آية في فهم النصوص واستنباط الأحكام، وكان عضوا مستشارا بمحاكم الاستئناف بتطوان.

2 - الفقيه العدل أبو عبد الله محمد اللبادي، وكانت له اليد الطولى في علم الوثائق وفقهه، تولى قضاء تطوان مدة، وكان أستاذ مادة ((المسطرة الشرعية)) بالمعهد العالي بتطوان، وهي تجربة رائدة، لو طبقت بالمعاهد العليا للقضاء، لكان لها أثرها الفعال في تبسيط المسطرة القضائية ببلدنا، ولمكانته العلمية، وسلوكه الحميد، انتخب عضوا مستشارا بالمجلس الأعلى بالرباط.

3 - الفقيه المدرس النفاعة أبو عبد الله محمد الفحصي (أقلعي)، وكان صهر المترجم، أولا، تولى قضاء تطوان، والتدريس بالجامع الكبير، ثم عضوا مستشارا بمحكمة الاستئناف.

4 - الفقيه أبو عبد الله الصباغ، تولى خلافة القاضي بتطوان، وكان يلقي بعض الدروس بالجامع الكبير.

5 - الفقيه أبو العباس الواجري، كان خليفة القاضي بتطوان.

6 - الفقيه القاسمي، تولى خلافة القاضي بتطوان ونواحيها، وكان أستاذا بالمعهد الديني.

7 - الفقيه أبو عبد الله محمد الأمين بوخبزة، تولى خلافة القاضي بتطوان، ثم خليفة الباشا.

8 - الفقيه الكحاك - له شرح على الاجرومية عن طريق الاسئلة والأجوبة، وهو مطبوع بين أيدي الناس.

9 - أخو المترجم أبو العباس أحمد محمد القرطاخ، كان كاتبا بالصدارة العظمى، ثم خطيبا بجامع القصبة، له كتابات عن الأسرة القرطاخية.

10 - الفقيه المدرس أبو زيد عبد الرحمان الازمي، تولى خلافة القاضي بتطوان، وكان أستاذا بالمعهد الديني، له تأليف في التوقيت، وآخر في العروض، وسوى ذلك.

11 - الفقيه النوازلي أبو محمد عبد السلام بلقات، كان خليفة القاضي بتطوان، وتولى مشيخة المعهد الديني، ثم أستاذ مادة الفقه بالمعهد العالي، وهو آخرهم موتا - رحمة الله عليهم جميعا.

وهناك فوج ثان من نفس الطبقة، وهم لا زالوا على قيد الحياة - أمد الله في عمرهم، ومتع بهم، وهم ثبت حافل، كان بودي أن اتحدث عنهم باسهاب، لكني تراجعت عن ذلك لعدة أسباب.

وثمة فوج ثالث - وأعني بهم جيلنا - وهم لا يدخلون تحت حصر، فمنهم من جلسوا إليه في دروسه التطوعية، ومنهم من درسوا عليه بالمعهد العالي - بصفة نظامية.

وهكذا قضى مترجمنا جل حياته في خدمة العلم، ما بين تلق من أفواه الرجال، وتطواف على مدارسه ومعاهده، وتدريس لمواده وفنونه، وتأليف في مختلف ميادينه ومجالاته، إلى أن اسلم الروح إلى بارئها بين جدران مكتبه، وحدثني أحد أولاده أنه لما ثقل عليه الأمر، وشعر بقرب أجله، وقف على باب مكتبته، وألقى عليه نظرة - وكأنه يودعها الوداع الأخير، وقال له : تناول أحد أجزاء فتح الباري - وهو الكتاب المفضل عنده، واقرأ علي ما تجده فيه، قال : فوقع في يدي كتاب الرقاق، ففتحته فإذا فيه : باب ذهاب الصالحين. عن مرداس الأسلمي، قال :

قال النبي ﷺ : يذهب الصالحون الأول، فالأول ـ الحديث (23).

فقال : قضى الأمر، ارموا بهذه الادوية، فاتجه إلى القبلة ـ وكان على وضوء ـ فكبر وقرأ فاتحة الكتاب، فلم يكملها حتى لفظ أنفاسه الأخيرة ـ رحمة الله عليه، وكان ذلك على الساعة الثامنة صباحا، 21 ذي الحجة عام تسعة وستين وثلاثمائة وألف، موافق 4 أكتوبر سنة (1950 م).

وكان قد نظم قصيدة يذكر فيها يوم قدومه على مولاه، ويرجو رحمته ورضاه؛ وقد قدم لها بقوله : الحمد لله، كثيرا ما أتفكر في يوم قدومي على ربي، مع كثرة ذنوبي، وعيوبي، وقلة زادي، حتى تضيق بي الأرض بما رحبت، وأكاد أن يغشاني القنوط من رحمة الله ـ تعالى ـ والعياذ بالله ! ثم أتفكر في سعة رحمة مولاي الكريم، وغناه عن كل العنيد، ـ فجرت يوما على لساني ـ هذه الأبيات، وأنا ـ لله عبد ـ آمر أهلي وأولادي، أن يجعلوها في قبري يوم موتي، وقدومي على ربي ـ عز وجل؛ وهي هذه :

يوم القدوم على الكريم
ما مثله ـ والله ـ عيدْ
فيه مجاورة الرحيم
فيه المثوبة والمزيدْ
فيه أنال من الحليم
عفوا ـ ولو كنت ـ مريدْ
إني إذا ما أذكر
قرب اللقا فرحي يزيدْ
لله يوم زارني
فيه بشير لقاء المجيدْ
يوم أرى فيه البشير
ـ لا ريب ـ لي يوم سعيدْ
هنوا الكئيب بقولكم :
بشراك فافرح يا شريدْ
قولوا لعبد قد أسا
إن الغني مولى حميدْ
فالله ذو الفضل العظيم
وعليه يعتمد العبيدْ
والرب جل جلاله
رب رحيم لا يبيدْ
مولاي إني مسرف
والقلب من ذنبي حديدْ
مولاي ذنبي لا يعد
في نزره أخشى الوعيدْ
لكن رجائي فيك قد
أوحى بفوزي يا مجيدْ
فاغفر عظيم جرائمي
فلعبدك الظن الوطيدْ
وارحم عبيدا قد عصى
ـ يالجود والفضل المديدْ
فالفضل بحر زاخر
يكفي الورى يوم المزيدْ
وامتن علي بتوبة
قبل الرحيل إلى الصعيدْ
واختم بإيمان عسى
آتي ـ غدا ـ وأنا سعيدْ
بالمصطفى طه الشفيع
قد لذت فارحم ذا الشريدْ
ولدى السؤال فثبتن
نطقي بفضلك يا مجيدْ
مولاي صل على الحبيب
ما قد رجا عبد شريدْ
وادم عليه تكرما
أزكى سلامك يا حميدْ
والآل سادات الورى
والصحب ـ ما قد لاح عيدْ (24)

---

23) أنظر ج 25/14.

24) أنظر الديوان، ورقة 16 ـ (أ).

وقد شيع بها إلى مقره الأخير ـ في حفل رهيب ! وعندما ووري التراب، وقف على قبره يـؤبنـه ـ رئيس المجلس العلمي، أبو المكارم التهامي الوزاني، وقال : إن عقله الكبير، لم يقبل الكبر؛ لأنه لم يخلق لذلك، وإنما خلق للعلم يلتهمه، وللمعرفة ينشرها، ولسنة رسول الله ـ ﷺ ـ يبثها في صدور الناس؛ وقد بلغت الرسالة، وأديت الأمانة؛ فنم ـ قرير العين، تنعم في جوار الله ورضوانه.

وعندما رآه شيخ الجماعة بتطوان أبو العباس الزواقي ـ على أعواد نعشه، قال : الآن، مات علم الحديث بتطوان !

فرحمك الله ـ يا أبا عبد الله، وجازاك أحسن ما جازى به عباده الصالحين. هذا، وقد خلف المترجم آثارا علمية قيمة، وتراثا ضخما في علم الحديث، سنتحدث عن ذلك في أعداد قادمة بحول الله، وإلى اللقاء.

شيوخ العلم وكتب الدرس في سبتة

●● أصدرت جمعية «البعث الإسلامي» بتطوان سلسلة ثقافية تاريخية جديدة تحت عنوان (المكتبة السبتية)وقد خصص العدد الأول منها لموضوع (شيوخ العلم وكتب الدرس في سبتة) للدكتور الباحث حسن الوراكلي ●●

المكتبة السبتية

شيوخ العلم وكتب الدرس في سبتة

الدكتور حسن الوراكلي

منشورات جمعية البعث الإسلامي ـ تطوان ـ المغرب

في التفسير الحضاري:

﴿ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا﴾

صدق الله العظيم

للأستاذ الحسن السائح

تقديم:

الإشكالية هي في طرح السؤال.. فالسؤال هو المنطلق الأساسي للمعرفة، وهو الذي يحدد الجواب ويعطيه القوة والبيان... وكم من سؤال أضاع الوقت في النقاش الفارغ، أو لم يكن له جواب مناسب مفيد، ولقد كان سقراط فيلسوفا عظيما أمام فلسفته على السؤال والجواب، والسخرية من الجواب غير الموفق للسؤال أو للموضوع.

وموضوع الآية عن (التطور في الإسلام) فهذا السؤال الكبير عن موضوع كبير يستلزم تحديد الجواب أمام سؤال واضح عن حقيقة التطور في الإسلام. ولن يتضح الجواب ليكون منطلقا للعمل والاستفادة إلا إذا حددت طريقة الجواب لمعرفة الجواب الحق..!

وقد ضبط المنهج الإسلامي أسلوب السؤال ليكون واضحا في الجواب للعمل به وتبيان تطوره عبر الحاضر والمستقبل.

والإسلام في أسئلته لا ينطلق من فرضية أو من عشوائية ولكنه ينطلق من قانون الفطرة السليمة أي من نقطة البداية المنسجمة والموافقة لفكر الإنسان ووجدانه وعلاقاته .. فتأتي المعادلات المعاملات ثابتة واضحة لأنها انطلقت من حقائق متفق عليها لا من حقيقة الفرد الواحد، لأن هناك فطرة مشتركة يجب مراعاتها في النوازل وهذه الحقيقة المشتركة توجد في الفطرة أي الحقيقة الإنسانية الأولى التي يملك كل واحد حظا منها متفق مصداقيتها تبعا لذلك ثم يأتي الجواب فيوضح القواعد الأساسية لبناء الجماعات البشرية وتكون القواعد معادلات وليست طقوسا وأوامر بل مبادئ وقيم .

ولهذا فكل ما جاء به الإسلام من أجوبة هي في الحقيقة تعابير عن مصالح (الجماعات) ومصالح (الأفراد)، والمعادلة بين المصلحتين معا.

... وفي هذه الآية الكريمة إثارة انتباه أن يسائل الإنسان نفسه لماذا لا يرجو من الله وقارا .. ويجد الجواب في أن الخالق خلق الإنسان أطوارا.. فالتأمل في هذه الحقيقة تلبية لما تعتلج به نفس الإنسان من هواجس...

فكيف تحلل هذه الحقيقة لنفهم جزءا منها أو نحاول فهمه...

إن التغيير والتطور والتجديد والإصلاح والتقدم والصيرورة والطفرة كلمات في مقابل الأصالة والمحافظة

والاستقرارية وبجانبها كلمات أخرى مثل الجمود والاستلاب والضلال والانحراف والتقليد ولكننا لن نهتم إلا بكلمتين التطور والتغيير.

وكلمة **أطوار** في الآية القرآنية هي جمع طور لتؤكد على المقابلة بين الكمال في الخالق والنقص في المخلوق الذي يتطور من حال إلى حال... ويكون معنى الآية مالكم لاترجون **وتأملون...** استقرارا عقائديا حتى لا تبقوا معرضين للتغيير لعدم استقراركم على رأي مع أن الخالق خلقكم أطوارا لتنتقلوا من حالة إلى حالة أحسن منها... فالتطور استقرار في التقدم، أما الغيرية فهي اتباع الغير أي التقليد. فالله لا يغير حالة قوم أحسوا بما أصابهم من الخروج عن خط التطور، وهذا الخط المستقيم حتي يغيروا ذاتهم ليعودوا إلى خط التطور الطبيعي.

فالتغيير الذاتي ينعكس على المجتمع المكون من أفراد وهو ذاتي أساسه الإيمان والتفكير. فالإيمان استقرار، والتفكير حركة يحمل على مخاطبة الذات ومحاسبتها باعتبار اللغة جوهر التفكير والتغيير، ووسيلة لإصلاح الذات، وإصلاح المجتمع في علاقاته العضوية بأفراده جميعهم لأن الفرد عضو في الجماعة عضوية بنيوية يؤثر ويتأثر بالبنيات الفكرية والأنظمة المفهومية، والأنماط السلوكية لتجعل منه فكرا موحدا على أساس إيمان عميق وبواسطة لغة واحدة.

وإذا فهناك فرق شاسع بين التغيير والتطور فكل تطور يستبطن تغييرا، وليس كل تغيير يكون تطورا... فالتطور والتغير يخضعان معا لحركة التضاد والتناقض لتظهر معرفة صالحة.

وللمعرفة قانون يعتمد على معادلات ثابتة... لأن كل معرفة هي (وحدة معلومات) في سياق متسلسل وكل وحدة معادلة رياضية مرتبطة بباقي المعادلات ارتباط السبب بالمسبب ، والعلة بالمعلول، وعند اختلال أي شرط في المعادلة أو عند وضعها في غير مكانها الطبيعي تصبح فاسدة لا تعطي نتائجها... وأغلاط الإنسان تنشأ عن عدم ضبط المعادلات مما يؤدي إلى فساد النتائج، أو استحالتها، لأنها لم تبن على السلم الطبيعي في قانون الوصول إلى المعرفة.

فكل الحقائق الرياضية والأخلاقية والاجتماعية هي نتيجة معارف مرتكزة على معلومات مضبوطة بمعادلات متسلسلة، ويظهر ذكاء الإنسان في مدى استفادته من المعادلات، وإبرازها وكشفها واختراعها إن أقتضى الحال.

ولأجل أن يفكر الإنسان حتى يعمل توجد حوافز في طبيعة التكوين الإنساني تدفعه للعمل. وكلها مبنية على قانون التناقض والتضاد. سواء في ذات الفرد أو في ذات الجماعة أو في ذات الأمة... ففي ذات الإنسان صراع بين الصراط المستقيم والصراط المعوج، بين صوت الحق، وصوت الباطل، ويترتب عن رجحان الصراط المستقيم الثواب والأجر، وعن الصراط المعوج العقاب والخسران... وقد يكون الجزاء والثواب في درجات عند الله وقد يكون في رضى المجتمع. ومن رضي عنه خالقه رضي عنه مجتمعه، ومن أحب الله أودع الله في قلوب البشر محبته، وقد يكون العقاب بأن يكفر المسلم عن سيئاته بزجر نفسه. وقد يكون بعقاب الحد والقصاص والتعزير، وقانون التضاد هو حركة لخلق التناقض وترجيح الحق على الباطل، واختيار العدل دون الظلم. وفي مقابلة الحياة الدنيا كلها حياة الآخرة كلها، فمخالفة أوامر الله للانتصار على الشهوة والهوى في الصراع الذاتي قد تستوجب عقابا دنيويا، وقد تستوجبه دنيويا وأخرويا..

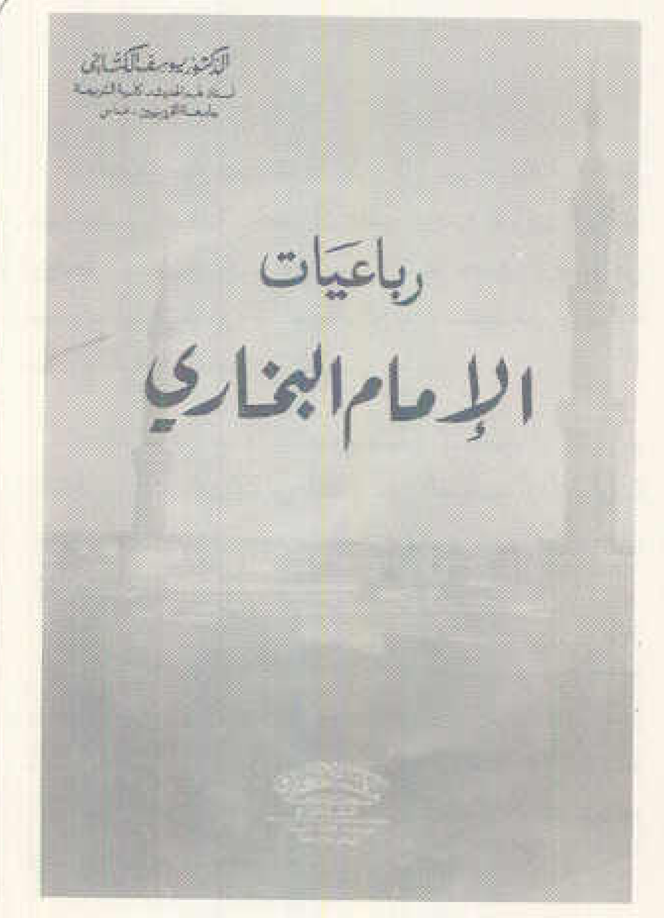
إن التطور يتحقق في مقابلة بين شيئين واختيار الأنسب والأحسن، مقابلة تلقائية في غالب الأحيان وقد تكون بتدخل الإنسان وعلمه وإرادته لتحقيق حالة أحسن... وهذه المقابلة هي قانون التطور وكما جاء في القرآن الكريم : ﴿**ولكل جعلنا شرعة ومنهاجا**﴾ أي قانونا ونهجا وطريقة...

فللتطور أسباب، وللتأخر أسباب كذلك، والمعادلة هي ربط سبب بمسبب، وعلة بمعلول ليتحقق التطور، وعناية الله بخلقه هي مدده المتصل بهم ليحقق آمالهم ويساعدهم على التطور في الطريق المستقيم. وهو الخالق الذي بيده

كل شيء، وقانون التضاد، والتناقض يولد صراعا مستمرا ليتولد عنه شيء جديد. والعالم يعيش هذا الصراع الذائب مادة وفكرة، في الحياة معادلة في استطاعة الإنسان أن يحققها لأنها تدخل في اختياراته وحريته، وهناك معادلات خارجة عن إرادته..

ويقرر الإسلام أن الحياة صراع دائم (فلولا دفاع الله الناس بعضهم لبعض لفسدت الأرض) وهو مناقض للكمال الإلهي،(فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وهذا الدفاع بين الناس هو صراع وحركة لتقع الصيرورة والتغير والجديد...

وهذا هو التطور، أما التغيير فهو حركة فقط غير واعية..



رباعيات الإمام البخاري

●● بعد كتابه (مدرسة الإمام البخاري في المغرب)، صدر للدكتور يوسف الكتاني كتاب جديد بعنوان (رباعيات الإمام البخاري) عن مكتبة المعارف بالرباط ●●

ناظر الوقف

(1)

للأستاذ محمد بنعبد الله

الولاية حق مقرر شرعا على كل عين موقوفة، يقتضي ممن يثبت له ذلك الحق أن يقوم بإدارة شؤون الوقف، وحفظ أعيانه، واستغلال مستغلاته، وصرف ريعه في مصارفه، وتنفيذ شروط الواقف الواجب تنفيذها، ورعاية مصالح الوقف والموقوف عليهم...

والمتولي لهذا المنصب يسمى الناظر، أو القيم، أو المتولي.. فكل من يتولى النظر على المسجد أو المدرسة يسمى «الناظر» أو «متولي النظر» وهو لقب إداري بحت كما سنرى..

أما الخانقاه ـ دار الصوفية ـ فكان رئيسها يلقب بشيخ الشيوخ، وكانت هذه التسمية في أول أمرها لقبا على شيخ خانقاه (1)، وربما كان أقرب الوظائف الإدارية الجامعية عند المسلمين شبها بوظيفة «العميد» الحديثة، وظيفة «شيخ دار الحديث» (2).

وما دام الواقف حيا، فهو وحده الذي له الولاية عليه، فله أن يتولى بنفسه إدارة شؤون وقفه، على ما ذهب إليه الإمام الغزالي من الشافعية، وأبو يوسف وهلال والناطفي من الحنفية، وكذلك علماء الفقه الزيدي، لأن سكوت الواقف عن اشتراط الولاية لغيره دليل على تمسكه بها، والقاعدة الفقهية الشهيرة تقول : «السكوت في معرض الحاجة بيان»، وله أن يولي ناظرا على وقفه بالنيابة عنه.. ويكون هذا الناظر وكيلا عن الوقف، وللواقف أن يتصرف بنفسه في شؤون وقفه مع وجود هذا الوكيل، لأن التوكيل لا يسلب حق التصرف فيما وكل فيه..

وكثيرا ما كان يتدخل الواقفون في تنظيمات وقوفهم، كما إذا وقفوا مدرسة أو معهدا، فإنهم يشرفون على تنظيمها، وسيرها الداخلي، وطريقة سير الدراسة بها، ويشترطون لذلك الشروط في كتب الوقف، فيحددون، للشافعية مثلا، مكانا لا يتعدونه إلى سواه، ولغيرهم من المذاهب الأخرى أماكنهم الخاصة بهم (3).

وجدير بالذكر أن كتاب الوقف الذي كان يكتبه الواقف في تلك العصور كان بمثابة اللوائح التي تنظم

1) «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» لشيخ المؤرخين المصريين تقي الدين بن أحمد بن علي المقريزي : الخطط. ج : 4 / 273 ـ 274، «حسن المحاضرة»، لجلال الدين السيوطي ج : 2 / 187.

2) تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى لمحمد عبد الرحيم غنيمة ص : 256.

3) كتاب السلوك ج : 1 / قسم 3 ص : 1041 نقلا عن نهاية الأرب للنويري.

الجامعات اليوم، وتحتوي على القوانين الإنسانية التي تنظم سير الدراسة بها...

وتـدبير الـوقف راجـع إلى الشرع حكمـا، ولكن التصرف الفعلي في يـد مـديرين خصـوصيين هم نظـار الوقف..

فـالنـاظر على الوقف يتـولى إدارة الـوقف وعمـارتـه، وإجارتـه وتنميـة مـوارده، وتحصيـل غلتـه، وصرفهـا إلى المستحقين... والـدفـاع عن الوقف، وغير ذلـك من الأعمال التي لا تقع تحت حصر ولا عد، ولا يقيده فيها إلا الغبطة والمصلحة..

وإن وظيفـة النـاظر في الأحباس من أجل الوظـائف الدينية ذات البـال التي ينبغي الاهتمام بشأنها، والتنويـه بقدرها، والإشادة بمقامها ومركزها.

ولقـد نص الفقهـاء المـالكيون على أن المتـولي للنظر في الـوقف هـو من جعلـه الـواقف بيـده على الكيفيـة المنصوص عليها في لفظ الواقف، وبأنه إن اغفل ذلك، رجع الأمر إلى القـاضي، فيقـدم لـذلـك نـاظرا في شأن المحبس عليهم، لا فرق في ذلك بين الأحباس العامـة أو الخـاصـة، المعقبة، أو غير المعقبة، ولا بين الأحباس التي ترجع ملكا بعد انقراض المحبس عليهم، أو التي ترجع إلى أقرب النـاس إلى المحبس أو إلى الأحباس العامة..

فـالوقف لابـد لـه من نـاظر يـدير شـؤونـه، ويستثمر رباعه، ويـدبر أموره ويرعـاه، لأن الولايـة على الوقف حق مقرر شرعا على كل عين موقوفة، إذ لا بـد للمـوقـوف من نـاظر يتحرى في تصرفـاتـه النظر للـوقف والغبطـة، ولأن الـولايـة مقيـدة بـه، كمـا يحفـظ أعيـانـه وذلـك بعمـارتهـا وصيانتهـا، وصرف الغلـة إلى المستحقين على مقتضى كتـاب الوقف، والدفاع عنه، والمطـالبـة بحقوقـه، كل ذلـك حسب شروط الواقف المعتبرة شرعا..

ولا تكون الولاية إلا بولايـة صالحة تحفـظ الأعيـان بأمانة، وتوصل الحقوق إلى أصحابها بلا خيـانـة، فلا يولى الخائن، ولا العاجز، ولا المتهاون.. بل يولى القوي الأمين..

«وليس النـــاظر إلا الحـــارس الأمين على الشيء المحبس، فـإذا كـانت الشريعة تطـالبـه بصيـانـة متمولاتـه الخاصة، فإنها بالأحرى تطالبـه بصيانـة متمولات المحبسين الذين جعلـوها وقفـا على مصلحة العبْاد من طلبـة العلم والقـائمين بشعـائر الـدين والمعـوزين، والفقراء وعـابري السبيل» (3 مكرر).

وعلى ناظر الوقف أن يعمل كل ما فيه فـائـدة للوقف ومنفعـة المـوقـوف عليهم، مراعيـا في ذلـك شروط الـواقف المعتبرة شرعا..

ومن الواجب على ناظر الوقف، أيضا، القيـام بعمـارة العين المـوقـوفـة، لأن إهمـال عمـارة الـوقف قـد يـؤدي إلى خرابـه وهلاكـه، وفوات الانتفـاع بـه، كمـا أن النـاظر ملزم بتنفيـذ كـل شرط صحيح، شرطـه الـواقف كـالتسـويـة بين المستحقين، أو فيما يبـدأ بـه أولا عنـد قسمتـه الغلـة، أو في المصـارف التي ينفق عليـه، أو طريقـة استغلال المـوقـوف، كمـا ان على نـاظر الوقف أن يبـذل كل مـا في وسعـه من جهد وطـاقـة للحفـاظ على أعيـان الوقف، وحقوق الموقوف عليهم، سواء كان ذلك بنفسه، أو بمحـامين ينوبون عنـه في ذلـك.. ثم على نـاظر الـوقف أداء حقـوق المستحقين في الـوقف من المـوقـوف عليهم، وعدم تـأخيرهـا مطلقـا إلا لضرورة تقتضي تـأخير إعطـائهم لحقـوقهم، كحـاجـة الـوقف إلى العمـارة والترميم والإصـلاح، أو بـوفـاء بـدين على الـوقف... وجمعـا بين تنفيـذ شرط الـواقف، والغرض من الوقف، فـإن للنـاظر الحق في تغيير معـالم الـوقف بمـا هـو أصح له وللمستحقين، وذلك إذا جعل له الواقف هـذا، كـأن يكون دارا، فيخوله الواقف تحويلها إلى عمـارة للسكنى أو تحويلها إلى محلات تجاريـة، وأسواق، أو أن يغير بـاعيـان كما يشاء..

ولا بـد من أن يتحرى النـاظر في التغيير مصلحـة الـوقف، والمـوقـوف عليهم.. وقـد تكلم الفقهـاء عن نشـاط النـاظر وتحركـه في مجـالـه، واكتفوا بـذكر قـاعـدة عـامـة ينضـوي تحت لـوائهـا كـل مـا يمكن حصره، ومـا لايمكن

3 مكرر) من خطاب المغفور له محمد الخامس بمناسبة تسليم الظهائر إلى النظار الجدد يوم 29 / 3 /1956.

حصره من التصرفات، كقول صاحب «الاسعاف في احكام الأوقاف» برهان الدين بن موسى بن علي الطرابلسي الحنفي (ت 922 هـ) عند كلامه عما يجوز لناظر الوقف من التصرفات، وما لا يجوز ما نصه : «ويتحرى في تصرفاته النظر للوقف والغبطة، لأن الولاية مقيدة به».

أول من نظر في الإسلام :

ذكر ابن تيمية في فتاويه أن لولي الأمر أن ينصب ديوانا مستوفيا لحساب الأموال الموقوفة عند المصلحة، كما أن له أن ينصب الدواوين مستوفيا لحساب الأموال السلطانية، كالفيء وغيره..

وفي الصحيح : «أن النبي صلى الله عليه وسلم استعمل رجلا على الصدقة، فلما رجع، حاسبه».

وهذا أصل في محاسبة العمال المتفرقين. والمستوفى (4) الجامع نائب الإمام في محاسبتهم، ولابد عند كثرة الأموال ومحاسبتهم من ديوان جامع.. ولهذا لما كثرت الأموال على عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وضع «الدواوين» ديوان الخراج، وديوان النفقات.. وكذلك الأموال الموقوفة على ولاة الأمور من الإمام والحاكم ونحوه إجراؤها على الشروط الصحيحة الموافقة لكتاب الله، وإقامة العمال على ما ليس عليه عامل من جهة الناظر، والعامل في عرف الشرع يدخل فيه ما يسمى ناظرا، ويدخل فيه غير الناظر لقبض المال ممن هو عليه صرفه ودفعه إلى من هو له، لقوله تعالى : **﴿إن الله يامركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾** (5).

والمجيزون للحبس اختلفوا فيما للمحبس من التصرف: فقال الشافعي : «ويحرم على الموقف ملكه، كما يحرم عليه ملك رقبة العبد؛ إلا أنه جائز له أن يتولى صدقته، وتكون بيده ليفرقها ويسبلها فيما أخرجها فيه، لأن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه لم يزل يلي صدقته ـ فيما بلغنا ـ حتى قبضه الله عز وجل.. قال : وكذلك علي وفاطمة رضي الله عنهما كانا يليان صدقاتهما؛ وبه قال أبو يوسف.

وقال مالك : من حبّس أرضا أو نخلا أو دارا على المساكين حتى مات والحبس في يده، انه ليس بحبس ما لم يجزه غيره، وهو ميراث؛ والربع عنده والحوائط والأرض لا ينفذ حبسها؛ ولا يتم حوزها، حتى يتولاه غير من حبسه، بخلاف الخيل والسلاح. هذا محصل مذهبه عند جماعة أصحابه، وبه قال ابن أبي ليلى (6).

وأول من نظر في الأوقاف سيدنا عمر بن الخطاب.. ومولاتنا حفصة أم المؤمنين، حيث عين النظر إليها سيدنا عمر عند وصيته...

فعمر رضي الله عنه، قدم عنه على النظر في جميع ما أوقفه في خلافته حفصة بنته، أم المؤمنين رضي الله عنها، وكتب لها بذلك، ونص الكتاب ذكره أبو داود في سننه (7) : « بسم الله الرحمن الرحيم؛ هذا ما أوصى به عبد الله عمر أمير المؤمنين : إن حدث به حدث الموت، ان ثمغا (8)، وصرمة بن الأكوع (9)، والعبد الذي فيه، والمائة سهم الذي بخيبر، ورفيقه الذي فيه، والمائة التي أطعمه محمد عليه السلام بالوادي، تليه حفصة ما عاشت، ثم توليه ذا الرأي من أهلها، أن لا يباع، ولا يشترى ينفقه حيث يرى من السائل والمحروم، وذي القربى، ولا حرج (10) عليه ان أكل أو آكل، واشترى رقيقا منه (11)».

وقد عقد الإمام البخاري في صحيحه : باب « الوقف كيف يكتب » ؟.. وفي هذا الباب ساق البخاري حديث محمد عن عمر بن شبة عن ابن غسان المدني، قال : « هذه نسخة صدقة عمر أخذتها من كتابه الذي عند آل عمر، فنسختها حرفا حرفا، هذا ما كتبه عبد الله أمير المؤمنين في ثمغ، أنه إلى حفصة ما عاشت تنفق من ثمره حيث أراها الله، فإن توفيت، فإلى ذوي الرأي من أهلها..».

4) انظر التراتيب الإدارية، ص : 410 / ج : 1.

5) مجموع فتاوي ابن تيمية ص : 85 ـ 86 / ج : 31.

6) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ص 340 / 6.

7) مختصر سنن أبي داود للحافظ المنذري، ج : 4 / 156.

8) « ثمغ » بفتح الثاء، وسكون الميم والغين المعجمة، وحكى النووي فتح الميم، قال أبو عبيد البكري : هي أرض تلقاء المدينة كانت لعمر، وفي «مراصد الاطلاع» ثمغبالفتح ثم السكون والغين معجمة : موضع مال لعمر بن الخطاب وقفه... وقيده بعض المغاربة بالتحريك. (عمدة الأخبار : ص : 248.)

9) في النهاية : ثمغ، وصرمة بن الأكوع : مالان معروفان بالمدينة كانا لعمر بن الخطاب فوقفها.. وقيل المراد في حديث عمر بالصرمة : القطعة الخفيفة منالنخل والإبل.

10) في مختصر سنن أبي داوود 4 / 156، ولا جناح على من وليه.

11) « تخريج الدلالات السمعية » للخزاعي التلمساني ص : 573. ط. القاهرة 1400 ـ 1980 تحقيق الأستاذ الشيخ أحمد محمد أبو سلامة من علماء الأزهر.

قال ابن حجر مبينا الفوائد التشريعية التي تستفاد من حديث عمر هذا في جواز إسناد الوصية والنظر على الوقف للمرأة، وتقديمها على من هو من أقرانها من الرجال... وفيه إسناد النظر إلى من لم يسم إذا وصف بصفة معينة تميزه، يعني قول عمر : في النظر إلى ذوي الرأي من آل عمر.

وفي نص الحبس المذكور، وهو من هو إيصاء عمر بالنظر في حبسه إلى امرأة، وهي بنته حفصة.

وفي الصحيح أن عمر دفع إلى العباس وعلي صدقته عليه السلام بالمدينة، وهي حوائط مخيرق، ونخل بني النضير، وما أعطاه له الأنصار،... وأما «خيبر» و «فدك» فبقيت بيد عمر، كما في حديث عائشة في الصحيح أيضا. ولم يدفعها لغيره، وهي بيد عثمان إلى أن اقطعها لمروان، فبقيت بيد ولده.. قال القرطبي : دفعها إليهما على أن لا ينفرد أحدهما بالآخر بعمل حتى يكون الآخر معه فيه، فشق عليهما ذلك. وطلبا سهمهما بينهما حتى يستقل كل واحد بالنظر فيما يكون في يده... فأبى عمر عليهما ذلك، وخاف إن فعل ذلك أن يظن ظان أن ذلك قسمة ميراث بينهما، وهو موافق لنسبة القسمة بينهما. فمنعهما حسما للمادة.

قال عياض في الاكمال : خرج أبو بكر البرقاني في صحيحه قصة نزاعهما، ثم قال : فغلب علي عليها العباس، فكانت بيد الحسن، ثم بيد الحسين، ثم بيد علي بن الحسين، ثم بيد الحسن بن الحسن، ثم بيد زيد بن الحسن، ثم بيد عبد الله بن الحسن، ثم تولاها بنو العباس (12).
وتعقيبا على هذا الحديث، قال الشيخ الكتاني : قد أذكرتني وصية عمر رضي الله عنه، وجعله النظر في وقفه إلى الأقرب فالأقرب من أهله وصية عالم الدنيا الإمام أبي عبد الله بن مرزوق التلمساني شارح البردة، فقد رأيت بخط الحافظ أبي العباس أحمد الونشريسي ناقلا بعض فصول وصية ابن مرزوق المذكور في تحبيس كتبه على أولاده، ونص ذلك : أن جميع ما احتوت عليه غرفتي التي لم أفارقها إلا منذ ثلاثة أيام، وما احتوى عليه مسكني الآن من دواوين الكتب والمفردات والكراريس وسائر التآليف، وما هو معار عند الناس حسبما ذلك مقيد في أزمتي محبس على من يتعاطى العلم، وعرف بالاشتغال به من ذريتي من أي جهة كانوا، فينتفعون بمطالعة ما يحتاجون إليه منها.. إلا أن أولادي الذكور، وأولادهم أولى بالتقديم عند ازدحام حاجتهم إلى ما يطالع منها، كما إن الأولى فالأولى، فالأعلى من أولادي الذكور أولى عند ذلك أيضا، وان متولي النظر في كتبي المذكورة، الأقرب فالأقرب والأعلم الأدين، فإن لم يجتمع الوصفان، فالأدين ، ثم الأعلم ثم الأقرب مع أمانتها عليها، فإن لم يؤمنا، فالأمين كيف كان... قال الكتاني : ومن خط الونشريسي نقلت واستفدت (13).

وقد علم أن النبي عليه السلام استعمل بلالا على نفقاته.. قال في شرح المواهب نقلا عن الشافية : كان، يعني بلالا، يلي أمر النفقة على العيال، ومعه حاصل ما يكون من المال..

وقال أبو رافع : واختلف في اسمه على أحد عشر قولا، المشهور منها أسلم، على ثقله ﷺ، أي أمتعته..

وقد ذكر القلقشندي (14) : إن أصل هذه الوظيفة أن الليث ابن سعد رحمه الله اشترى أراضي من بيت المال في نواح من البلدان، وحبسها على وجوه البر، وهي المسماة بـ «ديوان الأحباس» بوجوه العين، ثم أضيف إلى ذلك الرباع والدور المعروفة بالفسطاط وغيره، ثم أضيف إليها رزق الخطابات، ثم كثرت الرزق من الأرضين في الدولة الظاهرية بيبرس بواسطة بهاء الدين بن حنا، وأخذت في الزيادة إلى زماننا..

ولقد أدى اتساع الموقوفات، وإقبال الناس على الوقف في صدر الإسلام إلى قيام الحاجة الملحة إلى إنشاء تشكيلات تتولى إدارتها، والإشراف عليها..

وكانت الأوقاف في بداية الأمر تدار من قبل الواقفين، أو ممن ينصبونه لإدارتها والنظر عليها، دون أي

12) التراتيب الإدارية ص 402 / 1.
13) المصدر السابق، ص : 407 / ج : 1.
14) صبح الأعشى : ج : 4 / 38.

إشراف أو تدخل من الدولة.. إلا أن كثرة الوقوف، وتطور الحياة، واستبحار العمران في البيئات العربية، والمجتمعات الإسلامية استدعى قيام أجهزة معينة للإشراف عليه.. وقد كان القضاة من حواضر العالم الإسلامي يتولون الإشراف عليها بأنفسهم، ويحاسبون المتولين عليها، فإذا رأوا منهم أي إخلال أو تقصير أو تهاون في حفظ أعيان الوقف وصيانتها قاموا بتأديبهم، وزجرهم (15).

ففي العهد الأموي، ولي قضاء مصر توبة بن نمر ابن حومل الحضرمي في زمن هشام بن عبد الملك (ت 120 هـ) فقال : « ما أرى موضع هذه الصدقات إلا الفقراء والمساكين.. فأرى أن اضع يدي عليها حفظا لها من الثواء والتوارث».. ولم يمت توبة حتى صار للأحباس ديوان مستقل عن بقية الدواوين تحت إشراف القاضي، ذلك أنه أمر لأول مرة بتسجيل الأحباس في سجل خاص لكي يحمي مصالح المستحقين (16)، فلم يمت حتى صارت الأحباس ديوانا عظيما (17).

ويعتبر هذا الديوان أول تنظيم للأوقاف ليس في مصر فحسب، بل في كافة الدول الإسلامية، وفي عهد توبة نفسه أنشئ ديوان للأوقاف في البصرة (18).

وهكذا أصبحت الأوقاف منذ ذلك الوقت تابعة للقضاء، وصار من المتعارف عليه أن يتولى القضاة النظر على الأوقاف بحفظ أصولها، وقبض ريعها، وصرفه في أوجه صرفه، فإن كان عليها مستحق للنظر فيها حسب شروط الواقف راعاه القاضي، وإن لم يكن هناك من ينظر فيها تولى القاضي النظر فيها.. (19).

وفي عهد الدولة العباسية كان لإدارة الوقف رئيس يسمى « صدر الوقوف » أنيط به الإشراف على إدارتها، وتعيين الأعوان لمساعدته على النظر عليها (20).

ويرجع الفضل في إنشاء ديوان مفرد للأحباس إلى الفاطميين في مصر، يشرف عليه قاضي القضاة، ويتولى أمر الأحباس من الرباع، وإليه أمر الجوامع والمشاهد، كما عنوا بتنظيمها، وطولب أصحابها بشرائط الوقف، حتى يسير العمل بمقتضاها (21)، وجرت العادة في الدولة الفاطمية أن يطوف القضاة في مدينة القاهرة في جولة تفتيشية عامة للنظر في الإصلاحات اللازمة للمساجد والمشاهد ومعرفة ما تشعث منها، وما زال الأمر على ذلك إلى أن زالت الدولة الفاطمية (22).

وكانت المساجد تحت إشراف القاضي. وكانت عادته في القاهرة على عهد الفاطميين، إذا بقي لشهر رمضان ثلاثة أيام، طاف يوما على المساجد، لينظر حصرها، وقناديلها وعمارتها وما تشعب منها (23).

وكانت ثغور مصر المسماة بالمواحيز يعمرها أهل الديوان والمطوعة، وكانت أحباس السبيل التي يتولاها القضاة تجمع في كل سنة، فإذا كان شهر « أبيب » بعث القاضي ما اجتمع من أموال السبيل، ففرقت على مواحيز مصر من العريش إلى لوبية، وأعطيت للمطوعة، ومن كان فقيرا من أهل الديوان (24).

وقد قويت الصلة بين المدرسة ووظيفة القضاء بحكم تفرغ الأولى لدراسة التشريع والفقه، وقيام الثانية على تنفيذ الشريعة والحكم بين الناس بقانونها، ومن هنا ظهر

---

15) أنظر : « حسن المحاضرة» للسيوطي : ص : 167 / 2، و « أحكام الوقف في الشريعة الإسلامية » للدكتور محمد عبيد عبد الله الكبيسي ص : 38 / 1.

16) أحكام الوقف في الشريعة الإسلامية ص : 38 / 1. لما تولى توبة بن نمير القضاء دعا امرأته عفيرة فقال : « يا أم محمد، أي صاحب كنت لك ؟ قالت : خيرصاحب وأكرمه. قال : فاسمعي لا تعرضي لي في شيء من القضاء ولا تذكريني بخصم، ولا تسأليني عن مكرمة، فإن فعلت شيئا من هذا، فأنت طالق !!
فإما أن تقيمي مكرمة وإما أن تذهبي ذميمة، فكانت ترى دواته قد احتاجت إلى الماء، فلا تامر بها أن تمد.. خوفا من أن يدخل عليه في يمينه شيء.

17) ملحق القضاة » للكندي ص 342 / الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم ميتز ص : 411 / 1.

18) تاريخ الأوقاف في مصر، في عهد سلاطين المماليك، د. محمد محمد أمين علي، ص : 49 / 1.

19) « الولاة والقضاة » للكندي، ص : 444 و 516.

20) أحكام الوقف في الشريعة الإسلامية، للكبيسي ص : 39 / 1.

21) الخطط، للمقريزي، ص : 83 ـ 84 / 4.

22) المصدر السابق ص 84 / 4.

23) الخطط للمقريزي ص : 295 / 2.

24) « القضاة والولاة » للكندي، ط. جست Guest ص : 413 ـ 415.

نظام الجمع بين وظائف النظر على أوقاف المدرسة والتدريس بها، وولاية القضاء، وأصبح ذلك تقليدا متبعا في الدولة الأيوبية، وطيلة الدولتين المملوكتين فيما بعد.. فكان القاضي يتولى التدريس، والنظر على أوقاف المدرسة في وقت واحد إلى جانب قيامه بالقضاء (25)..

☆ ☆ ☆

وقد كانت الأوقاف أهم موارد التعليم عند المسلمين، وكان المشرف على وقف المسجد هو المدير الفعلي له، ومن ثم نشأ نوع جديد من المديرين للجامعات منذ مطالع القرن الثالث الهجري على وجه التقريب، أولئك هم نظار الأوقاف، والمشرفون عليها...

وقد أسس أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي الفقيه الشافعي (ت 323 هـ 935 م) دارا للعلم في بلده، وجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم، وقفا على كل طالب العلم، لا يمنع أحدا من دخولها، وإذا جاءها غريب يطلب الأدب، وكان معسرا أعطاه ورقا وورقا، وكان ابن حمدان يجلس فيها، ويجتمع إليه الناس، بالإضافة إلى تسييرها، فيجلي عليهم من شعره وشعر غيره، ثم يملي حكايات مستطابة، وطرفا من الفقه، وما يتعلق به (26).

وقد عمل القاضي ابن حبان (ت 354 هـ 965 م) في مدينة نيسابور دارا للعلم، وخزانة كتب، ومساكن للغرباء الذين يطلبون العلم، وأجرى لهم الأرزاق، ولم تكن الكتب تعار خارج الخزانة (27).

وقد أنشأ أبو علي بن سوار الكاتب أحد رجال حاشية عضد الدولة (ت 372 هـ 982 م) دار كتب في مدينة «رام هرمز» على شاطئ بحر فارس، كما بنى دارا أخرى بالبصرة، وجعل فيها أجراء على من قصدهما، ولزم القراءة والنسخ فيهما، وكان في الأولى منهما شيخ يدرس علم الكلام على مذهب المعتزلة (28).

وقد وقف الشريف الرضي (ت 406 هـ 1015 م) نقيب العلويين والشاعر المشهور دارا سماها دار العلم، وفتحها لطلبة العلم، وعين لهم جميع ما يحتاجون إليه (29)..

وكان الوزير ابن كلس يحب أهل العلم والأدب ويقربهم ويدنيهم، وكان يجري بأمر العزيز بالله ألف دينار في كل شهر على جماعة من أهل العلم والوراقين والمجلدين كما ذكر ذلك معاصره وشريكه في الوطن يحي ابن سعيد (30)...

وفي مراكش كان القضاة باعتبارهم عمالا دينيين يأخذون أرزاقهم من الحبوس والأوقاف الخيرية، (31)...

لقد كان الإشراف على الأوقاف حتى نهاية القرن الثالث، تقريبا من اختصاص القاضي..

ويذكر الدكتور حسن ابراهيم حسن، أن لهيعة بن عيسى الذي تولى القضاء، بمصر قبل عام 204 هـ كان أول من نظم الأوقاف بها، وجمع أموالها، وخصص منها نصيبا لأهل مصر (32)، كما اعتبر فقهاء المالكية شؤون الأوقاف من اختصاص القاضي... وفي ذلك يقول القاضي الشيخ أبو الحسن النباهي المالقي الأندلسي، متحدثا عن واجبات القاضي : « الرابع : النظر في الأحباس والوقوف والتفقد لأحوالها وأحوال الناظر فيها (33)..

ويحكى أن بيت مال أهل « برذعة » ببلاد القوقاز كان بالمسجد الجامع..

ويلاحظ أنه على رسم الشام، ويصف الاصطخري بأنه مرصص السطح، وعليه باب حديد، وهو على تسعة أساطين (34).

---

25) تاريخ الجماعات الإسلامية الكبرى ص : 204.
26) « إرشاد الألباء، إلى معرفة الأدباء » للشيخ ياقوت بن عبد الله الحموي البغدادي (ت 626، في مجلدات. ص : 420 / 2.
27) « الحضارة الإسلامية » لآدم ميتز ص : 329 / 1.
28) المقدسي : ص 413، وكتاب الفهرست : ص : 139.
29) ديوان الرضي، ص : 2 ـ 3 ـ الحضارة الإسلامية، ص : 330 / 1.
30) ص : 108.
31) أنظر : Revue du Monde Musulman XIII. S. 517
32) النظم الإسلامية، ص : 343 ـ 344.
33) « تاريخ قضاة الأندلس » للنباهي ص : 5.
34) الاصطخري، ص : 184.

وكـان بيت المـال في كـل من الشـام ومصر يقـوم بـالمسجد الجـامع، وهـو شبـه قبـة مرتفعـة محمـولـة على أساطين، ولبيت المـال بـاب حـديـد وأقفـال، والصعود إليـه على قنطرة من الخشب، وإذا صليت العشـاء الآخرة، أخرج الناس كلهم من المسجد، حتى لا يبقى فيه أحد، ثم أغلقت أبوابه، وذلك لوجود بيت المال فيه (35).

وعلى هذا جرى العمل بـالأندلس.. فكـانت الأوقـاف تحت إشراف قـاضي الجمـاعـة. وكـان المتحصل منهـا يوضع بالمسجد الكبير بقرطبة، ويسمى « بيت المال » وتدفع منـه رواتب مـوظفي المسجـد، وتـودع الصـدقـات في أمـاكن خاصـة (36).. ولمـا بنى نظـام الملك لإمـام الحرمين عبـد الملك الجويني المدرسة النظامية بنيـسابور، جعل له ولايـة الخطـابـة والتـدريس بهـا، كمـا فـوض إليـه أمـور الأوقـاف المتعلقة بها، وبقي على ذلك قريبا من ثلاثين سنة (37).

وكانت المدارس الأيوبية الأولى شبيهة في تنظيماتها بـالمـدارس النظـاميـة، فـأسنـدت وظيفـة النظر في أوقـاف المدرسـة إلى المـدرس، وقـد جعل صلاح الـدين التـدريس والنظر في أوقـاف المـدرسـة الصـلاحيـة للشيـخ نجم الـدين الخبوشـاني، وخصص لـه معلومـا عن « النظر » قـدره عشرة دنـانير، ورتب لـه من الخبز في كـل يـوم ستين رطـلا، وراويتين من ماء النيل (38).

ويقـدم لنـا المقريزي صورة عن إدارة الجـامع العتيق بمصر، فيقول : إن إمامتـه كـانت للأمير، فـإذا عـاقـه عـائق استخلف عنه صاحب الشرطة. وظلت الحال على ذلك حتى عام 242 هـ، وكذلك المؤذنون (39)، ومعنى هـذا أن مـدير المسجد أو ناظره خلال القرنين الأول والثـاني تقريبـا كـان هـو الحـاكم ممثلا في شخص الخليفـة أو الأمير أو صـاحب الشرطة، وأن هؤلاء هم أول نوع من الرؤساء عرفته جامعات الإسـلام..

وقد تحدث القلقشنـدي صاحب « صبح الأعشى » عن الوظائف الدينية، فقـال : « ومنهـا نظر الأحبـاس المبرورة، وهي وظيفة عالية المقدار، وموضوعها أن صـاحبهـا يتحدث في رزق الجوامع والمساجد والربط، والزوايا والمـدارس من الأرضين المفردة لذلك من نواحي الديار المصرية خـاصـة، وما هو من ذلك على سبيل البر والصدقة لأناس معينين...

وقد اتسع نطاق الوقف لما تولى العثمانيون مقاليد السلطة في معظم البلاد العربية، وذلك لإقبال ولاة الأمور في هذه الدولة على الوقف، وصـارت لـه تشكيلات إدارية تعنى بـالإشراف عليـه... وصـدرت قـوانين وأنظمـة متعـددة لتنظيم شؤونـه، وبيـان أنواعـه، وكيفيـة إدارتـه، ولا يـزال الكثير من هـذه الأنظمـة، والقوانين معمولا بهـا إلى يـومنـا هذا (40).

والأوقاف في المغرب كانت تحتفظ بإدارتها الخـاصـة تحت رقابة القاضي يعقد مع الناظر محاسبـات حـدد شكلهـا المفتي عبد الله العبدوسي في جواب لـه، كمـا في المعيـار، وكما سيأتي بيانه في غير هذا المحل...

وهكذا نجد أن نظارة الوقف كـانت وظيفـة مرؤوسـة للقاضي الذي كان ينظر في وصايا المسلمين وأوقافهم، وقد تجمع مع الحسبة، فيتولاها شخص واحد.. وذلك كما نجده، مثـلا، في شخصيـة علي بن أحمـد الحسيني السبتي الشهير بالكغـاط الـذي كـان يجمع إلى الحسبـة النظر في أحبـاس فاس عام 839 هـ، وفي شخصية أبي الضيـاء منير بن أحمـد بن محمد بن منير الهاشمي الجزيري محتسب مدينـة آسفي،

---

35) « الاعـلاق النفيسـة » لابن رستـه. ط : ليـدن، 1891. ص : 116، والمقدسي، ص : 1823.

وقد بنى أبو عنان المريني مستودعات وثيقة المباني، وأمر القضاة أن يجعلوا تلك المستودعات لأموال الأحباس، وأن يكون لكل باب من أبواب المستودعات قفلان لها مفتاحان. أحدهما يستقر بيد القاضي، والآخر بيد خطيبه.. (فيض العباب، وإفاضة قداح الآداب، في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب)، لابن الحاج النميري تحقيق صديقنا الأستاذ الدكتور محمد بن شقرون 1984.

36) « تـاريـخ الإسـلام السيـاسي » لـلأستـاذ حسن ابراهيم حسن ص : 489 / 3.

37) ابن خلكان ص : 361 / 1.

38) « حسن المحاضرة » ص : 186 / 2.

39) الخطط للمقريزي ص : 83 / 4.

40) الكبيسي، ج : 1 / 39.

والناظر في مارستانها، والذي لقيه ابن الخطيب عام 761 هـ (41).

وقد اشار العلامة أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون، إلى منصب القاضي والمهام التي كان يتولاها، فقال : « وقد استقر منصب القضاء آخر الأمر على أنه يجمع مع الفصل بين الخصوم استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين بالنظر في أمور المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين، وأهل السفه، **وفي وصايا المسلمين وأوقافهم**، وتزويج الأيامى عند فقد الأولياء، والنظر في مصالح الطرقات والأبنية، وتصفح الشهود والأمناء والنواب، واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة، والجرح ليحصل الوثوق بهم، وصارت هذه كلها من تعلقات وظيفته، وتوابع ولايته » (42).

لقد كان المحتسب في أول الأمر تابعا من أعوان القاضي، قبل أن يستقل بوظيفته التي كانت تسمى أيضا، بصاحب السوق، والاحتساب كان من الوظائف الدينية، مثل إمامة الصلاة والقضاء، وذلك أن صاحبها كان مكلفا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي تنص عليه الآيات الكريمة والأحاديث النبوية (43).

وتسند خطة الحسبة لكبار الفقهاء الذين كانوا من طبقة من يعهد إليهم بالقضاء، حيث كانت الخطتان متداولتين بين كبار أعلام الفقه، فالمحتسب حسب الشيرزي يتوجب أن يكون فقيها عارفا بأحكام الشريعة ليعلم ما يأمر به، وينهى عنه.

إن مسألة الحسبة هي من الولاية الشرعية الدينية المتصلة بجوهر الشرعية، وإلى هذا المعنى ذهب الغزالي في كتاب : « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » وهو الكتاب التاسع من « ربع العادات» الثاني من : « إحياء علوم الدين» إذ يقول : « فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيئين أجمعين، ولو طوي بساطه، وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفتنة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد»

فنرى مثلا الإمام الاصطخري صاحب : « أدب القضاء يلي حسبة بغداد للقاهرة، ثم تولى مدينة « قم » وكان عاصم الأحول إمام الشافعية الحافظ يتولى رتبة الحسبة، ثم ولي قضاء المدائن.

وبالرجوع إلى من ولي الحسبة بالأندلس، والتي هي موزعة في المجموعة الأندلسية كالصلة لابن بشكوال، وتاريخ ابن الفرضي، والديباج لابن فرحون، يفهم أن هناك تقليدا مرعيا عندهم، وهو أن الحسبة لم يكن يعهد بها، وبشقيها « أحكام السوق » وخطة تغيير المنكر إلا لكبار الفقهاء من طبقة القضاة أيضا، حيث ان المحتسب هو الذي كان يتولى النيابة عن القاضي، ولأن الخطتين كانتا متداولتين بين المحتسب والقضاة (44).

لقد كان نظام الحسبة يعد من أوائل النظم الإسلامية ظهورا (45)، لهذا كانت له صفة دينية في أساسه الأول،

---

41) نفاضة الجراب، ص : 72 ـ 73؛ فنظارة الأحباس مرؤوسة للقاضي وقد تجمع مع الحسبة، فيتولاهما شخص واحد ؟ يؤخذ من مخطوط بالمكتبة الملكية بالرباط ضمن مجموع رقم : 1877؛ وانظر أيضا، بقسم الوثائق بالخزانة الحسنية الكناش رقم : 819، صائر الأحباس الكبرى بالرباط على يد المحتسب السيد الحاج عبد الخالق فرج، وبعض مداخيلها ما بين 1329 و 1331 هـ في عهد المولى عبد الحفيظ والمولى يوسف.

42) مقدمة ابن خلدون ص : 571 / 2، تحقيق د. علي عبد الواحد وافي.

43) من بين الدراسات الأولى التي عرفت بموضوع الحسبة دراسة المستشرق الألماني برناور BERNHAWER والعائدة لسنة 1860 م والمنشورة في « المجلة الأسيوية : تحت عنوان : « مؤسسات البوليس عند العرب والفرس والترك » وفي هذه الدراسة المسهبة حاول المستشرق المذكور أن يعرف بأبرز المؤلفات التي تتحدث حول عمل المحتسب في المدينة الإسلامية، وقد استقى مادته من مؤلفات جامعة، مثل : « سراج الملوك » و « خطط المقريزي » وخليل بن أيبك الصفدي وغيرها.

وكان الدكتور نقولا زيادة قد نشر كتابا مختصرا بعنوان : « الحسبة والمحتسب في الإسلام » (المطبعة الكاثوليكية 1963) ضمنه نصوصا لأبرز الذين كتبوا حول هذا الموضوع.

44) المناهل : ع : 20 / ص : 53. وأول من بين الواجبات المتعددة التي على المحتسب أن يقوم بها، الماوردي « الأحكام السلطانية ص : 404 » وابن الطوير (الخطط : للمقريزي ص : 163 / 1) وكان المحتسبون يختارون في الغالب من بين القضاة، ففي عام 319 هـ خلع على محمد ابن ياقوت، وقلد مع الشرطة الحسبة، فعظم ذلك على مؤنس، وسأل المفتي صرف محمد بن ياقوت عن الحسبة، وقال : « هذا عمل لا يجوز أن يتولاه غير القضاة والعدول : (عريب بن سعيد القرناطي، ص : 117؛ وابن الأثير : ص : 165 / 8).

45) إن أقدم النصوص التي تتحدث عن الحسبة كتاب : « أحكام السوق » ليحي بن عمر (ت بسوسة عام 289 هـ 901 م) بتحقيق حسن حسني عبد الوهاب، وراجعه فرحات الدشراوي ـ الشركة التونسية للتوزيع 1975.. ثم رسالة كتبها الإمام الزيدي الحسن بن علي المعروف باسم محمد الأطروشي (ت : بآمل في طبرستان عام 304 هـ 917 م) وهذه الرسالة هي النص الوحيد في مجاله المنسوب إلى الزيديين ـ الشيعة، ولم يكن معروفا على الإطلاق قبل نشره عام 1953 لأول مرة. وقد نشره وحققه : ر. سرجنت تحت عنوان : « نص زيدي في الحسبة من القرن الثالث الهجري ».

ويقوم على تنفيذ النصيحة التي وردت في القرآن : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** ﴾ فوظيفة المحتسب، إذن هي الأمر والنهي، وتغيير المنكر في المشاكل اليومية الواضحة...

ويقول ابن الاخوة في باب الحسبة على القومة والمؤذنين : « ينبغي أن يشرف المحتسب على الجوامع والمساجد، ويأمر قومتها بكنسها وتنظيفها في كل يوم من الأوساخ، ونفض حصرها من الغبار ومسح حيطانها، وغسل قناديلها وإشعالها بالذكر والوقود...

ويأمر المحتسب القومة أن يقفوا على أبواب الجامع يوم الجمعة، ويمنعوا الصعاليك من الدخول للكدية جملة واحدة ففي دخولهم حرز على الناس ».

ويقول محمد بن أحمد بن سعيد العقباني التلمساني في كتابه : « تحفة الناظر، وغنية الذاكر، في حفظ الشعائر، وتغيير المناكر » (46) : « تمنع النساء الشابات اللواتي تخشى الفتنة منهن من دخول مساجد الجمع والجماعات، لأن ذلك مؤد إلى منكر يعظم خطره، ويهيج شره ».

وقد ظهر في مجال الاحتساب رجال لا يخافون في الله لومة لائم، وكان عملهم هذا تطوعا لله، دون أجر دنيوي زائل، أمثال الشيخ عبد العزيز بن عبد السلام في مصر؛ دخل على الملك الصالح نجم الدين، وقال له : « ما حجتك عند الله، إذا قال لك : « ألم أبوئ لك ملك مصر، ثم تبيح الخمور ؟؟!! فقال له : هل جرى ذلك ؟؟! فقال نعم؛ في الخان الفلانية تباع فيها الخمور، وغيرها من المنكرات !! فأمر السلطان بإغلاق الخان، ومصادرة ما فيه (47).

فالمحتسب كان يعتبر مشرفا على أخلاق المجتمع، ومن تم فإن من واجباته أن يراعي إقامة الصلوات في أوقاتها، وهو مسؤول عن نظافة المساجد، ومراقبة ما يقوله الخطباء والوعاظ إلى جانب إشرافه على المعاهد التعليمية، وعلى الحمامات، وعلى الآداب العامة في الأزقة والطرقات..

إن من تسند إليه الحسبة لا يكون إلا من وجوه المسلمين وأعيان المعدلين، لأنها خدمة دينية...

فالعلاقة قائمة بين المحتسب والمسجد، وهذه العلاقة بدأت في عصور متأخرة في عالم الإسلام بعد أن اتسعت اختصاصات متولي الحسبة، وتشعبت لتصبح كما عرفها الفقهاء والعلماء : « أمر بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله، تمشيا مع قول الله تعالى : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** ﴾.

وقد أوضح ابن تيمية (48) المسؤولية المشتركة بين القائمين على الولاية والحكم في الدولة الإسلامية لتطبيق مضمون هذه العبارة بين الرعية، بذكر أن جميع الولايات الإسلامية، إنما مقصودها الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، سواء في ذلك ولاية الحرب الكبرى، مثل نيابة السلطنة، والصغرى، مثل ولاية الشرطة، وولاية الحكم أو ولاية المال، وهي ولاية الدواوين المالية وولاية الحسبة، ثم حدد مهمة المحتسب، فقال : « إن له الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما ليس من خصائص الولاة والقضاة وأهل الديوان ونحوهم، وأوضح بعد ذلك اختصاصاته المتعلقة بحقوق الله تعالى، وقال : « على المحتسب أن يأمر العامة بالصلوات الخمس ومواقيتها، ويعاقب من لم يصل بالضرب والحبس، وإما القتل فإلى غيره، ويتعاهد

46) تحقيق علي الشنوفي، صحيفة المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية ـ دمشق : 1968. والعقباني : نسبة لعقبان، قرية بالأندلس، أصله منها، تجيبي النسب (أنظر نيل الابتهاج ص : 125) وقد قال المرغيتي في فهرسته ما يخالفه، ونصه : « والعقباني : نسبة للعقبان، إحدى أحياء الخنط. ـ (الإعلام للمراكشي ص : 138 / 10، وانظر : البستان : ص : 106، ووفيات الونشريسي (في ألف سنة من الوفيات ص : 137).

47) « معالم القربة في أحكام الحسبة » لمحمد بن محمد بن أحمد القرشي المعروف بابن الاخوة، وقد عني بنقله وتصحيحه : روبن ليوي Reuben leuy، كمبردج 1937، وقد صدرت منه طبعة بتحقيق محمد شعبان، وصديق المطيعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب : 1976 / وانظر أيضا : مجلة « المورد » العراقية ص : 93 / ع : 4 / س : 1981.

48) « الحسبة في الإسلام » قدم له محمد المبارك ـ دار الكتب العربية 1967.

الأئمة والمؤذنين، فمن فرط منهم فيما يجب من حقوق الإمامة، أو خرج عن الاذان عن المشروع ألزمه ذلك، واستعان فيما يعجز عنه بوالي الحرب والحكم، وكل مطاع يعين على ذلك، وعلى المحتسب أن يأمر بالجمعة والجماعات وصدق الحديث، وما يدخل في ذلك من تطفيف المكيال والغش والميزان في الصناعات والبياعات والديانات ونحو ذلك.. »

ويقول ابن خلدون : « وأحكام المحتسب كثيرة، وهي أحكام ينزه القاضي عنها لعمومها، وسهولة أغراضها، فتدفع إلى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها، فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء » (49).

ولقد أطلق على الشيخ أحمد زروق المصلح الكبير، الذي شملت دعوته العلماء والصوفية الذين مالوا مع الدنيا والولاة « محتسب العلماء والأولياء» اعتبارا بما كانت وظيفة المحتسب تقوم به من حمل الناس على الجادة، وتغيير المنكر (50).

ومن مهام المحتسب أنه كان ينمي أموال الأوقاف بملاحظة أصولها، والمحافظة على ريعها ومحصولها، وإمضاء مصارفها على شروط واقفيها، كما في صبح الأعشى، إذ كانت ولاية المحتسب واختصاصاته وما كان يمارسه لا تتجاذبها ولاية المظالم، وولاية القضاء فقط، ولكن اختصاصاته متداخلة، أيضا، مع اختصاص ولاية الشرطة، ولها، أيضا كما سبق، إشراف بالأصالة على الشعائر الدينية والشؤون الثقافية والصحية،. وعلى مصالح الأوقاف من الحياة الاجتماعية..

وقد حكى الفقيه العالم الرحالة أبو عبد الله بن محمد بن أبي محمد السقطي المالقي الأندلسي في كتابه « آداب الحسبة » (51) أنه كان في الكوفة محتسب لم يترك مؤذنا يؤذن في منار إلا معصوب العينين من أجل ديار الناس وحريمهم (52)، ثم زاد السقطي، « ولله دره، فإنه احتاط وأجاد».

وقد ذكر علي مزاهري (53) في كتابه : ان المؤذنين الذين يصعدون في أعلى المئذنة، فكان من المستحب أن يكون المؤذن من العميان أثناء النهار، وذلك حتى لا يكشف أسرار ما كان يجري على أسطح المنازل أو في وسط صحونها مما تعتبر نوعا من التجسس المنهي عنه، وحتى لا يهتك حرمة النساء اللاتي يكن متحررات داخل بيوتهن بدون حجاب (54).

ونجد أن عبد الله بن غانم القاضي من أهل افريقية دعاه ابراهيم يوما إلى صعود الصومعة، فأبى، وقال : « تكشف حرم المسلمين !!، فلم يصعد معه (55).

وابن غانم هنا هو الذي أوقف الأهمية التي كانت بمراسي افريقية لمرافق المرابطين..

---

49) مقدمة ابن خلدون ص : 577 / 2؛ وانظر نهاية الرتبة في طلب الحسبة » أيضا، لعبد الرحمن الشيرزي تحقيق السيد الباز العريني - دار الثقافة - بيروت. وانظر أيضا : « نهاية الرتبة الظريفة، في طلب الحسبة الشريفة » للشيخ عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله العدوي (كشف الظنون ج : 2 / 1987 د)، ونهاية الرغبة في طلب الحسبة » للشيخ الإمام جلال الدين بن عبد الرحمن بن نصر التبريزي الشافعي (المصدر السابق).

وهناك رسالة في الحسبة لابن عبدون محمد بن أحمد التجيبي الاشبيلي من رجال القرن الخامس الهجري. نشرها برفنسال بالقاهرة، وعلق عليها ضمن ثلاث رسائل حسبية. وهي تقدم معلومات عن الأنظمة الإدارية بالأندلس في هذا العصر، لا تنتقد في لباقة - سلوك الحثم والعبيد المرابطين إزاء الرعية.

و(التيسير في احكام التعسير) لابن العباس أحمد بن سعيد المجيلدي نزيل فاس (ت : 1094 هـ 1683 م) وهذه الرسالة تهتم باحكام الحسبة. وتفيد في دراسة الاقتصاد المغربي خلال القرن الهجري ١١ / ١٧. وهي منشورة بتحقيق الدكتور موسى لقبال الجزائري في 143 ص. من القطع المتوسط نصا وتصديرا وملاحق وفهارس، وصدرت عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر.

50) سلوة الأنفاس ص : 183 / 3.

51) من مطبوعات معهد العلوم المغربية بالمطبعة الدولية بباريس حيث نشره « كولس، ولوفي بروفنسال » باريز المطبعة الدولية عام 1931.

52) « المورد » ص : 94 / مج 9 / ع : 4 / عام 1981.

53) « الحياة اليومية للمسلمين في العصر الوسيط » قرون : 10 - 13 بالفرنسية ص 17.

54) وقد ظهر في العصر العباسي لأول مرة منع أهل الذمة من تعلية بيوتهم على أبنية المسلمين، فإن ملكوا بيوتا عالية أقروا عليها، ومنعوا من الإشراف منها على المسلمين وأهل الذمة (الأحكام السلطانية، للماوردي ص 428، وقد بين الماوردي أن الأصل في ذلك، المنع من الإشراف على منازل الناس) وأول من ذكر هذا هو أبو الحسن الماوردي (ت 450 هـ 1058 م) وقد سرت هذه الفكرة بعد ذلك إلى الغرب، فنجد البابا « إنوسنت » الثالث يشكو من أن اليهود بنوا في مدينة « سنس » كنيسة لهم تعلو على كنيسة مسيحية مجاورة لها (الحضارة الإسلامية، في القرن الرابع الهجري، لآدم ميتز ص : 104 / 1).

55) ترتيب المدارك للقاضي عياض ص : 72 / 3، ط : وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

ويذكر أن بعض الخلفاء كان يشتد على قومه في الأذان، في أن لا يصعد للأذان نهارا إلا من عرفت عفته، ووثق به في غض بصره حوطة على حرم المسلمين، والاطلاع على عوراتهم، وخوف فتنة تحدث بسبب من لا يومن في ذلك (56).

وعلق محمد كنون على قول خليل : « وجاز أعمى » فقال : قال ابن ناجي في شرح المدونة، يعني إذا كان تابعا لأذان غيره أو معرفة من يثق به أن الوقت حضر... وكان شيخنا يحكي أنه كان بجامع القيروان صاحب الوقت أعمى، ولا يخطئ، ويذكر أنه كان يشم لطلوع الفجر رائحة » قال الحطاب : وسمعت سيدي الوالد يذكر عن بعض أئمة الشافعية بمكة أنه كان يقول : « إنه يشم رائحة الفجر، ولم يكن أعمى، هذا ما قاله عنه كنون (57).

قال في المدخل : « وينهى الإمام المؤذنين عما أحدثوه من أذان الشباب على المنار، لأنه لم يكن من فعل من مضى..»

وقد كان بعض الصالحين بمدينة فاس يصحب إمام المسجد الأعظم الذي هناك، وكان للرجل الصالح ولد حسن الصوت، فطلب من الإمام أن يأذن لولده في الصعود على المنار، ليؤذن، فأبى عليه..!! فقال له : « ولم تمنعه » قال : « إن المنار لا يصعده عندنا إلا من شاب ذراعاه » لأن ذلك دليل على الطعن في السن.

لقد كانت خطة صاحب الصلاة مندرجة ضمن اختصاصات القاضي وفي أيام ابن عنان المريني أفردها بولاية على حدة لما رأى من اشتغال القضاة بالأحكام وتوابعها، واستغراق ذلك أكثر أوقاتهم، وقد كتب لكل من وقع الاختيار عليه ظهيرا بهذه الولاية، وقرر له مرتبا موسعا، وعين لكل واحد من المسؤولين أعوانا بقدر ما يحتمل بلده، وأجرى لكل عون مرتبا يقيم به أوده..

أما مهمة هذا المتولي أو الناظر، فهي حمل الناس على الصلاة في أوقاتها، وحضور الجماعة بالمساجد، مع الاشتداد في ذلك غاية الاشتداد، وعقاب من تخلف عن شهود الفريضة (58).

لقد كان الإشراف على الأوقاف من اختصاص المحتسب، أحيانا، على عهد سلاطين المغرب المرينيين، مع العلم أنهم أنشأوا نظام النظارات، ويظهر من كلمة « الأوقاف » التي استعملت كلمة « الأحباس » بديلا عنها في عصرنا، وقد كانت مستعملة على عهدهم حسبما يفهم (59).

وفي ذكر « مشاهير أعيان فاس في القديم » ذكر عن أبي المكارم منديل بن زنبق الفاسي، أنه كان يحرض الناس على الصلاة في أوقاتها، ويضربهم عليها بالسياط والمقارع بأمر السلطان أبي عنان، والظاهر أن هذا من أعوان صاحب الصلاة بفاس حينئذ (60).

حكى ابن بطوطة في رحلته في آسيا الوسطى عن عادة إقليم « خوارزم » وذلك أن إمام المسجد كان يتولى إرشاد أهل الحي إلى صلاة الجماعة، وكان يعاقب المتغيب بغير عذر شرعي بعقوبة مالية، تصرف في تجهيز المسجد، أو يتصدق بها على المحتاجين، وأن الإمام قد علق في صدر حائط القبلة ذرة، إشارة إلى العقاب الذي ينتظر من فوت على نفسه صلاة الجماعة... وحكى أيضا، أن من عادتهم أن المؤذن يهرع إلى أبواب بيوت أهل الحي ليزعجهم إلى صلاة الجماعة.

ويعلق الأستاذ عبد الرحمن الفاسي على ما حكاه ابن بطوطة عن إمام خوارزم بقوله : « فما أشبه إمام خوارزم بالمحتسب ماثلا في اختصاص التعزيز بالدرة، وفي تعليق أداة العقاب في مواجهة الناظرين، وكأنه بذلك قد اقتبس تقليد محتسب فاس (61).

---

56) « جني زهرة الآس » للجزنائي، ص : 54.

57) كنون في اختصار حاشية الرهوني ج : 1 / ص 319، لدى التعليق على قول الشيخ خليل في باب الأذان : « وجاز أعمى » وانظر، أيضا، الحطاب، ج : 1 / 452، على شرحه للشيخ خليل رحمه الله.

58) « جني زهرة الآس » للجزنائي ص : 68.

59) فيض العباب، لابن الحاج النميري ص : 11 حيث أمر السلطان المريني الذي كتب إلى عماله : إن أهم أمركم عندي الصلاة، وأمر بأن يشد في ذلك غاية الاشتداد، ويشمل هذا الحكم جميع الحاضر والباد....

60) أنظر : « ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين » للأستاذ المحقق محمد المنوني.

61) المناهل، ع : 20.

وقد انحسر دور المحتسب، وأصبح قاصرا في العصور الأخيرة على الشؤون الاقتصادية.. وقد عبر عن الدور الذي كان ينهض به المحتسب أبو الحسن الماوردي في كتابه، فقال : « والحسبة من قواعد الأمور الدينية، وقد كان أئمة الصدر الأول يباشرونها بأنفسهم لعموم صلاحها، وجزيل ثوابها.. ولكن لما أعرض عنها السلطان، وندب لها من هان، وصارت عرضة للتكسب وقبول الرشا، لأنّ أمرها، وهان على الناس خطرها، وليس إذا وقع الإخلال بقاعدة سقط حكمها (62)».

وقد تسند إلى إمام المسجد في المدينة إدارة شؤون الوقف، وحفظ أعيانه، وصرف ريعه في مصارفه، والدفاع عنه، وتحصيل غلاته، وقد صور هذه الوظيفة بدقة وتفصيل محمد الحسن الوزان، (63) فقال : « ولا يوجد في الجامع أكثر من إمام تقع على عاتقه وظيفة إقامة الصلاة، - إذ كان يوجد في فاس قرابة ستمائة جامع أو مسجد، والمساجد تكون عبارة عن أبنية صغيرة للصلاة، ويوجد بين الجوامع خمسون كبيرة جميلة البنيان، - ومن وظيفة هذا الإمام، أيضا إدارة إيرادات جامعه، إذ عليه أن يمسك حسابا دقيقا، وأن يوزع الإيرادات بين مستخدمي الجامع كأولئك الذين يتعهدون المصابيح التي توقد ليلا، وكذلك الذين يقومون بحراسة الأبواب، والمؤذنون الذين يؤذنون في أوقات صلاة النهار، لا ينالون أي أجر، وإنما يعفون من ضريبة العشر، ومن جميع الضرائب الأخرى ».

ويقول « الوزان » في موضع آخر، موضحا وظيفة الإمام : « وإمام الجامع فليس له من مهمة سوى إقامة الصلاة، والإمامة بالمصلين، وهو يمسك حسابا دقيقا ومتقنا عن الأموال والأملاك التي تقدم للجامع لحساب الأولاد القاصرين، كما يعتبر موزع الإيرادات المخصصة للفقراء سواء أكانت من الدراهم أم من الحبوب، كي يوزعها في كل عيد على فقراء المدينة، بصورة تتفاوت حسب أعبائهم العائلية. ويتقاضى الذي يجبي عائدات الجامع دينارا واحدا في اليوم تعويضا عن هذه الوظيفة الرفيعة، ويعملون معه ستة أمناء، أجر كل واحد منهم ستة دنانير شهرية، بالإضافة إلى ستة رجال يحصلون أموال إيجارات البيوت والدكاكين والعائدات الأخرى... وينال كل من هؤلاء خمسة بالمائة من الجبايات لقاء أتعابه، وفضلا عن ذلك يعمل تحت إمرة الجابي مقدار عشرين موظفا مكلفين بالذهاب للضواحي كي يقدموا للفلاحين ولأرباب الكروم والبساتنة ما هم بحاجة إليه، ويرتفع أجر هؤلاء الموظفين إلى ثلاثة دنانير بالشهر (64) ».

وقد نشر العلامة السيد « ميشبلير » الفرنسي المتوفى عام 1930 بمدينة الرباط، بحثا قيما هاما في « مجلة العالم الإسلامي (65) » تحت عنوان : « حق ناظر الأحباس في التدخل عند نقل الملكية » تحدث في هذا البحث عن أعمال الناظر، وما يتعلق بمجال شؤونه واختصاصه.

62) « الأحكام السلطانية، والولايات الدينية » ص : 258.

63) « وصف إفريقيا » للوزان ص 229 - 230، ترجمة د. عبد الرحمن حميدة، ط. الرياض، بالمملكة العربية السعودية.

64) المصدر السابق ص : 231.

65) في عام 1911، رقم المجلد 13 / وعدد صفحات البحث من 409 - 415.

المجتمعات الإسلامية في القرن الأول

• تأليف : الدكتور شكري فيصل
• عرض وتعليق : الاستاذ محمد محيي الدين المشرفي

كان طموح المسلمين يدفع بهم إلى جعل البحر الأبيض المتوسط بحيرة عربية تمكّنهم من الاستيلاء على الأندلس ودخول القسطنطينية بعد إكمال ما سمّي بالإطار البحري، لكنهم إذا كُتب لهم اجتياز جبل الفتح ودخول الأندلس على يد موسى بن نصير وطارق بن زياد، فإنهم وجدوا مقاومة عنيفة في الوصول إلى القسطنطينية، إلا إنهم أستطاعوا تأسيس مدن مزدهرة لامعة كفاس وقرطبة وغرناطة واشبيلية التي أتاحت للعرب المهاجرين إليها أن يبنوا بها حضارة لا يزال بريقها يملأ العين والقلب والفكر جميعا.

والظاهر أن الذي مهّد الطريق أمام الفتوحات العربية حتى في بلاد المشرق وجعل الروم والفرس معا يُرحّبُون بمقدم الجيوش الإسلامية هو معاملة المسلمين للأهالي في الأراضي التي وطئتها أقدامهم بتسامح كامل، إذ تركوا للناس حرية الضمير والعبادة واستغلال أراضيهم، ولم يتهافتوا عليها كما فعل الأوربيون في البلدان التي ابتلاها الله بالاستعمار !

وإذا جاز لنا أن نقول اعتمادا على ما جاء في كتب التاريخ، ان اليهود لم يكونوا يتورعون من استعمال القوة والبطش ـ شأنهم في فلسطين السليبة ولبنان الخبيبة ـ لإخضاع أعدائهم على اعتناق اليهودية أو الخضوع لسياستهم الهوجاء، وإذا كانت الدول الأوربية تستعمل هي الأخرى كل وسائل القهر والقمع لحمل جيرانها على الخضوع لإيديولوجية معينة أو لتطبيق تعاليم السيد المسيح على صيغة معلومة، مستخدمين في ذلك كله جميع الوسائل المؤدية إلى إزهاق الأرواح وإراقة دماء الأبرياء، كما يشهد على ذلك تاريخ أوربا خلال القرون الوسطى وبعدها، فإن الاسلام لم يعمد في يوم من الأيام إلى استخدام القوة والقهر ليحمل الشُعوب الأخرى على اعتناق ملّة الإسلام.

ولهذا أحسّ الناس في كل مكان أن حركة الفتح كانت حركة تحريرية جاءت لانقاذ جماعات بشرية كانت تعيش تحت العَنَف والظلم والعذاب والاضطهاد. نعم إن الإسلام ترك الناس أحرارا يتصرّفون بحسب مشيئتهم على أساس أداء الجزية لمن أراد أن يبقى على ملته الأولى، فإذا دخل الإسلام سقطت عنه وكان له بعد ذلك ما للمسلمين وعليه ما عليهم، ومن ثمّ يُمكن القول بأن هذا التسامح وهذه الأعراف الإنسانية التي لم تعرفها أوربا خلال عهود طويلة، نادى بها الإسلام وراح يعمل بها منذ فجر حركة الفتح كأنه ينير الطريق أمام شعوب العالم لتتعلم كيفية معاملة الإنسان للإنسان على أساس التسامح الشامل في كل ما يتخذه المرء من أعمال.

بقي على المؤلف أن يحدثنا في هذا الكتاب القيم، كيف استطاعت العربية أن تنتشر، وما هي العوامل التي مكنتها من هذا الانتشار الباهر في كل أنحاء البلاد، ماذا كانت اللغات التي وجدتها العربية في طريقها وهل صمدت في وجهها أم وجدت اللغة العربية أمامها طريقا معبداً أمكنها بفضله أن تستقر وتحلّ محلّ تلك اللغات التي كان السكان يستعملونها ؟ كل هذه الاسئلة يتولّى المؤلف الإجابة عنها بعد التعليل والتحليل بطريقة علمية تقنع وتفيد. وفي حديثه عن سكان بلاد المغرب يقول صاحب الكتاب : إنهم كانوا يؤلفون طبقات ثلاثا هي : طبقة الروم البيزنطيين، وسكان المدن، ثم البربر. فالأولون كانوا يتحدثون اللغة اليونانية، لغة الإدارة والسياسة والمحاكم التي كانت تستعملها كذلك الطبقة المثقفة أو الطبقات العليا في المجتمع الافريقي؛ وكان إلى جانب اليونانية لغة أخرى كان يتحدث بها سكان المدن على الأخصّ: وهذه اللغة كانت مشحونة بلغات الأقوام والحكومات التي تعاقبت على هذه الشقة الساحلية من البلاد، إذ كانت مزيجا من اليونانية واللاتينية والفينيقية خاصة التي لم تمّح معالمها الثقافية واللغوية، بل ظلت تعيش في أعماق الضمير اللغوي في هذا المجتمع المغربي، في مفرداته وأصواته وفي نغماته ونبراته وبالجملة في جوه اللغوي العام، وأخيرا كانت هناك اللغة أو بالأحرى اللهجات البربرية التي كان يستعملها سكان البلاد الأولون في المناطق الداخلية وفي النواحي الجبلية على الخصوص، والواقع أن حظ هذه اللغات الثلاث لم يكن واحدا، ولا كان نصيبها من الثروة الفكرية مشتركا. فاللغة اليونانية الرسمية لغة علمية تدعمها حضارة ضخمة يمُوج بها زاد فكري عميق، فهي لغة الفلسفة والأدب والفن، أي هي لغة العلم، وهي كذلك لغة الدين. ونحن نعتقد أنه ليس هناك من أمة استطاعت في الماضي أو الحاضر أن تخلّد مجدها في التاريخ بين الأمم والشعوب المتحضرة إلا كان ذلك عن طريق لغة علمية راقية هي التي تتولّى الحفاظ على تراثها الأصيل وتعاليم دينها الصحيح. ثم إن اللغة التي كانت مستعملة في المدن الافريقية كانت لغة مثقلة بما تركت فيها اللغات الماضية، مشحونة بآثارها وانطباعاتها، إلا أنها كانت تفي بحاجة الناس اليومية. أما اللغة البربرية فقد كانت ـ وما تزال ـ لغة فقيرة، من الوجهة العلمية لا تستطيع التعبير إلا عن حياة البربر اليومية الضيقة.

واصطدمت العربية بمجرد وصولها المغرب بهذه الأصناف الثلاثة ـ من اللغات، وكانت مقاومتها أو مقاومة تلك اللغات مختلفة متباينة متشابكة : كانت اللغة اليونانية لغة العلم ولغة الإدارة والدواوين، وكانت اللغة العربية لغة الدين أيضا ولغة الفاتحين الغالبين، فاعتمدها الناس في أقرب ما يمكن من الوقت كلغة الإدارة والحكم، تقليدا للفاتحين، ومن ثم لم تتمكن اللغة اليونانية من الصمود طويلا على ألسنة الناس، حيث هاجر أصحابها فيمن هاجر إلى إسبانيا وصقلية والولايات البزنطية الأخرى بعدما تمت الغلبة لحسّان وصفّى موسى بن نصير الموقف الحربي؛ يضاف إلى ما تقدّم أن اليونانية كاللاتينية قبلها كانت لغة أجنبية دخيلة على المجتمع الافريقي، طارئة، ليست لها الجذور العميقة التي قد تمدّها بالحياة وتُسْعِفُها بالمقاومة، ولذلك استطاعت العربية أن تطاردها خاصة بعد القرارات التي اتخذها عبد الملك بن مروان فيما يتعلق بضرورة إحلال اللغة العربية مكان اللغات الأخرى في كل أرض وطئتها أقدام الفاتحين المسلمين، ومعلوم أن عبد الملك هو الذي كان أمر بنقل الدواوين إلى العربية في الشام والعراق ومصر حتى يقطع بذلك دابر اللغات الأجنبية هناك وتحلّ محلّها العربية لغة الفاتحين والقرآن الكريم، ولم يخْشَ بعمله هذا أي اضطراب في أجهزة الدولة ولا انخفاض في المستوى الثقافي كما يدعيه اليوم فقهاؤنا في ميدان التعريب ! ومن الواضح أن هذه الأوامر شملت أيضا شمال افريقيا منذ أن كان للمسلمين فيها مع حسان بن ثابت نظام إداري عربي وحياة حكومية عربية منظمة.

أما لغة سكان المدن الافريقية التي قلنا عنها إنها كانت مزيجا من لغة أقوام وشعوب تعاقبت على هذه البلاد، فقد مُكّن للعربية فيها أن تستقر شيئا فشيئا وتنتشر قليلا قليلا بما كان من هجران العرب إليها واستقرارهم في هذه المدن بالذات وبما كان من انتشار الإسلام فيها وما يتبع ذلك بالطبع من استعمال اللغة العربية تبعا لقانون الاختلاط والتقليد، يضاف إلى هذا أن لغة التخاطب التي كانت شائعة في المدن المذكورة قبل وصول الفاتحين كانت مثقلة بآثار اللغة الفينيقية، اللغة السامية التي لها

تشابه كبير بينها وبين اللغة العربية، وهو ما مهّد السبيل لانتشار العربية اعتمادا على المفردات والآثار اللغوية الفينيقية عامة التي كانت إذ ذاك رائجة في تلك المجتمعات المدنية. ثم إن لغة هؤلاء السكان لم تكن في الواقع إلا لغة طبقة بورجوازية كانت حريصة على أن ترضي الفاتحين لأنهم أصحاب القوة والحول، ولا حاجة بها أن تسأل من قد يكونون، ولا حاجة لها بمقاومتهم ما دامت الحاجة هي التي تحركها وتنير سبيلها، فإذا كانت اللغة العربية، قد اصبحت لغة الحكم والسياسة والإدارة والدين، فإن اعتناق هذه الطبقة البورجوازية للدين الإسلامي والإقبال على تعلّم لغة الفاتحين واستخدامها يوميا يصبحان بالطبع أمرا مرغوبا فيه، لا مندوحة منه.

أما فيما يتعلق باللغة البربرية فالمقاومة كانت شديدة بينها وبين اللغة العربية لا في السهول فقط بل في الجبال التي اعتصم بها السكان لدى قدوم المسلمين الأولين، فبالنسبة للسهول كثيرا ما كانت العربية تجول جولتها وتكتسب المعركة باعتبارها لغة الدين القويم ولغة الكتاب المقدس، يعينها على ذلك الفوز أن ليس وراء تلك اللهجات البربرية من ماض ثقافي بعيد ينفحها بالحياة أو يمدها بالقوة، وهكذا استطاعت اللغة العربية ببيان سحرها أن تغزو هذا المناطق الواسعة من البلاد، وإذا الناس يغادرون اللغات التي كانوا يتكلمون بها ويحلون اللغة العربية من أنفسهم محلا أصيلا. والشيء الذي لا شكّ فيه أن انتشار الإسلام كان يفتح الطريق للعربية وكأنه يجرّها إليه إذ كانت لغة الدين، وقد أقبل الناس على هذا الدين الجديد في كثير من الحماس نتيجة بساطته وتلاؤم الحياة العربية والحياة الاجتماعية البربرية في المغرب، وهكذا توشك أن تكون الأسباب التي ساعدت على انتشار الإسلام هي التي ساعدت كذلك على انتشار العربية وتعريب المجتمع الافريقي.

ولا يخطرن على بال أحد أنه بالإمكان أن تحلّ مكان العربية أي لغة أخرى من اللغات في بلدان المغرب العربي، لا لغة أجنبية كيفما كان بريقها ومهما تكن شهرتها، ولا لهجة من اللهجات مهما تكثفت الجهود للدعاية لها، وذلك لحجة واحدة هي أننا مسلمون والإسلام جاءنا باللغة العربية التي هي لغتنا الأصيلة طبقا لما جاء في كتاب الله العزيز الذي يقول : ﴿**وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها، وتنذر يوم الجمع لاريب فيه، فريق في الجنة، وفريق في السعير**﴾ (1)؛ وفي سورة الاحقاق : ﴿**وهذا كتاب مصدق، لسانا عربيا لتنذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين**﴾؛ وفي سورة الشعراء، الآية 191، يؤكد سبحانه وتعالى على عروبة هذا الكتاب وهذا اللسان العربي المبين الذي نزل به القرآن الكريم فيقول وهو أصدق من قائل : ﴿**وإنه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين**﴾؛ وفي سورة الزمر، الآية 28، يقول تعالى : ﴿**ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون، قرآنا عربيا، غير ذي عوج لعلهم يتقون**﴾. فكيف يحل لبعضهم - والحالة هذه - التفكير في الاستعاضة عن اللغة العربية بلغة أجنبية يدعون أنها واضحة المعالم، قريبة من الأفهام، اعتمادا على استئناسهم بها ردحا من الزمان، أو بلهجة من اللهجات البربرية التي لم تتعد التعبير عن الحياة اليومية البسيطة إلى شيء وراءها من الثقافة والفكر ؟ يشهد بذلك كبار العلماء ونخبة من المستشرقين الذين لا يمكن اتهامهم بالعطف على الإسلام والمسلمين أو الدفاع عن اللغة العربية. فقد جاء في هذا الموضوع على لسان أحدهم ما مؤداه : «إلى أبعد ما يمكن العودة إليه عبر الماضي السحيق نلاحظ أن بلاد البربر لم تكن لها لغة حضارة غير لغة الفاتحين الذين بسطوا نفوذهم عليها؛ وهكذا استعمل الكتاب البرابر على التوالي اللغة الفينيقية أساسا ثم اللغة اللاتينية التي كان يتقنها القديس أوغستان (Saint Augustin) وأبولي (Apulée) وترتوليان (Tertullien) وغيرهم، وبعدها اللغة العربية» (2)؛ وغني عن القول أن كلا من هذه اللغات الثلاث لغة دين ولغة علم؛ لذلك صح

1) سورة الشورى، الآية 7.

2) راجع دائرة المعارف الفرنسية، ج 1، ص 1220.

الاعتماد عليها، ومن أجل ذلك أيضا استطاعت مجموعة من الكتاب والمفكرين المرموقين أن تخلد ذكرها. ثم جاء على لسان المستشرق المعروف جورج مارس في كتاب له ما يؤكد ما تقدم حيث يقول : «لم تكن اللغة البربرية أبدا شيئا مذكورا عبر التاريخ ولم ينجب المتكلمون بها ما يستحق الذكر من علم وفن» (3)؛ إنما الذي ساعد الطبقة النيرة من البربر على الإنتاج الفكري هو الدين واللغة العلمية معا؛ ولا يمكننا أن نفسر أسباب تفوق بعض الأعلام البارزين من البربر كالذين سبقت الإشارة إليهم فيما يتعلق بالعلم والثقافة، إلا بكونهم أقبلوا على المسيحية في القديم باعتبارها ديانة سماوية تدعو إلى العدل والمساواة كما أنهم تمكنوا من اللغة اللاتينية، واللغة اللاتينية كما تعلم لغة علم وأصالة؛ فلما انتشر الإسلام في المغرب أقبل عليه البربر إقبالا صحيحا آمنين بما جاء به سيد المرسلين؛ كما أقبلوا على العربية يتحدثون بها ويكتبونها ويعلمونها لأبنائهم وذويهم؛ ومن ثم كان منهم أعلام وفطاحل من العلماء برزوا في كل ميدان من ميادين المعرفة والفن (4).

ومهما يكن من أمر فإن هذا التعريب اللغوي أعقبه تعريب جنسي يتمثل في تلك القبائل العربية التي كانت ترد مختارة مهاجرة بنفسها من المشرق إلى المغرب، كما يتمثل في تلك الجماعات من الأسرى والرقيق التي كان الولاة يرسلونها إلى المشرق، فقد روي أن موسى بن نصير حين غزا المغرب بعث ابنه مروان في إحدى الجهات غازيا ومجاهدا؛ فأصاب من السبي مائة ألف، وبعث ابن أخيه في جيش آخر؛ فأصاب أيضا مائة ألف من الأسرى. وغني عن التوضيح أنه مهما يكن نصيب هذه الأعداد من الغلو والمبالغة، إلا أنه باستطاعتنا أن نثبت في هذا المقام أن هذا العدد من الرقيق كان شبيها بالهجرة الجماعية من المغرب إلى المشرق حيث كان يتم تعريب هذه الجموع تعريبا كليا عن طريق إسلامها؛ فكأنما تعاون على تحقيق عملية تعريب المغرب عمليتان اثنتان : عملية هجرة حرة من المشرق إلى المغرب، وعملية مضطرة من المغرب إلى المشرق؛ وكان لاختلاط الدم العربي بالدم البربري عبر التزاوج والأنساب والامتزاج الكلي بين مختلف العناصر المتساكنة في عرض بلدان المغرب العربي ما أمد الدم العربي بدفعة جديدة حارة من النشاط والقوة هي التي حملت العرب الأشاوس عبر جبل طارق إلى الأندلس وجنوب فرنسا، ومكنتهم من أن يجعلوا من البحر الأبيض المتوسط بحيرة عربية تخدم السلام وتكرس جهود الساكنين حولها لخدمة الحضارة الإنسانية عبر العصور.

فلما توجهت قوة الشر والتسلط الأوربية على البلدان المستضعفة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين شعرت بلدان المغرب العربي بأن الخطر يهدد شعوبها في كيانها ومستقبلها، وخاصة في لسانها المعبر عن ذلك الكيان. وبالفعل ما إن وطئت قدم الدول الأوربية أرض هذه الشعوب حتى توجهت لمقاومة رمزها المتمثل في لسانها المعبر عن ذلك الكيان، وإحلال لغتها الأجنبية مكان اللغة الأصلية لأهل البلاد، غايتها من ذلك العمل، بادىء ذي بدء، على هدم كيان الدولة التي أصيبت بداء الاستعمار ابتداء من تقويض لغتها : ذلك أن كل دولة مستعمرة متسلطة تسعى إلى إشعار الدولة التي أصيبت بالاحتلال أنها في حاجة إلى الدولة المستعمرة التي لم تحل بأراضيها إلا لترفع من مستواها من وجهة إنسانية بحتة، في حين أن وجود أي استعمار في بلاد متخلفة إنما هو من أجل استنزاف خيراتها ومواردها التي هو في حاجة إليها. إن الاستعمار عملية استغلال قبل كل شيء وبعد كل شيء، وللوصول إلى هذه الأهداف كان من اللازم على الاستعمار أن يتقنع بقناع الغيرة والإيثار لمصلحة المستضعفين، ويضع برنامجا مدروسا يبدأ بمحاولة تركيز لغته مكان لغة المواطنين حتى إذا تم له ما أراد انتقل إلى مرحلة أخرى مفادها إحلال المواطنين في قلب الحضارة الأوربية التي جاءهم بها في انتظار اجتذابهم شيئا فشيئا وتعويض دينهم بدين المسيحية، وبذلك تتم الغلبة للصليب

---

3) أنظر «بلاد البربر الإسلامية والشرق في العهد الوسيط»، طبعة أوبيي باريس، سنة 1946، ص : 41.

4) نفس المصدر.

على الهلال، تلك هي المرحلة القصوى التي كان يهدف إليها المستعمرون كافة لا فرق بين ساكن ومتحرك.

فأنت ترى أن الأمر خطير، وأشده خطرا عندي موقف أولائك الذين أصبحوا يدعون إلى التشبث باللغة الأجنبية حتى بعدما أحرزت بلداننا على استقلالها بعد كفاح طويل مرير، وموقفهم غير معقول، إذ برفضهم التحرير اللغوي فكأنهم لا يوافقون على استقلال بلادهم السياسي (5).

يستخلص من كل ما سبق أنه يتعين على المهتمين بشؤون العربية على اختلاف مستوياتهم وحيثياتهم أن يتفطنوا إلى الدور الذي يجب أن تقوم به في البلدان العربية وبلدان المغرب العربي على الخصوص المؤسسات اللغوية التي ينحصر هدفها في تدعيم أسس اللغة العربية كي تتمركز في القلوب بعد تمركزها في العقول، وأعني بهذه المؤسسات خاصة المجامع اللغوية ومكتب تنسيق التعريب بين الدول العربية والمعهد الوطني للبحث والدراسات للتعريب في المغرب.

ويبدو أن من مهام هذه المجامع اللغوية إعداد قاموس عربي واضح المعالم يمتاز عن كل ما سبق لحد الآن من معاجم هي لا تسمن ولا تغني من جوع بحيث يجد فيه الباحثون والدارسون ما يكونون في حاجة إليه من مفردات وتراكيب دقيقة من شأنها أن تساعدهم على التعبير بوضوح لما يختلج في نفوسهم من أفكار ومفاهيم هي زبدة ما حملته إليهم هذه الحضارة العصرية التي لم يعد في استطاعة أحد منا أن يعيش بمعزل عنها.

أما المكتب الدائم لتنسيق التعريب بين الدول العربية فإن العمل الذي يقوم به ذو أهمية كبرى يظهر أثره فيما ينشره تباعا من أبحاث ودراسات علمية قيمة ومعاجم لغوية باللغات الثلاث العربية والفرنسية والانكليزية، وهذه الأعمال جديرة بكل اعتبار خاصة منها ما يتعلق بالمعاجم التي لا تحتاج إلا أن يقع عليها الاتفاق من قبل الدول العربية ليصبح ذلك الرصيد الهام من المفردات والتراكيب ساري المفعول في كل الجامعات العربية، ولا يسمح باستخدام سواها حتى نكون على بينة من أن العمل العربي يسير صوب هدف معين، لا يعتريه قلقلة ولا اضطراب.

أما عن المعهد الوطني للبحث والدراسات للتعريب فنرى - وهذا رأيي خاص لا نرى وجوب حمل الآخرين على الاستمساك به - أن مهمته الأولى هي البحث قبل كل شيء عن المفردات والمصطلحات اللغوية التي تعبر عن مفاهيم دقيقة وجمعها من مصادرها الأساسية كالقرآن الكريم وكتب السيرة وكتب الأدب واللغة على اختلافها قديمها وحديثها قبل الإقبال على عملية الخلق والابتكار وذلك لملء الثغرات الباقية عن طريق التعريب والتحقق والاشتقاق، وبذلك يمكننا أن نتجنب في كثير من الأحيان خلق كلمات مستهجنة لا يقبلها الذوق السليم على حين أن مقابلها يكون موجودا في الكتب التي أومأت إليها ابتداء من القرآن الكريم وسيرة ابن هشام وكتب الجاحظ ورسائل إخوان الصفاء ومصنفات ابن خلدون وغيرهم من فطاحل الكتاب والباحثين في المشرق والمغرب، ولو أردت أن أعطي الدليل على ما أسلفت لذيلت هذا المقال بمآت الألفاظ والمفردات التي تعبر تعبيرا دقيقا صحيحا عن مفاهيم عصرية دقيقة أيضا نحن نعمل لاهثين على خلقها خلقا آخر بينما هي تنام في بطون كتب التراث؛ وهذه الحصيلة الأدبية اللغوية التي يتعين جمعها وتبويبها قبل كل شيء متى ما بحثنا عنها في أمهات الكتب وكتب المستحدثين هي التي ستعين المشرفين على معهد التعريب بالاطلاع بأول مهمة تقع على كاهلهم، ألا وهي القيام بتعريب الكتب العلمية ككتب الرياضيات والفيزياء والكيمياء والعلوم الطبيعية المستعملة في المدارس الثانوية حتى يعتمدها الأساتذة، بعد قليل، في نقل ما يقدمون للتلاميذ من معلومات عن طريق اللغة العربية، تجنبا للعقبات التي تعترض التلاميذ كلما قدمت لهم دروس بلغة أجنبية لا يدركون أسرارها تمام الإدراك، وبما أن وزارة التربية الوطنية التي يقع عليها تحقيق عملية

---

5) أنظر مجلة «المناهل»، عدد 25، مارس 1983 وكذلك «دراسات عربية» ص 32، العدد 9، يوليوز 1981.

التعريب في كل من المؤسسات التعليمية والإدارة والمجتمع تسعى سعيا حثيثا بتوجيه من صاحب الجلالة الحسن الثاني - حفظه الله - في تعريب المواد العلمية بالمعاهد الثانوية قبل الاهتمام بتعريب التعليم العالي فإنه من المؤكد أن التعليم في بلادنا أصبح يسير صوب الاتجاه الصحيح الذي أعرب عنه صاحب الجلالة - أيده الله - في غير مناسبة، وخاصة خلال الندوات التي أمر، حفظه الله، بعقدها بالرباط أو بإفران. يبقى مع ذلك أن تصيد الألفاظ العلمية في كل مجالات العلم والمعرفة التي جعلها معهد التعريب من نشاطاته يبدو أنها من اختصاص عمل المكتب الدائم لتنسيق التعريب بين الدول العربية، أما اشتغال المعهد بتصيد هذه الألفاظ فيعد، في نظرنا، مضيعة لوقت ثمين نحن في أمس الحاجة إلى صرفه فيما يعيننا على قطع الأشواط الباقية في ميدان التعريب.

آية ذلك أنه من الصالح أن تحدد مرّة أخرى بوضوح دائرة العمل الخاصة بكل من مكتب التنسيق العربي والمعهد الوطني للبحث والدراسات للتعريب مع تحديد برامج كل منهما ورسم الآفاق التي يتعين على كل مؤسسة أن تعمل على إدراكها.

ورجائي، في الختام، أن تكون هذه الملاحظات وهذه التعاليق - التي لم أهدف من ورائها إلا الصّالح العام - قد أقامت الدليل على ما يحمله الكتاب الذي بين أيدينا من علم وزاد من شأنهما أن يثيرا رغبة القراء إلى التعريف أكثر فأكثر على هذه الدراسة القيمة.



●● أصدرت أسرة الأستاذ المرحوم السيد عبد الله الجراري كتابا في 215 صفحة من الحجم المتوسط تحت عنوان (عهد الوفاء) يتضمن مجموعة الكلمات التي ألقيت في تأبين الفقيد.

وقد قدم للكتاب الدكتور عباس الجراري نجل المرحوم ●●

دراسات في الأدب المغربي : (15)



للأستاذ عبد الكريم التواتي

قامت دولة الموحدين ـ وكما سبق أن أكدنا ـ على أسس من العلوم الدينية، وانطلقت في ارتيادها مجال الوعظ والإرشاد ثم مجال وميادين الدعوة لتأسيس دولة، من مبدأ التوحيد المطلق، القائم على صفاء العقيدة وخلوص الأعمال لله رب العالمين، وتبنت في أسس دعوتها فكرة علماء السنة من أمثال الغزالي الذي قيل إنه تنبأ بتسلمها زمام السلطة الزمنية من أيدي المرابطين الذين تنكروا لدعوته الإصلاحية بإحراقهم كتبه وبالأخص كتابه (الاحياء).

وقضى زعيم الدولة (ابن تومرت) زهرة شبابه بين دور العلم، يتلقى العلم من أفواه شوامخه، ويتتلمذ على فطاحله. وفي إحدى بيوتات طلبة العلم ارتبط مصيرا رجلي هذه الدولة : زعيمها الروحي (ابن تومرت) وباني أسس وجودها السياسي (عبد المومن)، وبها توثقت أواصر العمل المشترك بينهما، فكانت هذه المقدمات إرهاصا بأن الدولة ستحتضن العلم ورجاله، وتتبنى شؤونه وقضاياه، وترعى مصالح أهله واهتماماتهم.

فكانت تلك الصور الخالدة من التشجيع والرعاية التي تجلت في إنشاء دور الطلبة، وقيام ملوك هذه الدولة أنفسهم بحماية هؤلاء الطلبة، وإحلالهم المقامات السامية، من النوع الذي يتحدث عنه المراكشي صاحب المعجب، لدى تعرضه لموقف (يعقوب المنصور) ثالث خلفاء هذه الدولة، موقفه من أولائك الذين يسعون إلى التقليل من شأن الطلبة والعمل على إبعادهم عن اهتمام رئيس الدولة فقد ذكروا أن (يعقوب المنصور) هذا رد على بعض أولائك المنتقدين لتشجيعه الملحوظ لطلبة العلم ردا عنيفا، سجلته كلمته الخالدة التي جاء فيها ـ وقد قالها بحضرة كافة كبار الموحدين يسمعهم بعد أن بلغه حسدهم للطلبة على موقفه منهم وتقريبه لهم بل وخلوته بهم ـ قال : (يامعشر الموحدين أنتم قبائل فمن نابه منكم أو فزع إلى قبيلته، وهؤلاء لا قبيل لهم، فأنا ملجأهم وإلي فزعهم، وإلي ينتسبون).

ثم كانت العطاءات المغرية للذين قدر لهم أن يتصلوا ببلاط هذه الدولة عن طريق العلم من أمثال : ابن زهر، وابن رشد، وابن طفيل، أو عن طريق الوزارة والكتابة من أمثال : ابن عطية، أو عن طريق الشعر خاصة من أمثال : (الجراوي) و(ابن حبوس) واضرابهما.

ولكن لأسباب أشرنا لبعضها فيما سبق، لم تتجسم عظمة هذه الدولة ثقافيا، ولم تبرز عبقرية أفكارها بالدرجة التي تستلفت الأنظار، وتسترعي الاهتمام إلا في الميادين الثقافية التي كان لها أقوى الاتصال بمنطلقها هي نفسها،

أعني ميادين العلوم الدينية، وبالأخص علم الكلام والعقائد وأصول الفقه والتفسير والحديث إلى حد ما، وأما الآداب بوجه عام والشعر بوجه خاص فلم يتجاوز نطاق الضروريات، أي الرسائل والخطب فيما يخص عموم الآداب، وغير قصائد المديح ـ إلا في النادر ـ فيما يخص مجال الشعر. وهكذا فنحن حين نحاول أن نضع جردا لأبرز الشخصيات الثقافية، في إطارها العام لهذا العهد نستطيع أن نعدد العشرات من الشخصيات، في مختلف الأنشطة الفكرية، ففي خصوص مثقفي فاس لذلك العهد نجد كمبرزين.

في لائحة الفقهاء :

أبا محمد صالح بن جنون الهسكوري المتوفى سنة 653 هـ وأبا الحجاج يوسف بن عمران المزدغي المتوفى سنة 655 هـ وأبا محمد عبد الله بن عيسى التادلي الفاسي المتوفى سنة 604.

وفي لائحة علماء الحديث والتفسير، نجد أمثال :

أبي عبد الله محمد بن قاسم التميمي المتوفي في حدود سنة 604 هـ وأبا الحسن علي بن محمد المعروف بابن القطان المتوفي سنة 628 هـ وأبا العباس أحمد بن يوسف السلمي المعروف بابن فرتون المتوفي سنة 666 هـ.

وفي لائحة فطاحل علماء الكلام نقف على أمثال :

أبي عمرو عثمان السلالجي المتوفي سنة 574 هـ وأبي عبد الله محمد بن عبد الكريم الفندلاوي المعروف بابن الكتاني المتوفى سنة 596 هـ والسيدة خبرونة.

وفي ميدان الطب والرياضيات :

نقف على العلماء أمثال ـ أبي محمد عبد الله بن محمد بن حجاج المعروف بابن الياسمين المتوفي سنة 601 هـ وأبي الحجاج يوسف بن يحيى الاسرائيلي المعروف بابن سمعون المتوفى سنة 623 هـ.

حتى إذا جئنا إلى ميدان الشعر والأدب لم نجد من بين الذين يمكن إدراجهم ضمن قائمة هؤلاء ـ ولو مع تجاوز سوى نفر قليل لا يتجاوز عددهم ـ في عموم المغرب ـ عدد رؤوس الأصابع ومن أبرزهم، أو في مقدمتهم، ابن عطية، والجراوي، وابن حبوس، وسليمان الموحدي، وأبو حفص عمر الأغماتي، وابن الياسمين، وميمون الخطابي وابن عبدون المكناسي.

وقد احتضنت فاس من بين هؤلاء الثمانية نصفهم وهم : ابن حبوس المتوفي سنة 570 هـ والذي سبق تدارسه، ثم ابن الياسمين الذي سنحاول إلقاء أضواء عليه في هذا الفصل، ثم أبو حفص عمر الأغماتي المتوفي سنة 604 هـ وميمون الخطابي المتوفي سنة 658 أو ـ 659 هـ.

ثم إذا نحن أردنا أن نجمل ميزات أسلوب كل أدباء الدولة الموحدية وأن نضع لها معالم فما نظن أننا نجد أكثر دقة وأكثر شمولا من الكلمات التي أوردها الشاطبي في كتابه (الإنشادات والإفادات) منسوبة للوزير أبي عبد الله وصفا ابن زمرك، وتلك التي أفضى بها إثر عودته من جولة قام بها إلى المغرب أوائل عهد المرينيين، ذلك لأننا نرى ـ مع الأستاذ جنون ـ أن العهد المريني ليس إلا امتدادا لعهد الموحدين، أو بتعبير أصح وأصرح أن هو إلا نتاج مدرستهم، قال الشاطبي ـ فيما نقله عنه المقري في نفح الطيب ـ : (أفادني صاحبنا الفقيه الكاتب أبو عبد الله بن زمرك، إثر إيابه إلى وطنه من رحلة العودة في علم البيان ـ أي لدى المغاربة ـ فوائد أذكر منها الآن ثلاثا :

الأولى : الفقه في اللغة : وهو النظر في مواقع الألفاظ، وأين استعملتها العرب، ومن مثل هذا الوجه (قرم) بفتح فكسر، وعام إذا اشتهى، ولكن لا يستعمل (قرم) إلا مع اللحم، ولا يستعمل (عام) إلا مع اللبن فنقول : عمنا إلى اللبن، وكذلك قولهم : أصفر فاقع، وأحمر قان، ولا يقال بالعكس، وهذا كثير.

الثانية : تحري الألفاظ البعيدة عن طرفي الغرابة والابتذال : فلا يستبدل بالحوشي من اللغات، ولا المبتذل في ألسن العامة.

الثالثة : اجتناب كل صيغة تخرج الذهن عن أصل المعنى، أو تشوش عليه : إذ المقصود الوصول إلى فهم المعنى وتلي اقصاه والإتيان بما يحصله سريعه ويمكنه في الذهن، وتحري كل صيغة تمكن المعنى، وتحرض السامع على الاستماع.. وأخبرني أن كتاب المغرب يحافظون في شعرهم وكتابتهم على طريقة العرب، ويذمون ما عداها من طريقة المولدين، وأنها خارجة عن الفصاحة، قال الشاطبي : وتلك المعاني لا توجد إلا فيها.

وهذه الشهادة تفيد أمرين :

تفيد أولا أن أدباء المغرب : كتابا وشعراء ـ بالتعابير العربية القديمة ـ مولعون، وهذا ما يفسر لنا مسحة التقليد المشاهدة في أشكال تناولاتهم الأدبية والتي يصيغون فيها انتاجهم، ويفسر لنا بالتالي لماذا لم يخترع المغاربة أوزانا للشعر جديدة، على غرار ما فعله الأندلسيون حين ابتكروا الأزجال والموشحات، ولكن باستثناء الملحون طبعا، وتفيدنا تلك الشهادة الشاطبية ثانيا : أن النقد الأدبي لتلك العهود في المغرب والأندلس كان قد قطع مراحل وأشواطا لا بأس بها في ميادين تقييم الإنتاج شكلا ومضمونا. والأمران معا يفيدان أن المغاربة كانوا ـ وما يزالون ـ يبرعون في الفقه بمعناه اللغوي العام، أي فقه اللغة وفقه التشريع، وكل العلوم التي تناولوها بالبحث والدرس. وهذا ما يلاحظ ـ حتى حاليا ـ في المدارس المسجدية ـ القرويين وابن يوسف أقدم جامعتين في العالم الإسلامي، وفي كل المعاهد التابعة لهما بالمغرب كمعهد (مكناس) و(الجديدة) و(تارودانت) و(وجدة) حيث يعتنى في الدراسات المباشرة هناك ـ وبالدرجة الأولى ـ وبعد المضمون، يعتنى بالبحث عن مواقع الكلمات ومدلولاتها العينية من موقعها التعبيري إن صح التعبير.

ونرى بعد هذه الإلمامة الخاطفة حول ما أطلقنا عليه مميزات الثقافة الموحدية العامة وبعد كلمتنا عن قيدوم شعراء هذه الدولة ـ ابن حبوس ـ الذي كان له وحده الحق في أن يعقب على القصائد الشعرية التي كانت تلقى أمام الخلفاء الموحدين إما بالمدح والتقريظ أو بالنقد والتجريح، أو نرى أن نشير في إيماءة خاطفة لابن الياسمين وآثاره الأدبية كنموذج لآداب علماء هذه الدولة، لأن ابن الياسمين كما نعلم جميعا هو من جهة الاختصاص يعد من علماء الحساب والرياضيات.

وابن الياسمين هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن حجاج الفندلاوي الفاسي، ينحدر أصله من قلعة (فندلاوة) تتلمذ على أبي عبد الله بن قاسم التميمي، الذي كان سمع من ابن حنين، أثناء رحلته إلى المشرق، وحيث أقام خمسة عشر عاما يتلقى العلوم والإجازات من علمائها الفحول، أمثال أبي طاهر السلفي، وأبي عبد الله الحضرمي، وابن بري، وأبي القاسم البوصيري، وأضرابهم.

ويظهر أن ابن الياسمين من الذين كانت لهم ذاكرة علمية وتقنية كبيرة وفريدة، فقد تخصص منذ حداثته في الرياضيات : الحساب والعدد والهيئة والهندسة وعلم التنجيم، حتى قالوا عنه : إنه في هذا الميدان لا يشق له غبار، ولا يدرك له شأو، ولا ينازع في الاختصاص بمعرفة دقائق هذه العلوم واستكناه غوامضها، وقد وضع مؤلفات عدة في هذه العلوم ومن أشهرها وأسيرها أرجوزته في علم الجبر التي كانت تقرأ عليه، في هذا الصدد ذكروا أنها سمعت عليه باشبيلية سنة 587 هـ، ولطموحه السياسي لم يشأ أن يتقاعس عن الخوض في ميادين الشعر والأدب، إذ كانت تلك الميادين وحدها هي التي تتيح لمتعهديها والسابحين في أفلاكها أن يتسنموا ذرى الوظائف العليا للدولة. واستجابة لهذا الطموح أخذ يعالج بالإضافة إلى اختصاصاته العلمية ميادين الأدب حتى تمكن منها بما أظهره من فرسان حلبتها، ومضى يقطع الأشواط حتى استطاع أن يلفت إليه الأنظار وأن يتمكن من ربط مصيره السياسي بمصير السلطة الزمانية لعهده، واستطاع بالإضافة إلى ذلك أن يحقق مكاسب سياسية هائلة جعلته يرأس مثقفي زمانه، ويختص بخدمة (يعقوب المنصور) ثم بخدمة ولد المنصور من بعده.

وإذا كانت مجالات الثقافة محصورة بالملوك رؤساء الدول ومن يحيط بهم من حاشية الأمراء وكبار المحظوظين فقد أثار استئثار ابن الياسمين بيعقوب المنصور وبابنه عليه حفائظ أقرانه من الأدباء والشعراء والعلماء مما جعلهم يدبرون له المكائد ويسعون بالوشايات ويدسون الدسائس، ثم ما انفكوا يرمونه بما كان معهودا أيامئذ من الاتهامات التي كان يرمى بها أمثاله من زندقة وإلحاد وتدبير المؤامرات لمخدومه، وكل ذلك عسى أن يخلو لهم الجو بالقضاء عليه. وإذا كان قد استطاع أن يفلت من أشراك الدعايات المسمومة التي بثوها حوله، فإنه لم يستطع أن ينجو من حبائل المتربصين به الدوائر وأن يصيبوا منه في النهاية مقتلا، حين لم ينالوه بنفث سموم الدعايات المغرضة قرروا تصفيته جسديا، وقد تمكنوا منه في الحمام حيث اغتالوه، إذ توفي ذبيحا بمراكش سنة 601 هـ.

ورجل من هذا الطراز، وفي تلك العهود، ما كان لرجال الطبقات والتراجم أن يحتفظوا بآثاره، وما يمكن أن يكون سجله عن معاصريه، خاصة وليس منهم إلا عدو حاسد أو مناويء حاقد، ولهذا فإن ما عثر عليه من آثار ابن الياسمين مبثوثا في بعض كتب التراجم والطبقات كان مجرد أبيات متفرقة، وردت في محاورات ومناظرات جرت بينه وبين بعض نظرائه.

وتبدو على تلك الأبيات مسحة توتر الأعصاب، والحدة في الطبع، أما أسلوبها فهو إلى الأساليب العلمية أقرب.

وكان من المقدر المفروض أو المنتظر أن يورد له (ابن القاضي) صاحب الجذوة صورا من شعره يؤيد بها ما قاله عنه في تحليته التي جاء فيها : (وله القدم الراسخة في علوم الأدب، والباع الطويل في نظم الشعر) وقد يكون عذر ابن القاضي هو نفس ما نعتذر به نحن من اختفاء آثار ابن الياسمين أو اعدامها من أولائك الذين أعدموه هو شخصيا، على أن هذه الظاهرة هي الغالبة في جل آثار أدبائنا إن لم نقل كلهم، وهذا موقف مؤرخي الآداب منها :

أفلا تجب إعادة النظر في مقرر منهاج الأدب والنصوص من الآثار المغربية ولجميع مؤسساتنا بما يضمن مزيد البحث عن هذه الكنوز المخبوءة التي لا نعرف عنها إلا تحليات مؤرخي آدابنا ؟ حتى يشمل آثار آبائنا وجدودنا كلهم ليعتز بها أبناؤنا وأحفادنا ؟.

الطِّبُّ الأندلُسي

بيْن هفوة الإهمال وغفوة النّسيان

(5)

للدكتور عبد الله العمراني

بنو زُهر

في المشرق، اشتهرت بالبلاط العباسي، أسر مسيحية امتهنت الطب، وخدمت به خلفاء بني العباس، وغيرهم من أبناء الشعب العربي، وتلك مثل أسرة ماسويه، وأسرة حنين ابن إسحاق، وأسرة بختيشوع (1). وفي بلاد الغرب الإسلامي، اشتهرت في ميادين العلوم العربية والشرعية والطبية أسرة بني زهر، سلالة العلاّمة أبي عبد الله (أو أبي بكر) محمد بن عبد الملك بن معدّ، بن مران، بن زُهر الإيادي الأندلسي الذي يقول عنه ابن أبي أصيبعة (عيون الأنباء جـ 3 ص 103) : «كان من جلة الفقهاء والمتميزين في علم الحديث باشبيلية»، كما قال عنه المقري (نفح الطيب جـ 3 ص 14) بأنه : «كان عالما بالرأي، حافظا للأدب، فقيها، حاذقا بالفتوى، متقدما فيها، متقنا للعلوم، فاضلا، جامعا للدراية والرواية». وقد توفي هذا الوالد الفاضل في طلبيرة Talavera سنة 422 هـ (1031 م).

خدمت هذه الأسرة الطبية، ملوك المغرب والأندلس وشعبي البلدين، وفيما يلي ندرس أهم أعلامها :

أولهم : أبو مروان عبد الملك بن محمد المذكور أعلاه : كان من الأطباء المهرة الحاذقين. هو من الشخصيات الأندلسية التي رحلت إلى المشرق، حيث تطبّب هناك زمانا، وتولّى رياسة الطب ببغداد، ثم بمصر، ثم بالقيروان. وعاد من الرحلة، فرجع إلى بلاده الأندلس، وقصد مدينة دانية، فرحّب به أميرها مجاهد العامريّ، وأكرمه، وأمره بالمقام فيها، فأقام، وحظي عنده، واشتهر بالتقدم في صناعة الطبّ، وعلا صيته، وبزّ أقرانه في المهنة، وأورثها نسله من بعده.

وفي دانية، حرّر بعض كتبه التي أورد فيها رأيه الشاذ في الحمام، إذ كان يعتقد أن الحمام يعفّن الأجسام ويفسد الأمزجة. وقد عاب البعض هذا الرأي قائلا : «هذا رأي يخالفه فيه الأوائل والأواخر، ويشهد بخطئه الخواصّ والعوام، بل إذا استعمل على الترتيب الذي يجب، وبالتدريج الذي ينبغي، يكون رياضة فاضلة، ومهنة نافعة، لتفتيحه للمسامّ، وتطريته وتلطيفه لما غلظ من الكيموسات». ونحن نرى أن رأي ابن زهر ربما كان له ما يبرره، فعلى الرغم من أن الحمام يفتح المسام، ويطري الجسم، إلا أنه إذا أعوزته الشروط الصحية والخلقية كان وبالا على الجسم والخلق معا... ثم رحل أبو مروان من دانية إلى اشبيلية حيث توفاه الله بعد أن خلّف ثروة ورباعا وضياعا.

---

1) بختيشوع : كلمة سريانية الأصل، مركبة من : «بخت» بمعنى : عبد، ومن : «يشوع» بمعنى : يسوع (المسيح).

ثانيهم : أبو العلاء زهر بن عبد الملك المذكور : اشتهر فعلمه وأدبه، وبالحذق في الطب، والاطلاع على دقائق الصنعة، وبكثرة التجارب لدرجة أنه كان يعرف مرضاه لأول نظرة، إذ كان لا يستخبرهم عن آلامهم، وإنما يعرف أمراضهم بالنظر فقط إلى قواريرهم (أواني بولهم)، وبجس نبضهم. ويطلق النفسانيون على هذا النوع من العمل المعتمد على الخبرة، اسم «الحكم العملي». اشتغل بالطب وهو صغير، وذلك منذ أيام المعتضد بالله أبي عمر وعباد ابن عباد ملك اشبيلية، وخدم دولة المرابطين، ونال الحظوة لديهم، وبخاصة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فقد عالجه بعاصمة المرابطين الأولى (أغمات)، وولده من بعده أمير المسلمين علي بن يوسف... الأمر الذي أكسبه شهرة فائقة، وأحله منزلة رفيعة جعلت قاضي قضاة اشبيلية العلامة ابن منظور القيسي يستغرب أن يمرض الطبيب ابن زهر ! فقال أبو العلاء زهر هذين البيتين :

قالوا : ابن منظور تعجب دائبا
أنى مرضت، فقلت : يعثر من مشى
قد كان (جالينوس) يمرض دهره
فمن الفقيه المرتضى أكل الرشا

ومن شعره الرقيق في الغزل قوله :

يا راشقي بسهام ما لها غرض
إلا الفؤاد، وما منه لها عوض
وممرضي بجفون حشوها سقم
صحت، ومن طبعها التمريض والمرض
أمنن ولو بخيال منك يطرقني
فقد يسد مسد الجوهر العرض !

أما (هند) التي طالما عشقها الواهون، وتمنوا قربها، فيقول عنها أبو العلاء زهر :

سمعت بوصف الناس هندا فلم أزل
أخا صبوة، حتى نظرت إلى هند
فلما أراني الله هندا وزيها
تمنيت أن أزداد بعدا على بعد !

إن أعمال هذا الطبيب النطاسي التي فسحت له المجال لقرض الشعر، أتاحت له في الوقت نفسه الفرصة لتأليف كتب عديدة في الطب منها : كتاب الخواص - كتاب الأدوية المفردة - كتاب الإيضاح بشواهد الافتضاح، وينقد فيه الطبيب المصري علي بن رضوان في رده على كتاب حنين ابن اسحاق المسمى : «المسائل» أو «المدخل إلى صناعة الطب». ومن كتبه أيضا : «النكت الطبية»، ألفه لابنه أبي مروان عبد الملك الذي سنتحدث عنه بعد قليل، ومن كتبه كذلك كتاب «المجربات» وهو عبارة عن الملاحظات الطبية التي وضعها أبو العلاء زهر بمراكش، وأمر بجمعها أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، وتوجد منها نسخة بمكتبة (الإسكوريال) عدد 844 (839). وقد تم جمع «المجربات» ببلاد المغرب والأندلس في جمادى الآخرة سنة 526 هـ (ابريل - مايو 1132 م) أي بعد موت مؤلفها بنحو سنة، حيث توفي بقرطبة ممتحنا من نغلة (خراج) بين كتفيه سنة 525 هـ (1131 م)، ودفن باشبيلية، خارج باب الفتح، رحمه الله.

ثالثهم : أبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء زهر : ولد في اشبيلية في تاريخ غير مؤكد، وتوفي بها في آخر سنة 557 هـ (1162 م) ودفن مع والده خارج باب الفتح. تعلم الطب على والده، وزاول المهنة وهو ابن ست عشرة سنة، ويبدو أنه كان أول طبيب «مختص»، فلم يكن «مشاركا» مثل أفراد أسرته وسائر زملائه الأطباء. يقول عنه فيديل فرنانديث (2) :

«كان أول طبيب محض Puro تسجله العصور، لأنه اشتغل فقط بالطب، متخليا بذلك عن صفة «الموسوعي» التي كان يتحلى بها حكماء عصره؛ ولأنه رأى واجبا عليه أن يؤسس الفرق - الذي بقي منذئذ حتى اليوم - بين الطبيب، والجراح، والصيدلي أو عالم النبات» وقال في موضع آخر (3) :

«وظيفته كمدير للمستشفى، وضعت تحت تصرفه جثثا للتشريح. إن قراءة كتبه تسمح لنا بالتأكد من أنه مارس تشريح الحيوانات الحية، وجثث الموتى الآدميين على الرغم من أحكام الدين والجنس. كان أبو مروان ابن زهر أعظم جراح كلينيكي في عصره لدرجة أنه تمكن من إبراز الفروق بين

(2) La Medicina Arabe en España, P. 80.

(3) نفس المصدر ص. 81.

الالتهابات الحادة أو المزمنة لغشاء القلب، وبين العلل أو الأدواء التي تعتري تجاويف القلب، واستطاع التمييز أيضا بين القرحة وبين سرطان المعدة؛ وبين حمى المستنقعات (الملاريا)، وبين سائر أنواع الحميات».

«كان مخترع القسطرة المريئية لتغذية المريض عند ضيق المرىء، واخترع الحقن الشرجية المغذية، وأسهم بنصيب من الأعمال والأفكار والاكتشافات رفع مقامه إلى الصف الأول بين شخصيات مجلس الأطباء Protomedicato الذي كان ينعقد لاختيار المرشحين لمزاولة الطب بالأندلس».

لقد حظي طبيبنا هذا بتقدير الدولتين المرابطية والموحدية : فقد ألف للأمير المرابطي إبراهيم ابن يوسف بن تاشفين كتابه المخطوط العجيب : (الاقتصاد في صلاح الأجساد) الذي يتألف من 140 ورقة، والذي توجد منه نسخة خطية في مكتبة باريس... وقد خدم الخليفة الموحدي عبد المومن بن عليّ، ونال الحظوة لديه، وألف كتاب الأغذية، وكتاب «الترياق السبعيني» واختصره ـ كما يقول ابن أبي أصيبعة ـ عشاريا، واختصره سباعيا... ومن كتبه الهامّة : كتاب «التيسير في المداواة والتدبير» الذي أهداه إلى ابنه الروحي، وتلميذه أبي الوليد ابن رشد، وقد تمت ترجمة هذا الكتاب إلى اللاتينية سنة 1280 م، وفيه تتجلى شخصية أبي مروان عبد الملك بن أبي العلا زهر بشكل واضح... ومن كتبه أيضا كتاب «الزينة» ألفه لولده أبي بكر وهو يعالج أمر الدواء المسهل، وكيفية أخذه، كما ألف له كتاب «التذكرة». وله أيضا مقالة في «علل الكلى»، ورسالة في علّتي «البرص والبهاق».

رابعهم : أبو بكر محمد بن أبي مروان عبد الملك بن أبي العلاء زهر : ولد باشبيلية سنة 507 هـ (1113 م) وتوفي سنة 595 هـ (4) (1199 م)، نشأ وتعلم باشبيلية، وتميز في العلوم والأدب، وأخذ صناعة الطب عن أبيه، وباشر أعمالها، وخدم ـ مع والده ـ الدولتين المرابطية (اللمتونية) والموحدية. ولما توفي والده في عهد عبد المومن بن عليّ، حلّ محلّه كطبيب للقصر الملكي، وخدم بعده ابنه أبا يعقوب يوسف، وحفيده أبا يوسف يعقوب الملقب بالمنصور، كما خدم ابن المنصور أبا عبد الله محمد الناصر قبل أن يتوفاه الله في أول دولته، على إثر أكلة سمّه فيها وزير حسود هو أبو زيد عبد الرحمن بن يرجان، وكان من دهاة الموحّدين.

على خلاف والده المتخصص في الطب، كان الوزير أبو بكر محمد الملقب بالحفيد لغويّا وأديبا شاعرا. قال عنه ابن دحية : «كان شيخنا الوزير أبو بكر بن زهر بمكان من اللغة مكين، وقورد من الطلب عذب معين، وكان يحفظ شعر ذي الرمّة وهو ثلث لغة العرب، مع الإشراف على جميع أقوال أهل الطبّ، والمنزلة العلياء عند أصحاب المغرب، مع سموّ النسب، وكثرة الأموال والنّشب. صحبته زمانا طويلا، واستفدت منه أدبا جليلا». (نفح جـ 3 ص. 1716).

من شعره وهو بمراكش يتشوّق إلى ولد له صغير، خلّفه وراءه في اشبيلية :

ولي واحد مثل فَرْخ القَطا
ةِ، صغيرٌ تخلّفَ قلبي لديْه
وأُفردتُ عنه، فيا وَحْشَتي
لذاكَ الشُخيْص وذاكَ الوُجيْه
تَشوَّقني، وتَشوَّقْتُهُ
فيَبْكي عليَّ، وأبْكي عليْه
وقد تعبَ الشوقُ ما بيْننا
فمنْه إليَّ، ومنّي إليْه

وسمع الأبيات الخليفة الموحدي يعقوب المنصور، فقام بعمل يدلّ على تقديره للعلم، وعلى المنزلة السامية التي كان

4) اعتمدنا في تاريخ المولد والوفاة على ما ذكره المقرى في نفح الطيب (جـ 3 ص. 17) نقلا عن أبي الخطاب ابن دحية مؤلف كتاب «المطرب من أشعار أهل المغرب»... ولا عبرة بما ذكره مؤلف «عيون الأنباء» (جـ 3 ص. 110) من أن وفاته كانت عام 596 هـ... وعمّر نحو الستين سنة... إذ الصواب أنه عمّر ثمانًا وثمانين سنة هجرية. (86 سنة ميلادية) حيث توفي يوم الخميس 21 من ذى الحجة الحرام من تلك السنة 595 ؛ على أن هناك من يقول بأنه عمّر إحدى وتسعين سنة هجرية.

يحتلّها الحفيد ابن زهر : أرسل الخليفة المهندسين إلى اشبيلية، وأمرهم أن يحيطوا علما ببيوت ابن زهر وحارته، ثم يبنوا مثلها في مراكش العاصمة، ففعلوا ما أمروا به في أقرب وقت، وأثثوها بمثل أثاثه، وجعلوا فيها مثل آلاته، ثم أمر المنصور بنقل عيال ابن زهر وأولاده وحشمه إلى تلك الدار، ثم احتال عليه حتى جاء إلى الموضع، فرآه أشبه شيء ببيته وحارته، فاحتار، وظن نفسه يحلم. ثم قيل له : ادخل المنزل الذي يشبه منزلك، فدخله، فإذا ولده الذي تشوّق إليه، يلعب في البيت فحصل له من الفرح والسرور ما لا مزيد عليه !!

ومن شعره، وقد اشتعل رأسه شيبا، قوله وقد نظر إلى المرآة فهاله ما رأى :

إنّي نظرتُ إلى المرآة إذْ جُليتْ
فــأنكرتْ مُقْلتــايَ كلَّ مَـا رَأتَـا
رَأيْتُ فيهـا شُـوَيْخـاً لستُ أعرِفُـه
وكنْتُ أعْرِفُ فيهَـا ـ قبـلَ ذاكَ ـ فتى
فقلْتُ : أيْنَ الذي بـالأمسِ كانَ هُنَـا ؟
مَتى تَرحَّـلَ عن هـذا المكانِ ؟ مَتى ؟
فاستَجْهَلَتْني، وقالتْ لي، ومـا نَطقَتْ :
قَدْ كانَ ذاكَ، وهـذَا ـ بعْـدَ ذاكَ ـ أتى
هـوّنْ عَلَيْـكَ، فهـذا لا بَقَـاءَ لَـهُ
أمَا تَرَى العُشْبَ يَفْنَى بعْدَمـا نَبتَـا ؟
كانَ الغَـواني يَقُلْنَ : يـاأخيّ ! وقـدْ
صَارَ الغَواني يَقُلْنَ ـ اليَوْمَ : ـ يا أبتَا !

حقا، إن أبا بكر ابن زهر، لم يكن مثل أبيه طبيبا مختصا، بل كان مشاركا في علوم شتى (قرآنية، حديثية، شرعية، أدبية) وكان شاعرا مفلقا كما رأينا في هذين النموذجين، بل كان شاعر موشحات. يقول عنه العلامة ابن دحية : «والذي انفرد به شيخنا وانقاد لطباعه، وصارت النبهاء فيه من خوله وأتباعه، الموشحات، وهي زبدة الشعر ونخبته، وخلاصة جوهره وصفوته، وهي من الفنون التي أغرب بها أهل المغرب على أهل المشرق، وظهروا فيها كالشمس الطالعة والضياء المشرق». وخشية الإطالة نحيل القراء على كتب الأدب الأندلسي وتاريخه، ففيها ما يشفي الغليل، ويشبع النّهم.

ألف أبو بكر ابن زهر لأبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي كتابه «الترياق الخمسيني»، ومن المعلوم أن عمل «الترياق» كان الخليفة لا يعهد به إلاّ لأكبر الأطباء مقاما، وأكثرهم كفاءة، وأمتنهم دينا، وهي صفات متوافرة كلّها في هذا الطبيب الأديب اللبيب.

خامسهم : أبو محمد عبد الله بن أبي بكر المذكور : يذكر مترجموه أنه كان جميل الصورة، حسن الرأي، مفرط الذكاء، محمود الطريقة، محباً للبس الفاخر من الثياب، وكان كثير الاعتناء بصناعة الطبّ، والنظر فيها، وتحقيق معانيها. اشتغل مع والده، فحذق المهنة، ووقف على كثير من أسرارها. وكان الخليفة الموحدي أبو عبد الله محمد الناصر بن أبي يوسف يعقوب المنصور يحترمه، ويعرف مقدار علمه، ويقدر أسرته حقّ قدرها. وقد ألّف كتابا عن «أمراض العيون».

كلّفته رحلته الأولى إلى المغرب نحو عشرة آلاف دينار، ولما اجتمع بالخليفة الناصر في المهدية (بتونس) حين افتتحها، قال له : إني يا أمير المومنين ـ بحمد الله ـ بكل خير من إنعامكم وإحسانكم عليّ وعلى آبائي، وقد وصل إليّ مما كان بيد أبي من إحسانكم، ما يغنيني مدّة حياتي وأكثر، وإنما أتيت لأكون في الخدمة كما كان أبي، وأن أجلس في الموضع الذي كان يجلس فيه بين يدي أمير المومنين... فأكرمه الناصر، إكراما كثيرا، وأطلق إليه من الأموال والنّعم ما يفوق الوصف.

ولد بمدينة اشبيلية سنة 577 هـ (1181 م)، وتوفي مسموما سنة 602 هـ (1205 م) برباط الفتح حيث دفن بصفة مؤقتة، قبل أن ينقل جثمانه إلى مقبرة آبائه باشبيلية خارج باب الفتح، فكانت حياته خمسا وعشرين سنة فقط، ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ وترك ولديه أبا مروان عبد الملك، وأبا العلاء محمد، وكلاهما فاضل في نفسه، كريم في جنسه، وكان للأخير منهما اعتناء بالطب، واهتمام جيّد بكتب جالينوس، فكان آخر طبيب في هذه الأسرة التي خدمت الطب خدمات جلّى.

أقوال ونظريات

نثبت فيما يلي بعض الأقوال الحكمية التي يمكن اعتبارها نظريات علمية، قال الحفيد أبو مروان عبد الملك :

ـ الخبرة وحدها هي المرشد الأمين، ومحكُّ الممارسة المعقولة الصالحة لتبرئة ساحة الطبيب أو إدانته يوم القيامة.

ـ فنّ العلاج لا يتعلّم بأبحاث فنّية مفصّلة، ولا بشقشقات سوفسطائية، ولكن بعمل دؤوب، مصحوب بالرأي الثاقب.

ـ لنَفِرَّ من تغافل العجائز وعدم تبصُّرهنّ، فرارَنا من تُرّهات المنجمين غير المجدية.

ـ ليس صحيحا تفوُّقُ بعض الأعضاء على بعض، ولا تفوُّقُ القلْب والمخّ على ما عداهما، إنما الكل في ارتباط وانسجام تامَّيْن.

ـ يوجد طبيبان : طبيب روح، وطبيب بدن، والأرواح ثلاثة : التي تعيش منها في المخ هي العاقلة، وتميّز الإنسان عن الحيوان، وترجمانها : اللسان.

ـ أنبل الحواس : العين.......... ولا تقلُّ أقوالُ ابن رشد عن هذه أهمية. قال :

ـ للمخّ أربع خاصيات هي : التخيل، والتأمل أو الفكر، والذاكرة، والحافظة، وتتميز الأخيرة عن سابقتها بأنها متواصلة مستمرة، بينما الأولى متقطّعة.

ـ يستقر التخيل بالجزء الأمامي من المخّ، بينما تستقر الذاكرة في الجزء الخلفي منه.

ـ الأعراض التي ينبغي أن يركز عليها الطبيب، هي : الكظّة، الدم ووفرتُهُ، والنبض، والبول، ثم تأثير الأيام العصبية الحرجة.

ـ الرَّثْية (داء المفاصل) تتحرك مرارا كثيرة إلى الأعضاء الداخلية.

ـ من الممكن أن تحبل امرأة من جرّاء استحمامها في حوض أمْنَى فيه رجلٌ.

صوْبَ المغيب

إذا اكتمل البدر، واستوفى الشهر أيام نصفه الأول، فلا ننتظر منه أن يبقى مكتملا، أو أن ينجو من نقصان، أو أن يتخلف عنه محاق، بل لا بدّ مما ليس منه بُدٌّ ! هكذا حال الطب الأندلسي، إنه كالبدر، كان هلالاً، ثم صار بدراً مكتمل الدائرة، ثم عاد هلالاً فمحاقاً... لعل الفرق الوحيد بين الإثنين أن أحدهما يختفي عن الأنظار ليرقب مرة أخرى فيظهر في الأفق من جديد، بينما الآخر اختفى ليظلّ محفوظاً في الصدور، مسطوراً في الكتب والصحائف ليس إلاّ.

ربّما طال بنا الكلام، وربما كان المقام يتطلب الاختصار أو الاقتصار، لذا يمكن أن نكتفي بما مضى عن باقي التفاصيل، ويكفي هنا أن نقفز عن القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) إلى القرن الذي بعده، لنستضيء فيه بنور طبيبين أندلسيين متعاصرين بل صديقين : أحدهما : العبقري الغرناطيّ ذو الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب السلماني، والآخر : طبيب المرية أبو جعفر أحمد بن خاتمة الأنصاريّ توفي أولهما بفاس سنة 776 هـ (1374 م)، وتوفي ثانيهما قبله سنة 770 هـ (1369 م)، وترك كلاهما علما غزيرا، وذكرا جميلا وثناء عطرا... إن نور هذين الطبيبين الساطع، الذي يُغْشي الأبصار أو يكاد، هو أشبه بنور الشمعة الذي يزداد قوة واتّقادا قبيل الانطفاء.

للطبيب لسان الدين ابن الخطيب عدة كتب طبيّة بعضها في حكم المفقود :

1 ـ عمل من طبّ لمن حبّ : وهو من أهم أعماله الطبيّة، ألفه أثناء إقامته بفاس. يتألف من جزأين في نحو 320 صفحة من القطع الكبير. توجد منه نسخة حبّست على خزانة جامع القرويين في رجب من سنة 806 هـ (يناير ـ فبراير 1404 م). ألف ابن الخطيب هذا الكتاب لوليّ نعمته المستعين بالله السلطان أبي سالم المريني، ومما جاء في التقديم قوله :

لما رأيت الأرضَ دونَك قدرها
ورأيت حقَّك آخذاً بعِناني
أهديتُك العِلْمَ الذي بقَبُوله
كَتبَ الإلهُ مزيةَ الإنسان
واخْتَرتُ فنَّ الطبِّ منه لقَوْلِهِمْ :
العِلْمُ ـ فيما خَرَّجوا ـ عِلْمَانِ :
فالعِلْم بالأدْيانِ عِلْمٌ أوّل
والعِلْم بالأبْدانِ عِلْمٌ ثانٍ...الخ.

2 ـ أرجوزة في الطبّ : نظمها ابن الخطيب خلال إقامته بمدينة سلا (المغربية)، وتقع في نحو ستمائة وألف بيت، وتتضمن ذكر جميع الأمراض، ووصف أعراضها، وكيفية تدبيرها ومعالجتها.

وتعدّ هذه الأرجوزة في حكم المفقودة.

3 ـ رجز في الأغذية : ويقع في نحو مائتين وألف بيت، ويتضمن ذكر الأغذية مرتبة على حروف الهجاء، شارحا طباعها ومنافعها ومضارها وكيفية إصلاح خللها. ويقع في نحو ثلاثين ورقة من القطع المتوسط.

وقد افتتح الناظم هذا الرّجز بقوله :

الحمد لله الذي ما من أذى
يلحقُه، ولا احتاج لغذا

الصَّمد الفَرْدِ الذي لا يَطْعَمْ
وعَمّتِ العَالَمَ منه النِّعَمْ

4 ـ الوصول لحِفْظ الصحة في الفصول : توجد من هذا الكتاب بالمكتبة الملكية بالرباط ثلاث نسخ تقع إحداها في 149 لوحة كبيرة مزدوجة، وكان فراغ مؤلفه منه في 12 جمادى الأولى 771 هـ (12 ـ 12 ـ 1369 م) بغرناطة المحروسة، وتقع الثانية في مائتي لوحة كبيرة، وتم نسخها للسلطان عبد الله الغالب السعدي في أواخر شعبان 978 هـ (أواخر يناير 1571)، بينما الثالثة تقع في 146 لوحة كبيرة، وتم نسخها في 22 من ذي الحجة، عام 1000 (1592/9/29 م). وتوجد نسخة أخرى بخزانة جامع القرويين، تم انتساخها سنة 985 هـ (1573 م).

5 ـ الأرجوزة المعلومة : وهي منظومة في علاج السموم، وسماها هكذا، في مقابل «الأرجوزة المجهولة» التي وضعها أبو بكر ابن طفيل، وتوجد منها نسخة بمكتبة جامع القرويين. ألف ابن الخطيب هذه الأرجوزة أثناء إقامته بمدينة سلا.

6 ـ مُقنعة السّائل، عن المرض الهائل : وهي رسالة طبية كتبها ابن الخطيب بمناسبة، انتشار الطاعون الجارف الذي اكتسح بلدان المشرق والمغرب والأندلس، ووصفه الأوربيون «بالموت الأسود»، وكان هذا الوباء قد اكتسح هذه البلدان سنة 749 هـ (1348 ـ 1349 م)... يصف المؤلف هول هذا الوباء بقوله :

«ولم يتقدم ـ فيما اتّصل بأولي الاطّلاع على تواريخ الأمم ـ خبر وباءٍ بلغ مبلغه من أخذه ما بين ولايتي المشرق والمغرب، واتصاله بالجزائر المنقطعة في البحر، واستئصاله أهل البيت والقرية، على سبيل واحدة، يتعلق بالناس تعلّق النار بالخلفاء والهشيم، بأدنى ملامسة من المارّ بمريض، أو بمباشرة ثوبه وآنيته، وفيما ظهر فيه نفث الدم أشدّ، وعند قبض الروح أعظم». وذكر «أنّه بين الأماكن الوبيئة أخفّ، وفي الضعفاء وأهل الشظف أفتك، وبصنفي النساء والصبيان أشطى...» أثبت ابن الخطيب في رسالته هذه أن المرض يُعدِي، وليس عقوبة إلهية، كما كان البعض يعتقد.

توجد من هذه الرسالة نسخة بمكتبة الاسكوريال، تحمل رقم 1785. وقد نشرت بنصها العربي مع ترجمة ألمانية في «مجلة الأكاديمية الباقارية» سنة 1863 م وتشغل عشر لوحات (39 ـ 49) ضمن مجموع.

أما الطبيب الآخر، الأديب الأريب أبو جعفر أحمد بن خاتمة الأنصاري، فقد كتب أيضا عن الطاعون المذكور الذي اجتاح بلدته (المرية) في نفس السنة، وسمى رسالته : (تحصيل غرض القاصد، في تفصيل المرض الوافد)، وأثبت بالحجة والبرهان ـ كذلك ـ أن المرض مُعْدٍ. تشغل رسالة ابن خاتمة من المجموع المشار إليه أعلاه، اللّوحات 49 ـ 105، وتُعرفنا الرسالة بمعنى الوباء لغةً واصطلاحاً، وتصف كيف ظهر الوباء بالمرية، وما أوقعه بالسكان من الفتك الذريع : ثم تتحدث الرسالة عن التحوُّطات الواجب اتّخاذها بهذا الصدد، كما تتحدث عن الأطعمة والأشربة المناسبة، وعن العلاج، وذلك في إسهاب وتفصيل أكثر من رسالة صديقه الحميم ابن الخطيب.

يقول روم لاندو (العرب والإسلام ـ تعريب م. البعلبكي) : «إنّ أياً من هذين الطبيبين، لم يقدم لنا تعريفا للعدوى جامعا مانعا، لأنّ تقدّم المعرفة العلمية آنذاك، كان دون المستوى الذي يساعد على وضع مثل هذا التعريف، والحقّ أن الكلمة الفصل في الطبيعة الحقيقية للعدوى، ما كان لها أن تقال إلا في العصر الحديث مع مكتشفات «باستور» البكتريولوجية. ومع ذلك فقد كان ابن الخطيب وابن خاتمة أول من أعطيانا وصفا سريرياً للعدْوَى، وبذلك أحدثا ثورةً في مفاهيم عصرهما الطبيّة».

تحية لعلماء المغرب

للشاعر الأستاذ محمد العربي العلوي البكري

الله أكبر بالإسلام ننتصر … والله أكبر بالإسلام نفتخر

شمس الهداية من صحرائنا طلعت … والملك من ههنا والفتح والظفر

يا نخبة المغرب الأقصى واخوتنا … أهلا بكم فرحاب الطهر تنتظر

قدومكم لبلاد أنجبت أسدا … خاضوا الميادين للتوحيد وانتصروا

فمن علي إلى المولى الشريف إلى … محمد حيث جاء البدو والحضر

ببيعة للأمير الشهم ينقذهم … من المظالم والفوضى وقد شكروا

ثم الرشيد الذي قد عاش ممتطيا … سرج الجواد إلى أن جاءه القدر

وباني مكناسة ذاك العظيم الذي … قد خلدت مجده الأخبار والسير

خمسون عاما جهاد ما ونى أبدا … ولا ثنى عزمه جن ولا بشر

سلوا القلاع التي في كل مغربنا … سلوا الثغور عن الأسرى وقد حشروا

قد مات جند العدا من بأسه فرقا … ومن نجا منهم فسجنه الحفر

قد وحد المغرب الأقصى بكامله … وافتك كل أسير ما له وزر

قاد البلاد إلى نصر فحققه … ما كان يشغله قصر ولا وبر

فخاطبت وده الأجناس طالبة … حسن العهود إذا اجنادها خسروا

وكان من عقدهم تاج الملوك الذي … بالنفس ضحى لصون العرش إذ غدروا

ذاك ابن يوسف والأقطاب تعرفه … حكما ورأيا وحلما كلها درر

لم يرض للقارة السمراء عيشتها … فنادى أن حطموا الأغلال وانتصروا

فاغتاظ منه (القيم) إذ رأى أمماً ... تجاوبت للندا والخصم يندحر
فاوم العرش عن شعب له أملا ... في جعل حد لما يأتي وما يذر
لكن سدته والله عدته ... رد العدو على الأعقاب ينزجر
وإذ نفاه فقام الشعب قاطبة ... ملقنا للعدا أن عرشه القمر
فعاد منتصرا والشعب أجمعه ... مجند للفدا إذ كيف ينتظر
فما قضى نحبه حتى رأى شبله ... في عز صولته والخصم يحتضر
مولاي ياحسن جلت فضائليم ... فما تعددها الأقلام والصور
ياسعد مغربنا فالعرش وحده ... لذاك دام قرونا عيشه نضر
وهذه نعمة كبرى تعهدها ... في كل أزمنة أبطاله الغرر
قد خط مالكنا للشعب منهجه ... فحققت أمره في شعبه الأطر
يا أهل رابطة العلم التي ورثت ... عن النبي الهدي والنور ينتشر
قد سن سيدنا لجمعكم سننا ... ما كان غيركم لحفظها نفر
فارشدوا فجميع الشعب منتظر ... علما ونصحا وأخلاقا لمن قدروا
لا سيما والإمام الفذ قائدنا ... أعطى المثال فلا عذر ولا حذر
ما كان أقدرنا ان نية خلصت ... الا يجابهنا غر ولا أشر
كان الأوائل من أعلامنا حصنا ... ردوا الأباطل بالإقناع ما حضروا
فكان مجتمع سادت أصالته ... وكان مجتمع للدين ينتصر
إخواننا مرحبا أهلا بمقدمكم ... وشكرنا لكم يهمي به المطر

الفكر الغربي على طريق الإسلام اليوم

للأستاذ أنور الجندي

في وقت متقارب من رمضان وشوال لعام 1403 هـ، أعلن في فرنسا إسلام المفكرين الطبيب العالم موريس بوكاي، والفيلسوف الباري روجيه جارودي. ماذا تعطي هذه الظاهرة للفكر الإسلامي، هل هي ثمرة حقيقية لأثر الإسلام في الفكر الغربي: هذا الأثر الذي بدأ منذ أكثر من سبعين عاما بكتابات (مترماس كارليل) في كتابه الأبطال عن النبي محمد ﷺ، وكتابات (جوستاف لوبون) في حضارة العرب وعن الإسلام وتصريحات برنارد شو الذي تنبأ بأن أوربا ستقبل الإسلام فكرا في خلال قرن من الزمان، هذا التيار الذي وصفناه في دراستنا (الإسلام في غزوة جديدة للفكر الإنساني) وقد جاءت بعد ذلك علامات كثيرة وإضافات أكدت وجود هذا التيار ولعمقه وامتداده بكتابات كثيرة كان من أبرزها كتاب (شمس الله تشرق على الغرب) للدكتورة سجريد هونكه وإسلام عبد الله كوليام، وعبد الكريم جرمانوس، وخالد شلدريل وهم من أبرز الباحثين المفكرين الذين اهتدوا إلى الإسلام إلى ما كتبته مريم جميلة في الأخير، كل هذا يحاول أن يصور هذا المجرى الجديد الذي يريد أن يقتحم صمود الفكر الغربي وماديته ووثنيته، ويدل على أن هناك عديدا من كتاب الغرب بدأوا يتساءلون عن الإسلام كمخرج من الأزمة العالمية للإنسان المعاصر بعد أن جربوا إيديولوجيات الليبرالية والماركسية ودرسوا فكر البرهمية والبوذية وغيرها ولم يجدوا فيها مخرجا للنفس الإنسانية التي تواجه في الغرب أزمة الاغتراب والتمزق والغثيان والانحلال.

وقد جرت هذه الريح الصفراء في أوديتنا وحاولت أن تجتاح أبناءنا. الحقيقة أن هذين الرجلين مازالا من وقت يبحثان عن المنقذ والمخرج لقلقهما، وقد كان موريس بوكاي قد اتصل بهذه الدراسات عندما بدأ يدرس الظواهر العلمية التي تحدثت عنها الأديان، وقرأ ترجمات معاني القرآن وقرأ التوراة والإنجيل، وكنا نلتقي به في الجزائر وفي العام 1399 الهجرية وجهت إليه رسالة فقد رأيت إلحاح بعض المسلمين عليه في أن يعلن إسلامه، فقلت له إن ما تكتبه هذا يدل على أنك مسلم في أعماقك فإن تكن ظروفك الشخصية ما زالت تحول دون ذلك فإننا نرجو أن تكون من أهل لا إله إلا الله فقد قدمت للقرآن وللإسلام مجموعة طيبة من الحقائق في كتابك «الدين والكتب المقدسة والعلم» الذي ترجم إلى عديد من اللغات، وفي مقدمتها اللغة العربية قبل 1978. وكان من قبل قدم إلى القاهرة للبحث عن فرعون موسى الذي غرق وقد استولى على المومياء واكتشف الكسر الذي أصاب

الجسد في مواضع مختلفة نتيجة الغرق، وكيف نجاه الله لتجرى عليه هذه الفحوص العلمية حيث أدخلت أجهزة مضيئة إلى جوفه وصدق الله تعالى :

﴿اليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية﴾.

أما جارودي فقد شهد معنا الملتقى الإسلامي في 1399 هـ في (تمرنست جنوب الجزائر ولم تكن قد بدرت منه بادرة ظهرت من بعد في كتابه «حوار الحضارات»، والحقيقة أن رأينا في جارودي لم يكن مشجعا على هذه الخطوة الجريئة، فقد كنا نعتقد أنه يتطلع إلى الحضارة الإسلامية لتكون منقذا للحضارة الغربية عن طريق مفاهيم الإسلام في العدل الاجتماعي. ولكننا اليوم بعد أن تدافقت رسائله في السنوات الأخيرة : كيف تحققت إنسانية الإنسان، نداء إلى الأحياء، وكتابه الأخير قبل الإسلام بقليل الذي أطلق عليه (Promesses of Islam)والذي ترجم بكلمة (وعود الإسلام) هذه الرسائل تدرجت به في النظر إلى الإسلام على نحو جاء معه إعلان إسلامه مفاجئة حقيقية بينما كان إعلان إسلام بوكاي مسألة وقت، كما يقولون.

وعلى كل حال، فإنني أزعم أن كلا الرجلين دخل الإسلام عن طريق القرآن : معجزة الدهر، وإلى قيام الساعة جاءت جارودي من منطلق الحضارة الإسلامية ومعطياتها العلمية وعدلها ورحمتها وعطائها الكريم للنفس الإنسانية والارتفاع بها عن العبودية للأوثان وللإنسان وجاءت بوكاي من منطلق العلم الإسلامي وذلك الإعجاز القرآني الذي كشف عنه العلم الحديث في «حقائق» علمية وليس في نظريات قد تكون عرضة لتغير تفسيرات العلم.

وحين نمضي مع تجربة «موريس بوكاي» الطبيب، نجده ينطلق من نقطة «**تطبيق مكتسبات العلم الحديث على الكتاب المقدس**»، وقد أعطت هذه الدراسة التجريبية لنفس بوكاي ذلك اليقين الذي لا يتطرق إليه الشك بأن القرآن كتاب نزل موحى به من عند الله تبارك وتعالى، وأن الكتاب المقدس «التوراة والإنجيل» أو العهد القديم والعهد الجديد قد أصابه التحريف وقد أشار إلى نوعين من البحوث كشفت هذه الحقيقة: أولها : «أبحاث مجمع الفاتيكان الثاني 1970 ورأسه اللاهوتيون البريطانيون السبعة بما فيهم رئيس لجنة مذهب كنتيه اتحلا وقد نشروا أبحاثهم عام 1977 تحت عنوان «وهم الإله المجسم» وهو عبارة عن منازعة حقيقية لفكرة التثليث.

أما أبحاث مجمع الفاتيكان ابتداء من عام 1970 وهي من إنتاج لاهوتيين مسيحيين قاموا بدراسة دقيقة للنصوص مستعملين كل العناصر التي تمنحها لهم المعرفة العصرية في مجال علم اللغة وعلم الآثار والتاريخ انطلاقا من حقيقة واقعة هي : «أن الناس اليوم يسلمون بأن الأناجيل الشرعية الأربعة ليست سوى ترجمة لما كانت تعتقده في عيسى جماعات مختلفة لا تتفق على رأي واحد» وأن شروح الترجمة الكونية الأخيرة للتوراة (العهد الجديد ـ 1972) هي عمل اشترك في إنتاجه أكثر من مائة اختصاصي من الكاثوليك والبروتستانت لتصرح بذلك دون أي التباس أو غموض. بل إن مجمع الفاتيكان الثاني أكد في التصريح المجمعي (رقم 4) أن هذه الكتب تتضمن نقصا وحتى باطلا وتبين الأعمال الحديثة أنه من المشروع تقييم الإنجيل بمثل هذه التقييمات فكيف يتصور كون هذه الأناجيل لا تنقل إلينا الحقيقة التي أوحى بها الله عندما نجد فيها مقاطع لا يقبلها العقل إطلاقا مثل هذه السلاسل من نسب عيسى التي هي تلفيقات خيال لوقا ومتى المقدمين لنا قوائم لأجداد مختلفة ونسب لوقا لعيسى منذ آدم خمسة وسبعين جدا. إن ما نعرفه من الحد الأدنى لتقدم الإنسان على وجه البسيطة ليجعل مثل هذا القول في عصرنا أمرا غير مقبول فكيف يلقن الله الناس ما لا يطابق الواقع ؟ كذلك أشار بوكاي إلى شكوك أخرى في الكتب المقدسة هي بمثابة تناقضات بين يوحنا ومرقص ولوقا ومتى بالنسبة لوقائع يوردها أحدهم على أنها حدثت «المعجزة» ويوردها الآخر على أنها ستقع عندما يبعث عيسى من جديد، ووصية عيسى، وقومه سر القربان المقدس، ويقول : هذه التناقضات درسها الخبراء المسيحيون وبينوا أن صناعات متتالية لنصوص إنجيلية قد لفقت انطلاقا من روايات سمعية عن عيسى كانت ذائعة لدى الجماعات المسيحية الأولى وأن ذلك كله أفضى إلى الأناجيل الحالية وهكذا يقوم الدليل القاطع على تلاعب الرجال بالمعلومات الأولية بهدف إنتاج نصوص مكتوبة للمناسبة أو للنضال (كما وصفها الأب كانجيير مدير معهد باريس الكاثوليكي) لأنها كانت نتيجة

لصراعات بين جماعات متنافسة تسعى كل واحدة إلى إنقاذ نظراتها الخاصة.

هذا هو (التحدي الأول الذي واجه بوكاي) : الشك في مصادر الكتاب المقدس، أما (التحدي الثاني) فهو تناقض قصص العهد القديم : كقصة الخلق والطوفان فهي لا تتفق مع المعلومات الحديثة عن تكوين العالم أو معطيات التاريخ، ويحسم الموقف بقوله : لقد أدت المعارف العصرية والمتنوعة والمطبقة على دراسة النصوص بالأفكار الموضوعية إلى عدم منح التوراة تلك الأصالة التي كانت تضفى عليها دون برهان أو دليل في القرون الماضية وأن المعارف العصرية والاستعانة في دراسة التوراة بالمعطيات المفيدة لهذا البحث أدت في الغرب إلى تغيير المفاهيم التي كانت إلى ذلك الحين مفاهيم تقليدية ومسلما بها دون مناقشة. وان العقول المضطربة بفعل الاكتشافات أدت إلى التشكيك في أصالة مجموعة الكتب اليهودية والمسيحية؛ مما جعل المعلومات العصرية، بالمقارنة مع الكتب المقدسة مؤدية إلى رفض الإيمان بالله. بل أن هذا الجحود وصل إلى حد رفض اعتبار ما يمكن أن يقدمه لهم الإسلام كأنما وحي الله قد وقف عند حد عيسى.

ثم يدخل إلى تجربته في وضوح فيقول :

قبل أن اعرف بزمن طويل ما يمكن أن تقودني إليه أي دراسة للإسلام كنت دائم الاعتقاد بأن المعرفة العلمية مهما كانت ـ ومهما قيل فيها ـ كفيلة جدا بأن تقود إلى التفكير في (وجود الله) تبارك وتعالى.

ويتساءل : ألا يؤيد التعقد البالغ للكائنات العليا وجود تنظيم محكم جدا يقف وراء هذا الترتيب العجيب لظواهر الحياة ؟ فنحن حين نأخذ بعين الاعتبار ذلك التنظيم العجيب الذي يقف وراء نشوء الحياة وبقائها يبدو (عامل الصدفة) كما لو كان أقل احتمالا أكثر فأكثر، ويوم أن شرعت في دراسة القرآن وجدت هذا التوافق بين الدين والعلم في تفكير يقوم أساسا على معطيات مادية. لقد وجدت في قراءة القرآن تجسيدا جديدا لهذا التوافق بين الدين والعلم : هذا التوافق الذي كان يمكن لدراسة النصوص التوراتية من حيث المنطق أن تصرفني عنه. ولقد كان لدراسة موضوعية لنص قرآني على ضوء المعارف العصرية جعلتني أكتشف كلاما يتعلق بظواهر طبيعية عديدة لا يمكن أن ننسبها إلى إنسان نظرا لما نعرفه عن تاريخ العلوم، لقد تجلى لي أن دراسة القرآن على ضوء المعارف العصرية تقود إلى اكتشاف كلام قرآني سابق لزمانه بما يزيد على ألف سنة. إن ما نعرفه من تاريخ العلوم ليجعل من المستحيل أن يكون (إنسان) ما قبل نحو من أربعة عشر قرن هو قائله وحيث أن القرآن يضع أمام تفكيرنا تأكيدات تمثل تحديا للتفسير البشري فإنه يبدو أن كل تناقض بين الدين والعلم قد أبطله هو بالذات.

تجربة بوكاي مع القرآن

حينما نتأمل الحديث النبوي «أطلب العلم من المهد إلى اللحد» و «اطلب العلم ولو في الصين» بهذا نفسر دون صعوبة ذلك التقدم العلمي البحت الذي شهده العالم الإسلامي فيما بين القرن الثامن والقرن الثاني عشر الميلادي بينما لم نجد لدى البلدان المسيحية سوى التقليد المطلق مع المدرسة اللاهوتية السائدة وركود المعرفة، وفي عهد (قرطبة) الزاهر، كان الناس في مختلف بلدان أوربا يؤمون جامعاتها الشهيرة للتزود من العلوم وقد كشفت لي تجربتي مع القرآن الحقائق التالية :

أولا : قد تبينت أن النص الموجود بين الدين اليوم (النص القرآني) هو عينه الذي كان متداولا في فجر الإسلام، فهذا اليقين شرط أساسي لصحة المقابلة بين نص القرآن والمعارف العصرية.

ثانيا : هناك عنصر هام يكمن في المقارنة بين نصوص القرآن ونصوص التوراة فيما يتعلق بالخلق على ضوء التصورات العامة الحديثة عن خلق الكون وتصوره، فنحن لا نجد في القرآن ما نجده في التوراة من أخطاء، وهي ملاحظة تقضي نهائيا على الفرضية التي سبق أن ابديت الغرب ودون حجة والتي مفادها أن ما في القرآن يكون قد نقله إنسان ما من التوراة.

ثالثا : كل المعلومات التي قدمها القرآن عن الأرض ولاسيما دورة الماء في الطبيعة وعن مفاهيم تهم العلوم الطبيعية والفيزيولوجيا وتوالد البشر، كل هذه الآيات تعرض القول على إنسان موضوعي صادق النية إنه يستحيل

على إنسان كان يعيش في العصر الذي نزل فيه القرآن أن يعبر بمثل هذا الكلام من تلقاء نفسه.

رابعا : بالمقارنة بين قصص قرآنية وقصص توراتية (الخلق - الطوفان - خروج موسى من مصر) تبين سلامة القرآن.

بالنسبة للتوراة، حددت زمانه في عصر لم تحصل فيه أية كارثة كونية لأسباب تاريخية باتت معروفة جيدا في عصرنا الحديث، في حين أن القصة التي أوردها القرآن للطوفان بوصفه عقابا سلطه الله على شعب نوح، بسبب كفره، لم يحدد له زمان، قصد أن لا يرقى إليها أي نقد من هذه الوجهة. فهل استطاع الناس فيما بين الحقبة التي وضعت فيها قصة التوراة والعصر الذي أوحي فيه القرآن أن يحصلوا على معارف في هذا الموضوع ؟

من المؤكد أنهم لم يحصلوا على شيء من ذلك، فكيف تسنى لرجل أن يستفيد منه كل ما لا يقبله العقل في العصر الحديث، وأن لا يعتمد من الأحداث والأخبار إلا ما يرتفع عن كل نقد من الوجهة العلمية كما يقولون وكما تصدق هذه الفكرة على قصة الطوفان تصدق أيضا على ما جاء في القرآن بصدد موضوعات أخرى لا مناص من التسليم هنا بتفسير آخر غير التفسير البشري لا يمكن إلا أن يكون وحيا من الله جاء لتصحيح ما اقترفه الناس من أخطاء في صياغة الكتب السماوية السالفة.

خامسا : هناك تعارض صارخ بين التوراة (العهد القديم والعهد الجديد) بين مقاطع نصوصها وبين المعارف الحديثة، على أن ما يجري مجرى اليقين منذ أن حصلت لنا مفاهيم، كانت إلى ذلك الحين تعوزنا عن أصول نصوص التوراة وعن صياغتها التحريرية وبلوغها إلينا، هو أن دور التلاعبات البشرية بها دور كبير جدا، وأن كثيرا من النصوص هي كتابات المناسبة الظرفية مثل قصة التكوين الكهنوتية. في هذه الظروف تجد حالات عدم التوافق مع المعارف العصرية تفسيرها الكامل.

أما «القرآن» فإنه لا يتضمن شيئا ما يمكن للعلم أن يرفضه لأن كلامه كلام وقائع ثابتة مؤكدة وغير قابلة للتغيير، كما أن عددا من المعلومات الواردة فيه لا يمكن فهمها إلا في عصرنا هذا.

إذن فالمقابلة هنا بين الكتاب المقدس والعلم تتراءى لنا بوجه آخر فلم يعد هناك مجال للفصل بين الإثنين. إن اشتمال القرآن على جميع هذه العناصر التي هي من الوقائع الراهنة والتي أخذت في هذا القرن (العشرين) بفضل المعارف الحديثة بعدا كان مجهولا إلى ذلك الحين لتحملنا إلى دعوتكم إلى التدبر في هذه الآية الكريمة : ﴿**كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون**﴾.

☆ ☆ ☆

هذا، في تقديري، هو المنطلق الحقيقي الذي انتهى بالدكتور موريس بوكاي إلى اليقين الكامل وإلى الديانة الإسلامية؛ وكتابه الأخير (الإسلام من أين أتى) وإن كان لم تصلنا بعد مواده ونصوصه إلا أننا نعرف أنه يدور في هذا الإطار فهو يركز على بحث نشوء الإنسان في ضوء اكتشافات العلم من جهة، وأقوال الكتب المقدسة من جهة ثانية، وفيه يكشف عن أن الاكتشافات العلمية قد صدقت ما ورد في القرآن وأن الآيات البينات التي أعلنت منذ أربعة عشر قرنا قد كشفت عما يحاول أن يثبته العلم في عصرنا هذا،، وهذا هو الإعجاز.

القاهرة - **أنور الجندي**



خطبة طارق بن زياد

مصادرها واختلاف نصوصها

-2-

للأستاذ عبد العزيز الساوري

حين نعود إلى خطبة طارق بن زياد، نجد أن كثيرا من المصادر قد روت هذه الخطبة وأشهرها رواية (نفح الطيب) (1) حيث جاء فيها : «فلما بلغ طارقا دنوه قام في أصحابه، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم حث المسلمين على الجهاد، ورغبهم ثم قال : أيها الناس، أين المفر ؟ البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام، في مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر (2) لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم وان امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهبت ريحكم (3)، وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة (4) هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت، وإني لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس من غير (5) أن أبدأ بنفسي، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا، استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فما حظكم فيه بأوفى من حظي، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عربانا (7)، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا (8)، ثقة منه بارتياحكم للطعان، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان، ليكون حظه منكم ثواب الله على اعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم، والله تعالى ولي إنجادكم (9) على ما

---

1) المقري : ج 1 ص 225 ـ 226.

2) الوزر ـ بفتح الواو والزاي ـ الملجأ تلجأ إليه، والمعتصم تعتصم به.

3) ذهبت ريحكم : كناية عن ضياع شوكتهم وضعف منهم، وفي القرآن الكريم «ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا» الآية 46 من سورة الأنفال.

4) مناجزته : مقاتلته ومدافعته، والإسراع في ذلك.

5) يقول عبد الله كنون : «هذه الكلمة ليست بالأصول التي وقفنا عليها وبدونها لا ينسجم الكلام وفي رواية أخرى للخطبة ولأحملنكم بالإثبات والتأكيد، ومع ذلك يبقى في الكلام تقطيع» النبوغ المغربي 2 / 32.

7) العقيان : الذهب.

8) جمع ختن، وهو أبو امرأة الرجل، وأخو امرأته وكل من كان من قبل امرأته. وللتفرقة يقال : الأحماء من قبل الزوج، والأختان من قبل المرأة، والصهر يجمعهما.

9) انجادكم : معونتكم وإسعافكم.

يكون لكم ذكرا في الدارين، واعلموا أني أول مجيب إلى مادعوتكم إليه، وأني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى، فاحملوا معي، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره، ولم يعوزكم (10) بطل عاقل تسندون أموركم إليه، وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا الهم من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنهم بعده يخذلون».

وقد وقف الدارسون المحدثون من هذه الخطبة مواقف متضاربة، بين مسلم بها ورافض أو متشكك.

1 ـ أما من سلم بها فتتصل حججه بوثوقه بنص الخطبة، من ناحية المصادر التي روتها أولا ثم بمضمونها ثانيا، ثم بصاحبها الذي كان نتيجة طيبة من نتائج موسى بن نصير ثالثا.

2 ـ أما الرافضون لها فينطلقون من نفس المنطلقات التي انطلق منها المسلمون، فيشكون في روايتها ويرفضون موضوعها ويشكون في قدرة صاحبها على إلقائها ـ وهو البربري قريب العهد بالإسلام ولغته ـ.

3 ـ أما المتشككون فهم لا يجزمون برأي نهائي في الموضوع، ولكنهم يبدون تشككهم في الخطبة كما وصلتنا، ويشكون في بلاغة صاحبها وقدرته على مثل تلك الخطبة ـ وهو المستعرب الجديد ـ.

ومن خلال هذه المواقف المتضاربة، ينبغي أن نبحث عن رأي يفض النزاع حول هذا الموضوع. ونبدأ هنا بالحديث عن توثيق الخطبة :

فقد روتها مصادر مختلفة قديمة ونقلتها عنها مصادر حديثة، ووقع اختلاف في مضمون هذا المروي (11) :

☆ وكان عبد الملك بن حبيب الألبيري (ت 238 هـ / 852 م) أول من روى الخطبة في كتاب «استفتاح الأندلس»، وفي روايته بعض من أصول الخطبة الحالية.

☆ ثم رواها ابن قتيبة الدينوري (ت 276 هـ / 889 م) في كتاب «الإمامة والسياسة» المنسوب إليه ـ، وفي روايته بعض الاختلاف عن الأصلية.

☆ ثم رواها أبو بكر الطرطوشي المالكي (ت 520 هـ / 1126 م) في ((سراج الملوك))، وصدرها بخبر مناسبتها.

☆ ورواها أيضا أبو القاسم محمد بن إبراهيم (ابن خيرة) المواعيني الإشبيلي ـ وكان معاصرا للموحدين (ت 564 هـ / 1168 م) في (ريحان الألباب وريعان الشباب في مراتب الآداب)، حيث أورد الخبر مذيلا بالخطبة.

☆ ورواها ابن خلكان (ت 681 هـ/ 1282 م) في (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان)، وعنها نقل اللاحقون بعده، إذ تعد أكمل ما وصلنا من نصوصها.

☆ ورواها علي بن عبد الرحمن بن هذيل الأندلسي (ت 763 هـ / 1361 م) في (تحفة الأنفس وشعار أهل الأندلس)، وفي روايته الجمع بين نصي ابن قتيبة وابن خلكان.

☆ ثم رواها المقري التلمساني (ت 1041 هـ / 1632 م) بعد ذلك في (نفح الطيب من غصن **الأندلس الرطيب**)، وهو المشهور والمتداول.

ونرى أنه من المناسب إيراد تلك النصوص لأهميتها :

(أ) : نص عبد الملك بن حبيب (12) :

فلما بلغ تدمير نزول طارق بمن معه من المسلمين كتب إلى لذريق ـ وهو يومئذ ملك الأندلس ـ :

---

10) أعوزه : أحوجه، يريد أنه لن يضيق عليكم اختيار بطل عاقل لكثرة ذلك بينكم.

11) نشير هنا إلى أن للدكتور عبد السلام الهرّاس مقالا حول هذه الخطبة أورد فيه نصها كما جاء في معظم المصادر مع استعراض بعض الآراء حولها (خطبة طارق بن زياد من جديد) مجلة (دعوة الحق) العدد : الخامس ـ السنة الحادية عشرة ـ ذو الحجة ـ محرم 1388 مارس ـ ابريل 1968، ص : 126 ـ 129 والعدد : الثامن ـ السنة الحادية عشرة ـ ربيع الأول والثاني 1388، يونيه يوليوز 1968، ص : 112 ـ 114، وقد علق الأستاذ عبد الله كنون على هذا المقال بمقال صغير يحمل عنوان : (حول خطبة طارق) أضاف فيه نص الخطبة الوارد في (سراج الملوك) للطرطوشي مجلة (دعوة الحق) العدد : 6 ـ 7، السنة الحادية عشرة، صفر 1388 ماي 1968 ص : 111.

12) صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد المجلد الخامس 1377 هـ ـ 1957م العدد 1 ـ 2 ص 222. وقد نشر هذه القطعة من تاريخ ابن حبيب د. محمود علي مكي.

«إنه وقع بأرضنا قوم لا ندري أمن السماء نزلوا أم من الأرض خرجوا». فلما بلغ ذلك لذريق أقبل راجعا إلى طارق في سبعين ألف عنان، ومعه العجل تحمل الأموال والمتاع وهو على سريره بين دابتين عليه قبة مجللة باللؤلؤ والياقوت والزبرجد، ومعه دواب تحمل الحبال لا يشك في أسرهم.

فلما بلغ طارقا دنوه منه قام في أصحابه فحمد الله وأثنى عليه، ثم حض الناس على الجهاد، ورغبهم في الشهادة، ثم قال : «أيها الناس، أين المفر ؟ والبحر من ورائكم، والعدو أمامكم ؟ فليس لكم والله إلا الصدق والصبر، ألا وأني صادم إلى طاغيتهم بنفسي، لا أقصر حتى أخالطه أو أقتل دونه».

(ب) : نص الإمامة والسياسة (13) :

«فلما بلغ طارقا دنوه (أي لوذريق) منهم، قام في أصحابه، فحمد الله، ثم حض الناس على الجهاد، ورغبهم في الشهادة، وبسط لهم في آمالهم. ثم قال : أيها الناس، أين المفر، البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، فليس ثم والله إلا الصدق والصبر، فإنهما لا يغلبان، وهما جندان منصوران، ولا تضر معهما قلة، ولا تنفع مع الخور والكسل والفشل والاختلاف والعجب كثرة. أيها الناس، ما فعلت من شيء فافعلوا مثله، إن حملت فاحملوا، وإن وقفت فقفوا، ثم كونوا كهيئة رجل واحد في القتال، ألا وإني عامد إلى طاغيتهم، بحيث لا أتهيبه حتى أخالطه (14) أو أقتل دونه، فإن قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا، ولا تنازعوا فتفشلوا، وتذهب ريحكم، وتولوا الدبر لعدوكم، فتبددوا بين قتيل وأسير. وأياكم أياكم أن ترضوا بالدنية، ولا تعطوا بأيديكم، وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة، والراحة من المهانة والذلة، وما قد أجل لكم من ثواب الشهادة، فإنكم إن تفعلوا، والله معكم ومعيذكم، تبوءوا بالخسران المبين، وسوء الحديث غدا بين من عرفكم من المسلمين. وها أنا ذا حامل حتى أغشاه، فاحملوا بحملتي، فحمل وحملوا».

(ج) : نص سراج الملوك (15) :

«ولما عبر طارق مولى موسى بن نصير إلى بلاد الأندلس ليفتتحها، وموسى إذ ذاك. بإفريقية، خرجوا في الجزيرة الخضراء، وتحصنوا في الجبل الذي يسمى اليوم جبل طارق، وهم في ألف وتسعمائة رجل، فطمعت الروم فيهم، فاقتتلوا ثلاثة أيام، وكان على الروم تدمير، استخلفه لدريق ملك الروم، وكان قد كتب للدريق يعلمه : أن قوما لا ندري أمن الأرض أم من السماء قد وصلوا إلى بلادنا، وقد لقيتهم، فانهض إلي بنفسك فأتاه لدريق في تسعين ألف عنان، ولقيهم طارق وعلى خيله مغيث الرومي، مولى للوليد بن عبد الملك، فاقتتلوا ثلاثة أيام أشد قتال، فرأى طارق ما الناس فيه من الشدة، فقام فحضهم على الصبر، ورغبهم في الشهادة، وبسط في آمالهم. ثم قال : أين المفر، البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، فليس إلا الصبر منكم والنصر من ربكم. وأنا فاعل شيئا فافعلوا كفعلي، فو الله لأقصدن طاغيتهم، فإما أن أقتله، وإما أن أقتل دونه... فاستوثق طارق من خيله، وعرف حلية لدريق وعلامته وخيمته، ثم حمل مع أصحابه عليه حملة رجل واحد، فقتل الله تعالى لدريق بعد قتل ذريع في العدو، وحمى الله تعالى المسلمين، فلم يقتل منهم كثير، وانهزم الروم فأقام المسلمون يقتلونهم ثلاثة أيام، واحتز طارق رأس لدريق وبعث بها إلى موسى، وبعث بها موسى إلى الوليد بن عبد الملك وسار مغيث إلى قرطبة وسار طارق إلى طليطلة، ولم يكن همه غير المائدة التي تذكر أهل الكتاب أنها مائدة سليمان بن داود عليهما السلام، فدفع إليه ابن اخت لدريق المائدة والتاج، فقومت المائدة بمائتي ألف لما فيها من الجواهر التي لم ير مثلها».

(د) : نص ريحان الألباب (16) :

«... ولما أجاز طارق البحر وعظ أصحابه وأمرهم (17) وقال : إنكم بين عدوين بين أهل الكفر وبين البحر فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا،

---

13) ج 2 ص 61.

14) في الأصل «وأقتل» وهو تصحيف.

15) ص 154.

16) مخطوط بالخزانة الحسنية (الرباط) وتوجد منه نسختان رقم الأولى 1406 ورقة 137 والثانية 2647 ص 381.

17) في الأصل، ودمرهم، وهو تحريف ولعل الصواب ما أثبته د. عبد السلام الهراس في بحثه الثاني تحت عنوان (طارق بن زياد وخطبته) ص 353 المنشور في كتاب «دراسات عربية وإسلامية».

وأحرق سفن الجواز... فلما أشرف طارق على جمعهم قال لأصحابه : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين)، وإني مصمم بنفسي نحو طاغيتهم حتى يحكم الله بيني وبينه، وقد فرض الله الواحد منكم للعشرة فاحملوا كما أمركم الله ينصركم، وإن ينصركم الله فلا غالب لكم)، وحمل المسلمون يكبرون الله... ثم أجاز موسى البحر إلى الأندلس... قال عبد الملك بن حبيب : دخل الأندلس من التابعين زهاء عشرين رجلا».

(هـ) : نص ابن خلكان (18) :

«فلما نزل طارق من الجبل بالجيش الذي معه كتب تدمير إلى لذريق الملك أنه قد وقع بأرضنا قوم لا ندري من السماء هم أم من الأرض، فلما بلغ ذلك لذريق رجع عن مقصده في سبعين ألف فارس، ومعه العجل يحمل الأموال والمتاع، وهو على سريره بين دابتين عليه قبة مكللة بالدر والياقوت والزبرجد، فلما بلغ طارقا دنوه قام في أصحابه فحمد الله سبحانه وتعالى، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم حث المسلمين على الجهاد، ورغبهم في الشهادة، ثم قال : أيها الناس، أين المفر والبحر من ورائكم والعدو أمامكم ؟ فليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدب اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم غير سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ماتستخلصونه من أيدي أعدائكم، وان امتدت بكم الأيام على افتقاركم، ولم تنجزوا لكم أمرا، ذهبت ريحكم، وتعوضت القلوب برعبها منكم الجراءة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته المحصنة، وان انتهاز الفرصة فيه لممكن لكم إن سمحتم بأنفسكم للموت، واني لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس (إلا وأنا) أبدأ فيها بنفسي، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا، استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فيما حظكم فيه أوفر من حظي، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك من الأبطال عربانا، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا، ثقة منه بارتياحكم للطعان، واستماحكم لمجالدة الأبطال والفرسان، ليكون حظه معكم ثواب الله على اعلاء كلمته، واظهار دينه بهذه الجزيرة، ويكون مغنمها خالصا لكم من دونه ومن دون المسلمين سواكم، والله تعالى ولي إنجادكم على ما يكون لكم ذكرا في الدارين، واعلموا أني أول مجيب إلى دعوتكم إليه، وأني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى، فاحملوا معي، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ولن يعوزكم بطل عاقل تسندون أمركم إليه، وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا الهم من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنهم بعده يخذلون».

(و) : نص تحفة الأنفس نقلته عن كتاب الأستاذ عنان (19) :

«أيها الناس : أين المفر البحر من ورائكم والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم. وان امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا، ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب عن رعبها منكم الجرأة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم، بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة، وان انتهاز الفرصة فيه لممكن ان سمحتم

---

18) وفيات الأعيان ج 4 ص 404 ـ 405 لدى ترجمة موسى بن نصير.

19) دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى بداية عهد الناصر، العصر الأول ـ القسم الأول، ص 46 ـ 47. والأستاذ عنان لم يشر في الهامش إلى المصدر عند إيراده الخطبة، بل بعدما عقب عليها بقوله : «ويشير صاحب كتاب تحفة الأندلس إلى خطبة طارق في قوله : (لما التقى العرب والقوط، فاقتتلوا ثلاثة أيام أشد قتال، فرأى طارق ما الناس فيه من الشدة، فقام يعظهم ويحضهم على الصبر ويرغبهم في الشهادة، وبسط في آمالهم)، ثم يورد نص الخطبة «وفي الهامش أحال على تحفة الأنفس وشعار أهل الأندلس (مخطوط بالاسكوريال رقم 1652 دير نبور ـ لوحة 48) وأسف أن المصدر ليس بين يدي ولم أحصل عليه بعد ! ولذا اعتمد على الأستاذ المؤرخ عنان في هذا النص».

لأنفسكم بالموت. وإني لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة، ولأحملكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس، أبدأ بنفسي (20)، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فما حظكم فيه بأوفى من حظي. وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان، الرافلات في الدر والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقيان، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عربانا، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا، ثقة منه بارتياحكم للطعان، واستماحكم (كذا) بمجالدة الأبطال والفرسان، وليكون حظه منكم ثواب الله على اعلاء كلمته، واظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون مغنمها خالصة (كذا) لكم من دونه، ومن دون المؤمنين سواكم. والله تعالى ولي إنجادكم على ما يكون لكم ذكرا في الدارين. أيها الناس : ما فعلت من شيء فافعلوا مثله، إن حملت فاحملوا، وإن وقفت فقفوا، ثم كونوا كهيئة رجل واحد في القتال، واني عامد إلى طاغيتهم بحيث لا أنهيه (كذا) حتى أخالطه وأمثل (كذا) دونه، فإن قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا، فتفشلوا وتذهب ريحكم، وتولوا الدبر لعدوكم فتبدوا بين قتيل وأسير. وأياكم أياكم أن ترضوا بالدنية، ولا تعطوا بأيديكم، وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة، والراحة من المهنة (كذا) والذلة، وما قد أحل لكم من ثواب الشهادة، فإنكم إن تفعلوا، والله معكم ومفيدكم (كذا)، تبوءوا بالخسران المبين، وسوء الحديث غدا بين من عرفكم من المسلمين، وهاأنذا حامل حتى أغشاه فاحملوا بحملتي».

يقول د. عباس الجراري : «ومن عجيب الأمر أن ينقل عنان هذه الخطبة من نص ابن هذيل ثم يترك القارئ يفهم من تعليقه عليها أن النفح أقدم مصدر أوردها، ونحن نعرف أن صاحب النفح توفي سنة 1041 هـ» (21).

وقد ذكر د. أحمد هيكل «أن المصادر الأولى التي سجلت حوادث تفاصيل الفتح، قد خلت تماما من أي حديث عن هذا الأدب مع أنها تناولت تفاصيل يدخل بعضها في باب الأساطير. وقد استوت في ذلك الصمت عن هذا الأدب، المصادر الأندلسية والمشرقية جميعا. ولم يرد هذا الأدب المنسوب إلى طارق إلا في بعض المصادر المتأخرة كثيرا عن فترة الفتح، مثل نفح الطيب للمقري الذي أورد الخطبة دون أن يخبرنا عن المصدر الذي نقلها عنه، وأورد الشعر معتمدا ـ كما قال ـ على كتابي المسهب والمغرب، وهما بدورهما متأخران كثيرا عن فترة الفتح» (22).

وفي رأي الأستاذ محمد عبد الله عنان «أنه يسوغ لنا أن نرتاب في نسبة هذه الخطبة إلى طارق، فإن معظم المؤرخين المسلمين، ولا سيما المتقدمين منهم لا يشير إليها، ولم يذكرها ابن عبد الحكم ولا البلاذري، وهما أقدم رواة الفتوحات الإسلامية، ولم تشر إليها المصادر الأندلسية الأولى، ولم يشر إليها ابن الأثير وابن خلدون، ونقلها المقري عن مؤرخ لم يذكر اسمه، وهي على العموم أكثر ظهورا في كتب المؤرخين والأدباء المتأخرين» (23).

وقد سلم د. عبد الكريم كريم ببعض هذه الأقوال ونقلها معتمدا عليها في مقال له عن «فتح الأندلس : الخطبة واحراق السفن»، فقال : «ومن جهة أخرى، تخلو المصادر الإسلامية الأولى من ذكر الخطبة أو الإشارة إليها كالواقدي وابن عبد الحكم والبلاذري وابن الأثير.. الأمر الذي يؤكد انتحالها. فهل تم وضع الخطبة أيام النزعات الشعوبية بالشرق ؟.. ومما يثير الانتباه أن أحمد المقري في نفح الطيب والذي عاش في القرن الحادي عشر للهجرة أي بعد فتح الأندلس بألف عام، يعد من الذين وقفوا طويلا عند الفتح الإسلامي للأندلس وأكدوا مساعدة (يوليان) للمسلمين، وأثبتوا نص الخطبة، في حين أن مؤرخا آخر معاصرا له وهو ابن أبي دينار في (المؤنس) لم يتعرض البتة للخطبة أو سواها من إحراق السفن» (24).

لقد تغافل هؤلاء الباحثون عن أن الواقع في الأدب المغربي وخاصة في فجر العروبة، يتسم بقلة المصادر

20) في الأصل، ولا حملنكم على خطة أرخص متاعا فيها للنفوس، أبدأ بنفسي، واللحن فيها ظاهر، ولعل الصواب ما أثبته الأستاذ عبد الله كنون في رسالة شخصية إلي مؤرخة في : 20 محرم 1403 (طنجة)،... فأبدأ بنفسي متعلق بـ : لأحملكم.

21) الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه ج 1 ص 65.

22) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ص 73.

23) دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى بداية عهد الناصر، العصر الأول ـ القسم الأول، ص. 47 ـ 48.

24) مجلة (الباحث) س 3 م 3 ـ 1974 ص : 163.

القديمة التي لا تخلو من إشارات تاريخية، والتي تكاد تنعدم فيها النصوص. أما كون المصادر المتأخرة هي التي أوردت الخطبة، فقد أشرنا آنفا إلى المصدر الأول - حسب ما بأيدينا من مصادر وردت فيها الخطبة بنصوص متشابهة حينا ومختلفة حينا آخر - والذي ذكرها، ولعل الزمن يسعفنا لمصادر أكثر تقدما. فاهمال المصادر القديمة لهذا الأدب - إن كان هناك اهمال حقا - لا ينهض دليلا على رفضه، لا سيما ونحن نعرف أن ما وصلنا من هذه المصادر قليل جدا، وأن ما وصلنا فيها من أخبار ونصوص ليس غير جزء ضئيل مما كنا ننتظر وما زلنا ننتظر أن يصلنا يوم يكشف النقاب عن تراثنا الدفين (25).

ومن ناحية اختلاف نصوص تلك المصادر، فيرى الأستاذ محمد محيي الدين المشرفي «أن الاعتماد على مصادر متعددة مختلفة ليس بحجة في ذاتها بحيث تحملنا على الإيمان بصحة هذا النص أو ذاك، فقد قال قبل ذلك طه حسين بخصوص الشعر الجاهلي إن أكثره موضوع بعد الإسلام لأسباب سياسية أو اجتماعية، فقامت عليه ضجة وكفروه مما حمله على إعادة النظر في كتابه الشعر الجاهلي... ذلك أن النص الذي يكون موضع الدراسة والنقد، قد يكون وضعه مؤلف معين، فيأتي مؤلف غيره، وينقل ما شاء له أن ينقل من النص السابق بعد ما يغنيه ببعض التفاصيل التي يراها مكملة للنص السابق، ثم نجد هذا النص في كتاب ثالث لمؤلف آخر وهكذا إلى أن يقدر لنا أن نجد بين أيدينا نصا معروفا، تتداوله الأيدي، وتقرأه الألسن كأنه نص صحيح، غير موضوع، رغم ما فيه من الاختلاف والتحريف. وعليه فتعدد الروايات في هذه القضية ليس دليلا على صحة خطبة طارق» (26).

وفي رأي د. عباس الجراري «أن الخطبة ثابتة وإن كان اختلاف النصوص يدعو إلى الشك في هذا الثبوت، ثم - إنه يرجح - انها ليست من إنشاء طارق وإنما كتبت له ليلقيها في الجيش، وانها في هذه الحالة من إنشاء عربي من الفاتحين يتقن الكتابة بل لعل مهمته كانت تقضي أن يكتب للجيش ولقائده. وليس هذا بغريب فقد كان مألوفا أن تكتب للأمراء والوزراء خطبهم ورسائلهم، بل ما زلنا اليوم نرى المسؤولين على مختلف طبقاتهم يكتب لهم حين يريدون أن يخطبوا أو يراسلوا، سواء منهم من يعرف اللغة أو يجهلها» (27).

وقريب من هذا الرأي ما ذهب إليه والده المرحوم العلامة المؤرخ عبد الله الجراري، فعنده أن «نصوص الخطبة يوجد فيها اضطراب يجعلها تختلف عن بعضها البعض أسلوبا وحشوا يهدف الأقاويل والأساطير التي من شأنها أن تبعد النص عن الأصالة والجدية المنتظرين من أمانة التاريخ، وحمله للأجيال سالما صادقا دونما خلط يوقع الباحث والقارئ معا في ريب مما يرى ويقرأ» (28).

وقد لاحظ د. عبد السلام الهراس أننا أمام صورتين مختلفتين لهذه الخطبة (29) :

أ - صورة نص الإمامة والسياسة.

ب - صورة نص ابن خلكان ونفح الطيب.

ج - أما ابن هذيل فيجمع بين النصين السالفين وقد يعتبر بذلك نصا ثالثا مختلفا عن كل من (أ) و(ب) لكونه تركيبا جديدا. والسؤال الذي نثيره هنا هو : أين هي خطبة طارق التي خطب بها ؟ أهي النص (أ) أم (ب) أم (ج) أم هم جميعا. ان النص (أ) لم يكن موضوع بحث أو ارتياب لا من حيث مبناه أو معناه فإن عدم التعرض له كما هو مسجل لا يثير أي ارتياب فأسلوبه خال من تلك العناصر التي أثارت الشبهات، انه أسلوب يتميز بالبساطة والعفوية والتأثير القوي بالقرآن الكريم وبالروح الدينية المشبوبة. إن هذا النص يسقط كل تلك الحجج التي تعتمد على الأسباب الأسلوبية لذلك فهي خطبة سليمة، واعتمادا على ما قدمناه من وثائق تاريخية إيجابية فإنها صحيحة النسبة لقائد الفتح طارق بن زياد.

أما النص (ب) فهو الذي أثار المشاكل لا سيما من الناحية الفنية. لكن ليس من الانصاف العلمي أن ننفي شيئا ثابتا تاريخيا ومتداولا خلال مصادر عريقة في القدم

---

25) الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه - د. عباس الجراري ج 1 ص. 58 - 59.

26) من رسالة شخصية إلي مؤرخة في 6 / 10 / 1982 (الرباط) ص1 - 2.

27) الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه ج. 1 - ص. 66.

28) من رسالة شخصية إلي مؤرخة في 9 / 12 1982 (الرباط) ورقة 2.

29) طارق بن زياد وخطبته مستخرج من «دراسات عربية وإسلامية» مهداة إلى أبي فهر، محمود محمد شاكر بمناسبة بلوغه السبعين - ص. 358 - 359.

اعتمادا على ذلك وحده. ونحن لا نستبعد أن يكون قد تسرب إلى الخطبة بعض العناصر الأجنبية عنها أضيفت إليها بسبب الرواية الشفوية ولكن مع ذلك فإنه نص ثابت أيضا. وقد يكون النصان قد قيلا في موقفين مختلفين : قيل أحدهم إثر نزول الجيش الفاتح في التراب الأندلسي، وقيل الآخر أثناء المعركة فكان أحدهما مهيأ قبل إلقائه أما الآخر فكان ارتجالا عفويا، نستنتج هذا من تنصيص بعض المصادر على أن طارقا خطب في جنوده إثر حرقه للسفن ومرة أخرى عندما أشرف على جمع النصارى (30) وان ابن هذيل يمهد لخطبة طارق بقوله : «لما التقى العرب والقوط، فاقتتلوا ثلاثة أيام أشد قتال. فرأى طارق ما الناس فيه من الشدة، فقام يعظهم ويحضهم على الصبر ويرغبهم في الشهادة، وبسط في آمالهم» ثم يورد نص الخطبة (31). وهذا يدل على أن طارقا خطب مرتين على الأقل ولا نستبعد أن يكون قد خطب جنوده عدة مرات لتعدد المعارك والمناسبات والكلمة سلاح هام في مثل هذه المعارك.

وبعد هذا نود أن ندلي ببعض الملاحظات فيما يتعلق بالمحورين المذكورين، وفي ضمنها الرد على ما أثاره بعض البحاث الفضلاء :

1 ـ إن المصادر المغربية وخاصة عندما يتعلق الأمر بمصادر فتح المغرب والأندلس وانتشار اللغة العربية لا تسعف الباحث، إما لفقدانها أصلا، أو لإهمالها الحديث عن نص معاصر لها، أو قريب منها، وإن المصادر اللاحقة ـ رغم اختلاف نصوص الخطبة فيها ـ تعتمد على توثيق الخطبة بعيدا عن كل انتحال أو شك، والسر في ذلك أن المتأخرين اهتموا بهذا الأثر أكثر من المتقدمين، الذين لم يولوه ما يستحق ربما للمصير الذي لاقاه طارق ومولاه، وربما لاعتزاز أهل المشرق بخطبهم وخطبائهم الذي صرفهم عن تسجيله. وإذا كنا نلاحظ بعض الزيادة أو النقص في بعض الروايات، فإن تعليل ذلك ربما يرجع إلى أن المصادر الأولى التي ذكرت الخطبة قد استقتها من الرواة عن طريق شفوي لا سيما إذا أخذنا برأي القائل ان طارقا ارتجل الخطبة فجاءت عفوية مؤثرة... يقول الأستاذ محمد أحمد اشاعوا : «أما حقيقة النص فيمكن أن يكون هناك أديب مؤرخ من الحاضرين في التجمع، وساعدته حافظته اللاقطة أن يحفظ النص بتمامه وكما هو، ويمكن أن تكون نسخة من الخطاب قد «تسربت» كما تقول بلغة اليوم، وبقيت محفوظة، إلى أن جاء من يثبتها مكتوبة في كتاب تاريخي.. ومعروف أن آفة الأخبار رواتها. فالراوي قد يتزيد على الحقيقة، اما عن حسن نية، واما بقصد تضخيم معلوماته واعلاء شأنها، واما بقصد الدخول في منافسات، خصوصا إذا كانت تعطي تقربا أو تعطي منفعة» (32).

2 ـ عرض د. عبد السلام الهراس في النهاية ثلاثة نصوص أقدمها نص الإمامة والسياسة. والأصل في التوثيق التاريخي والعلمي أن يعود الباحث إلى أقرب نص للعصر أو الفترة التي يدرسها. أما اختلاف الروايات المكتوبة فسببه في جل الأحوال تصرف النساخ تهاونا أو اغفالا أو نسيانا أو جهلا. واختلاف بعض الألفاظ لا يقدح في الأصول وهو أمر معتاد في الأدبيات كما في غيرها. يقول البحاثة الكبير الأستاذ عبد الله كنون : «أما اختلاف ألفاظ الخطبة فلاختلاف الرواة والنقلة ما بين حافظ وقليل الحفظ وحافظ ضابط وغير ضابط، ويدل على ذلك ما وقع فيها من اللحن الذي إنما يأتي من عدم الضبط حفظا وقلة العلم. ففي نص تحفة الأنفس : تقول الخطبة : «ولا حملتكم على خطة أرخص متاعا فيها للنفوس» واللحن فيها ظاهر، ولعل الصواب : «ولأحملكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس، أبدأ بنفسي»، فأبدأ بنفسي متعلق بلأحملكم. وفيها أيضا «واستماحكم» وفيها كذلك «لا أنهيه» والجملة الأولى توجد كذلك في روايات الخطبة التي أوردها غير ابن هذيل. وأما اللفظان المشار إليهما فإني لا أدري أصلهما ولم أتمكن الآن من مراجعة غير هذه الرواية لمعرفة الصواب فيها» (33). ويرى د. عبد الهادي التازي «..أنه ليس في استطاعتنا أن نحكم قطعيا بأن هذا هو النص الحقيقي

30) ريحان الألباب وريعان الشباب في مراتب الآداب للمواعيني. مخطوط بالخزانة الحسنية (الرباط) وتوجد منه نسختان رقم الأولى 1406 ورقة 137 والثانية 2647 ـ ص. 381.

31) دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى بداية عهد الناصر ـ محمد عبد الله عنان، العصر الأول ـ القسم الأول ـ ص. 47.

32) من رسالة شخصية إلي مؤرخة في 29 / 10 / 1982 (الرباط).

33) من رسالة شخصية إلي مؤرخة في 20 محرم 1403 (طنجة).

أو ذاك، لأن كلا من المؤلفين الذين أوردوا النص، كلهم ثقة وكلهم اعتمد على جهة معينة ومن الطبيعي - بعد مرور قرون على نطق طارق بن زياد - أن تكون هناك اختلافات في الرواية... ومع كل ذلك فإن نص ابن خلكان عندي هو الذي أعتمد عليه بين مراجعي...» (34).

أما عن سؤال د. عبد السلام الهراس، ما هي خطبة طارق من هذه الروايات فهو غير وارد، لما سبق من أن ذلك اختلاف رواته لا غير، وكل من أخذ بنص منها فهو مصيب كما نفعل في نصوص الأحاديث النبوية (35). وملخص المسألة أن أقدم نص هو الذي يعول عليه. ويبقى نص ابن هذيل مفيدا أيضا إذا لم يتعارض مع السياق التاريخي.

3 - إن نص (الإمامة والسياسة) يكاد يخلو من تلك العناصر التي أثارت الشبهات كالصنعة والتكلف والترغيب في الغنيمة والسبي وغير ذلك، كما أن مستواه - على العموم - من البساطة التي كانت في مستطاع طارق، حين تصوره بما سبق تصويره، فالاقتباس فيه لا يتعدى القرآن الكريم، بل التعبيرات الراقية فيه تكاد تكون كذلك، وبعضها مما هو مذكور بنصه في السيرة النبوية، تقول الخطبة : «فإن قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا، ولا تنازعوا فتفشلوا، وتذهب ريحكم، وتولوا الدبر لعدوكم، فتبددوا بين قتيل وأسير». فهذه الجملة مأخوذة بنصها تقريبا من قوله تعالى : ﴿**وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين**﴾ (36). فلا يستبعد إذن أن تكون الخطبة صحيحة النسبة، في نصها هذا أو ما هو قريب منه. وهو الغالب الذي يسيغه النظر القويم.

4 - إن المعاني التي تناولها نص (ريحان الألباب وريعان الشباب في مراتب الآداب) تتلاءم والروح الإسلامية العالية، التي توفرت لدى الفاتحين، ومقدار حبهم للإسلام واعلاء كلمته، ورغبتهم في الاستشهاد من أجل ذلك. فهي تشيد بدوافع الفتح وأهدافه - وهي معروفة مألوفة - التي أنبتتها ورعتها العقيدة الإسلامية، عاملة على ابتغاء مرضاة الله تعالى وحده، لتعلو راية الإسلام وتسود شريعته ويكون الدين كله لله ﴿**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فإن الله بما يعملون بصير**﴾ (37)، وفي النص أخذ واقتباس من القرآن الكريم زاده حسنا وتأثيرا، منه قوله تعالى : ﴿**قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين**﴾ (38)، وقوله كذلك : ﴿**إن ينصركم الله فلا غالب لكم**﴾ (39).

5 - أورد علي بن عبد الرحمن بن هذيل الأندلسي (المتوفى عام 763 هـ / 1361 م) خطبة طارق في كتابه (تحفة الأنفس) مع اختلاف نصها باختلاف عنوان الكتاب، فلقد وردت في أ - كتاب (تحفة الأنفس وشعار أهل الأندلس) (40) مخالفة لأختها في ب - كتاب (تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس) (41) والسؤال الذي يرد هنا : ما هي خطبة طارق منها ؟ أهي النص (أ) أم (ب).. وما هو السبب في اختلاف عنواني الكتاب ؟ وهل لذلك سبب وجيه ؟ أو أن الأمر لا يعدو أن يكون خطأ وقع فيه النساخ.

أما الخطبة (أ) التي أوردها الأستاذ محمد عبد الله عنان نقلا عن مخطوطة تحفة الأنفس فيرى د. عبد السلام الهراس أنها «تجمع بين النصين الواردين كل على حدة في الوفيات والنفح من جهة والإمامة والسياسة من جهة أخرى. فالخطبة، إذن، كما هي في النفح كانت موجودة في مصادر قبل عصر ابن خلكان وأن لابن هذيل مصدرا مختلفا عن مصدر الاثنين، وهناك احتمال آخر أن يكون لها

---

34) من رسالة شخصية إلي مؤرخة في 12 / 11 / 1982 (الرباط) الرقم : 326.

35) من رسالة شخصية بعثها إلي الأستاذ عبد الله كنون مؤرخة في 21 شوال 1402 (طنجة).

36) الآية 46 من سورة الأنفال.

37) الآية 39 من سورة الأنفال.

38) الآية 249 من سورة البقرة.

39) الآية 160 من سورة آل عمران.

40) دولة الإسلام في الأندلس - محمد عبد الله عنان، العصر الأول - القسم الأول، ص. 46 - 47، نقلا من (مخطوط بالاسكوريال رقم 1652 دير تبور - لوحة 48).

41) مخطوط بالخزانة العامة (الرباط) رقم (D.904) ورقة 40 ص. 78 وخزانة القرويين (فاس) رقم 625 ص. 93، ونص الخطبة فيه هو كالتالي : «فاقتتلوا ثلاثة أيام أشد قتال، فرأى طارق ما الناس فيه من الشدة، فقام يعظهم ويحضهم على الصبر، ويرغبهم في الشهادة، وبسط في آمالهم، ثم قال : «أين المفر، البحر من ورائكم والعدو أمامكم، فليس إلا الصبر منكم والنصر من ربكم، وأنا فاعل شيئا فافعلوا كفعلي، والله لأقصدن طاغيهم فإما أن أقتله وإما أن أقتل دونه».

مصدران، ونستبعد أن تكون مصادره غير أندلسية. وإن صح هذا فإن نص الخطبة كما هو وارد في هذا المخطوط كان مثبتا في مصادر أندلسية، أفاد منها ابن هذيل كما أفاد منها كل من صحب الإمامة والسياسة وابن خلكان. ويبقى احتمال آخر وهو أن يكون ابن هذيل نقل نص الخطبة المتداول المعروف من مصدر أندلسي كما نقل عن الإمامة والسياسة النص الثاني للخطبة وأثبتهما معا كنص واحد» (42).

أما النص (ب) فهو شبيه بنص عبد الملك بن حبيب مع اختلاف طفيف جدا، ثم أنه نفس النص الوارد في (سراج الملوك) للطرطوشي.

وفيما يخص السؤال الثاني فقد استفسرنا عنه الأستاذ الجليل عبد الله كنون فأفادنا بما يلي : «وبالنظر فيما ذكرتموه من اختلاف اسم كتاب ابن هذيل هو أن المؤلفين أنفسهم كثيرا ما يضعون لكتبهم أكثر من اسم، أو يبدلون لفظة بلفظة أخرى ولا سيما إذا كان محتوى الكتاب يزيد أو ينقص في بعض نسخه عن بعضها الآخر، وإليك اسم كتاب ابن الأحمر نثير الجمان ونثير فرائد الجمان، وكتاب ابن زيدان عن مكناس، وعباس بن ابراهيم عن مراكش وغيرها» (43).

وكذلك د. عبد الهادي التازي، فهو يقول : «وفيما يتعلق باختياري بين استعمال كلمة «أهل» وكلمة «سكان» فإني أميل إلى اختيار «أهل» ولو أنهما معا بمعنى...» (44).

وقريب من هذا الرأي ما ذهب إليه المرحوم العلامة المؤرخ عبد الله الجراري، فهو يقول : «يبدو أنه لا اختلاف في العنوانين. ذلك أن كلا من الأهل والسكان ينصبان على مفهوم واحد ـ فالأهل هم السكان والسكان هم الأهل في الجملة. فالكاتب أو المؤلف أعطى لإنتاجه إسما من الأسماء ثم أعاد الكتب مرة أخرى فأبدل الكلمة بمرادفها عن قصد أو غير قصد، وإما عن نسيان جعله يضع أخرى مكانها لا تغير من العنوان شيئا، وحتى لو فرض الخطأ من النساخ فللمادتين هدف واحد، وهذا يجعلنا نستحضر القاعدة اللغوية التي يوردها كتاب العربية وأمهاتها وهي : البحث في الألفاظ ليس من دأب المحصلين (45) مكتفين بالاقتصار على اللفظ الذي لا يؤدي إلى تعكير جو المدلول» (46).

وبعد،

فإن ثمة تساؤلات أخرى أوردها على نفسي، ولكن البحث العلمي لا يسمح لي بمعالجتها الآن فإلى فرصة أخرى إن شاء الله.

وجدة ـ **عبد العزيز الساوري**

---

42) طارق بن زياد وخطبته ص. 155، مستخرج من «دراسات عربية وإسلامية» مهداة إلى أبي فهر، محمود محمد شاكر بمناسبة بلوغه السبعين.

43) من رسالة شخصية إلي مؤرخة في 20 محرم 1403 (طنجة).

44) من رسالة شخصية إلي مؤرخة في 30 دجنبر 1982 (الرباط) الرقم : 392.

45) ليست القاعدة على إطلاقها وإنما تمس البحث الأجوف الذي لا جدوى وراءه.

46) من رسالة شخصية إلي مؤرخة في 9 / 12 / 1982 (الرباط) ورقة 1.



للشاعر الأستاذ أحمد عبد السلام البقالي

قرأ أحد الشعراء على جماعة من أصدقائه قصيدة نظمها على نمط (اللزوميات)، بحيث التزم في قافيتها «الصاد» و«الباء»، مثل : (ناصب)، و(عاصب)، و(حاصب)، مما اضطر معه الشاعر إلى الالتجاء إلى القاموس للبحث عن القوافي الصالحة لإتمام القصيدة، فجاءت القصيدة صعبة على الفهم، يطبعها التكلف.

وألح الشاعر «الملتزم» على جماعة الأصدقاء الشعراء أن يحذوا حذوه، ويكتبوا شعرا لزوميا للجلسة التالية.

وكان من جملة الحاضرين الشاعر أحمد عبد السلام البقالي فكتب هذه الأرجوزة غير اللزومية رداً على ذلك الاقتراح.

وقد أجمل فيها رأيه في الشعر «اللزومي» و«العمودي» و«الحر» و«المبهم» و«المقحم» بأسلوبه الساخر المعروف !

التحرير

لزوم ما لا يلزم

لزوم ما لا يلزم	تخلف، وهرم
مضيعة لوقت من	بنظمه يلتزم
لا تستطيع فهمه	إن لم يعنك معجم
يطبعه تكلف	لا يستصيغه فم
وللقوافي في معا	ني شعره تحكُّم

تريـــــــد أن تمـــــــدح شخــــــصــــــا طيبـــــــا فتشتم
تـــــــودُّ أن تنصف معــــــنى جيـــــــــدا فتظلم
ينبـــــو بـــــك اللفــــــظ عن المــــعنى، وأنت مرغم
فصلعـــــم، وبرعـــــم، وقتعـــــم، وقشعـــــم
لغـــوٌ تعـــافـــه المعـــا ني جرســــــه لا يهضم
أتى بـــه عصـــر انحطـــا ط أعجمـــيٌّ مظلـــم
لمـــــا انـــــزوى الفكر الأصيـــــل العربي الملهم
وانطفـــــأت أنجمـــــه واكتنفتـــــه الظلـــم
فمـــا لنـــا، ومشـــط رأْ س أقـــرع لا يرحـــم ؟!

الشباب والشعر العمودي

إذا نظمت مثلـــــــه يقـــــال عنـــــك آدم !
أو دينـــاصـــور عـــاد بعـــــد أن طـــواه العـــدم
أو مـــوميـــاء بـــالعرا ء انشـــقّ عنهـــا هرم
فـــاليـــوم يرفض الشبـــا ب كـــلّ قيـــد يلـــزم
يخشى العمـــودي من الشـــعر كـــأنـــه الـــدّم.!
كيف يروق الفـــوضـــو يُّ عمـــــــل منظم
يظنـــــه قضبـــان سجـــن، أو عصيـــا تهجم

الشعر الحر

فشعرهم حرٌّ طليـــــــق في الفضـــــا يهـــــوّم
مثـــل غبـــار القيـــظ للأنفـــاس منّـــا يكتم
لا وزن، لا قـــافيـــة، ولا معـــــان تفهم
كـــأنمـــا كتّـــابـــه جنُّـــوا، وصُمُّـــوا، وعمـــوا
فلست تـــــدري من هم هـــــل عرب، أم عجم
فمـــوسيقى الشعر لـــديـــهم جـــازهـــا التقـــدم
وكـــلُّ من ينشـــد شعـــرا غير حرّ يشتم
وكـــلُّ شـــاعر عمـــو ديٍّ عجـــــوز هرم

فإن كتبت بيت شعر وزنه منتظم
فأنت رجعيٌّ سقيم الذوق لا تحترم

شعراء منافقون

حتى كبار الشعراء سايروا ليغنموا
فقطعوا أشعارهم ونثروا ما نظموا
لكنهم تراجعوا عن غيِّهم وندموا
إذ أدركوا أن انسيا قهم غباء منهمو
خلف قطيع همُّهُ ألاَّ تقوم قيم
ولا حدودٌ عندها يرسي الفتى أو يقدم
وخلفهم شرذمة تدفعهم ليهجموا
ليقلعوا جذورنا وينهبوا ويهدموا
ويحرقوا تراثنا، ويشنقوا ويعدموا

انقلاب القيم

فالموهبات عندهم سخفٌ طواه القدم
وكل من يتقن فنا برجواز صنَم !
وكلُّ جاهل وأمِّي أديبٌ ملهم
وكل غفل الصيت بالشهرة صار يحلم
ولو لساعة ! ولو يقال عنه مجرم !
ولو رموه في النجا سة، وبات يلكم
لا يستحي، فماله وجه به يحتشم
وماله بنت ولا ا بن أو أخ محترم
رماه والداه طفلا فأتى ينتقم
من عالم قد حرِّمت عليه فيه النعمُ

الشهرة بالهراوات

ما أهل الشهرة في عصر جفته القمم
تأتي وتمضي فجأة كما يمرُّ الحلم

بـــــاب الخلـــود بـــــالهرا وات غـــــــــــــــدت تقتحم
ليس عليهــــــا حـــــارس يحرسهـــــــــــــــــا أو قيِّمْ
والأدبــــــــاء مـــــالهم صـــــوت إذا لم ينتمـــــــوا
أعمـــــالهم، مهمـــــا سمت أو أشـــــرقت تعـــتِّم
كـــــلُّ المقـــــــــايس تحـــطمت، فكيف نحكم ؟!

نصيحة لله !

فيـــــا صـــــديقي، لا تحـــــا ول أن تعـــــــود بهمـــــــو
إلى الـــــوراء ألف عـــــا م بـــــالّـــــذي لا يلــــزم
إن رفضـــوا قـــــافيـــــةً لـــــوقعهـــا تـــــألّمـــوا؛
فكيف تفرض اثنتيـــــــن، يـــــــا أخي، عليهمــــــــو ؟!

في عددنا القادم

- جوامع المغرب ومساجده نماذج رائعة من الفن المعماري.
- الحضارة الإسلامية اسسها وعناصر نشأتها.



للأستاذ عبد القادر زمامة

934 ـ من مشاهدات الرحالة الغرناطي...!

وجدت في كتاب (تحفة الأحباب) للرحالة أبي حامد الغرناطي. ص 132. ط باريز 1925م :

«ولقد رأيت في بلغار سنة ثلاثين وخمسمائة من نسل العادين رجلا طويلا. كان طوله أكثر من سبعة أذرع..! كان يسمى «دنقي» وكان يأخذ الفرس تحت إبطه. كما يأخذ الإنسان الحمل الصغير..! وكان من قوته يكسر ساق الفرس بيده...! ويقطع جسده وأعصابه. كما يقطع باقة البقل...! وكان صاحب بلغار قد اتخذ له درعا يحمل على عجلة..! وبيضةً لرأسه كأنها مرجل...! وكان إذا وقع القتال. يقاتل بخشبة من شجر البلوط. يمسكها كالعصا في يده. لو ضرب بها الفيل قتله..! وكان خيرا متواضعا. كان إذا التقاني يسلم علي ويرحب بي ويكرمني، وكان رأسي لا يصل إلى حقوه، رحمه الله. ولم يكن ببلغار حمام يمكن أن يدخل فيه، إلا حمام واحد. واسع الأبواب. فكان يدخل فيه..! وكان من أعجب بني آدم. لم أشاهد قط مثله...! وكانت له أخت على طوله رأيتها مرارا عدة. في بلغار...!

وقال لي القاضي في بلغار يعقوب بن النعمان : إن هذه المرأة العادية قتلت زوجها...! وكان اسمه آدم. وكان من أقوى أهل بلغار... ضمته إلى صدرها. فكسرت أضلاعه فمات في ساعته...!!!».

935 ـ تكلم أربعة بأربع....!

وجدت في كتاب (الفتوحات المكية) لابن عربي الحاتمي ج 4 ص 549. ط.القاهرة 1326 هـ.

«سمعت محمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الكريم التميمي بمدينة فاس. العَدْل. أظن سنة 594 هـ يقول :

تكلم أربعة من الملوك بأربع كلمات كأنما رميت عن قوس واحدة... قال كسرى : أنا على رد ما لم أقل أقوى مني على رد ما قلت...! وقال ملك الهند : إذا تكلمت بكلمة ملكتني. وإن كنت أملكها...! وقال قيصر ملك الروم : لا أندم على ما لم أقل. ولقد ندمت مرارا على ما قلت...! وقال ملك الصين : عاقبة ما قد جرى به القول. أشد من الندم على ترك القول...!!!».

936 ـ مسامير التابوت...!

وجدت في كتاب (البيان المغرب) لابن عذاري المراكشي ج أ ص 270. ط. بيروت :

«وفي سنة 412 هـ توفي باديس بن سيف العزيز بالله. وصلى عليه شرف الدولة. وكان له مشهد عظيم...

وفيها توفيت السيدة زوجة نصير الدولة وكفنت فيما لم يذكر ملكا من الملوك كفن في مثله...! فحكى من حضره من التجار أن قيمته مائة ألف دينار... وجعلت في تابوت من

عود هندي قد رصع بالجوهر.. وكانت جنازة لم ير مثلها. دفنت بالمهدية. وكانت مسامير التابوت بألفي دينار...!!!».

937 ـ بالبنود والطبول...!!!

وجدت في كتاب (البيان المغرب) لابن عذاري المراكشي ج 1 ص 272.

«.... وفي هذه السنة 414 هـ اعتلت السيدة أم ملال بنت عدة العزيز بالله أياما... والأمير شرف الدولة يصل إليها في كل يوم عائدا. ومتفقدا. فيجلس عندها. ويأذن لرجاله. وعبيده . يدخلون إليها. ثم ينصرفون. فلما كانت ليلة الخميس منسلخ رجب قبضها الله. وصلي على جنازتها بالبنود. والطبول. والعماريات...!».

938 ـ الأُستاذ...!

وجدت في كتاب «إنباه الرواة» للمؤرخ القفطي المصري. في ترجمة النحوي الأندلسي ابن الطراوة المالقي...

«ولا يلقب أحد ببلاد الأندلس بالأستاذ إلا النحوي الأديب...»

939 ـ يقيم بمالي 35 سنة...!

وجدت في كتاب «مسالك الأبصار» لابن فضل الله العمري ج 1 ص 70. ط. القاهرة 1924م.

«وحدثني الشيخ الثبت سعيد الدكالي . وهو ممن أقام بمالي خمسا وثلاثين سنة...!! مضطربا في بلادها. مجتمعا بأهلها...!!»

940 ـ تورث السلامة...!

وجدت في بعض الكناشات ما ياتي :

«جاءت امرأة إلى العباس المرسي فقالت له : كان عندنا قمح مسوس فطحناه فطحن السوس معه...!

وكان عندنا فول مُسَوَّسٌ فَدَشَشْنَاهُ فخرج السوس منه حيا...!

فقال لها أبو العباس المرسي :

ـ صحبة الأكابر تورث السلامة...!!!».

941 ـ أعطوني من دنياكم...!

ووجدت فيها ما ياتي :

«قال العارف بالله أبو الحسن الشاذلي لذي رثاثة من الرجال أنكر على الشيخ نظافة جسمه وجمال هيئته :

ـ يا هذا. هيئتي هذه تقول : الحمد لله.. وهيئتك هذه تقول :

ـ أعطوني من دنياكم...!!!».

942 ـ تأكل الطعام وتمشي في الأسواق...!

وجدت في كتاب «الوافي بالوفيات» لصلاح الدين الصفدي ج 17 ص 647. ط. بيروت 1892م ترجمة قصيرة لابن حدير المغربي. جاء فيها :

«... ولقيه رجل من إخوانه في السوق. فسلم عليه. وسأله عن حاله. وقال له :

ـ أي شيء تصنع...؟

فقال له :

ـ ما كانت الأنبياء تصنع... تأكل الطعام وتمشي في الأسواق...!

943 ـ فأطارها....!

وجدت في كتاب «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر القرطبي ج 2 ص 160. ط. القاهرة 1968م.

وأنشد الخشني :

قطعت بلاد الله للعلم طالبا
فحملت أسفارا فصرت حمارها
إذا ما أراد الله حتفا بنملة
أتاح جناحين لها، فأطارها...

944 ـ وباء سنة 749 هـ بالأندلس....!

وجدت في مخطوحة كتاب : تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد = لمؤلفه أبي جعفر ابن خاتمة...

«وقد كان ظهوره بالمرية أول شهر ربيع الأول من عام تسعة وأربعين وسبعمائة بموافقة أول شهر يونيه. فاستمر تمام فصل الربيع. وجميع فصلي الصيف والخريف وطائفة من فصل الشتاء. إلى تاريخ كتب هذا... وهو منتصف ذي القعدة بموافقة أوائل شهر فبراير. وإلى الآن لم ينقطع...! لكن مخايل اللطف بادية... وتباشير رحمته ظاهرة...!!»

945 ـ الفس ...!

وجدت في مجلة (الزهراء) المصرية التي كان يصدرها محب الدين الخطيب. ج 1 س 3 ـ 1345 هـ مقالا عن الطربوش جاء فيه...

«وقد سمي «الفس» باسم أول مدينة صنع بها. وهي مدينة فاس بالمغرب. وكانوا يصبغونه بالقرمز الذي يجنى من ضواحيها ولما كثر استعماله. صنعوه أيضا بالبلاد التركية. والفرنسية. والإيطالية. وحمل منه إلى البلاد المشرقية...!»

946 ـ ولك الساعة ...!!

وجدت في كتاب (الكامل) لابن الأثير ج 10 ص 667 عن ذكر أحداث سنة 524 هـ ط. بيروت 1966م.

«... توفي إبراهيم بن عثمان بن محمد أبو إسحاق الغزي. من أهل غزة. مدينة بفلسطين. من الشام، ومولده سنة 441 هـ وهو من الشعراء الجيدين وله في الزهد...!

إنما هذه الحياة متاع
والسفيه الغوي من يصطفيها

ما مضى فات والمؤمل غيب
ولك الساعة التي أنت فيها

947 ـ ولا مليح يعشق...!

وجدت في كتاب (وفيات الأعيان) لابن خلكان ج 1 ص. 41. ط. القاهرة 1948م في ترجمة أبي إسحاق الغزي ما يأتي :

ومن جيد شعره المشهور :

قالوا هجرت الشعر قلت : ضرورة
باب الدواعي والبواعث مغلق
خلت الديار فلا كريم يرتجى
منه النوال. ولا مليح يعشق

948 ـ من المهاترات....!

وجدت في محاضرة ألقاها الأستاذ عبد العزيز الراجكوتي الهندي، عن خراب القيروان. في مجلة (الزهراء) ج 2 س 1 ص. 209.

«... قال ابن رشيق : جلست في دكان أبي لقمان الصفار. وكان يتهم في شعره مع جماعة من الشعراء وأبو لقمان. والدركادو. يلعبان بالشطرنج ونحن نضحك لما يجري بينهما من غريب المهاترة فقال الدركادو : أجز يا أبا لقمان :

حيتان حبك في طنجير بلوائي...!

فقال أبو لقمان :

وفحم وجهك في كانون أحشائي....!!!!

السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية يلقي كلمة توجيهية هامة في الجمع العام لرابطة نظار الأوقاف بالمغرب

• • انعقد بمدينة فاس يومي 20/19 ماي الجمع العام لرابطة نظار الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، وبهذه المناسبة ألقى السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية كلمة توجيهية في الجلسة الافتتاحية ننشرها فيما يلي • •

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

السلام عليكم ورحمة الله

في بداية هذه الكلمة أرى من واجبي أن أوجه الشكر الجزيل لعمالة إقليم فاس، وعلى رأسها السيد العامل مولاي المهدي العلوي الأمراني على ما تبذله هذه العمالة من جهود مشكورة في سبيل تيسير السبل أمام نشاط وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ونظارات هذه الوزارة بالإقليم، وما نجد في هذه العمالة من استجابة وتعاون كاملين دائمين، فحقيقة أننا نشكره بإسم الوزارة كلها وبإسم الرجال العاملين في هذه الوزارة، وإن إنعقاد الجمع العام لرابطة النظار في هذه الحلة الطيبة وهذا الرونق البهيج ليعكس هذه العناية التي ما فتئت عمالة إقليم فاس توليها لما يتعلق بشؤون الأوقاف والشؤون الإسلامية، وأشكر أيضا رابطة نظار الأوقاف والشؤون الإسلامية على استدعائي للحضور في هذه الجلسة الافتتاحية المباركة، وإن حضوري اليوم في هذا الجمع العام أردت أن يكون دليلا على تقديري للمسؤولية الملقاة على عاتق النظار، وللدور المنوط بهم، وللرسالة التي يتحملونها، وأردت أن يكون دليلا أيضا على اتجاه الوزارة المستمر والدائم نحو العناية بهذا الجهاز، ودعمه وتمكينه من الوسائل التي تساعده على أداء رسالته، إن الناظر أيها السادة هو ذلك الشخص الذي رشحته مروءته ونزاهته واستقامته، فأسند إليه المشرع النظر في شؤون الوقف، ووكل إليه السهر على احترام إرادة المحبس، التي يعبر عنها عادة في قوله : «ومن بدل أو غير فالله حسيبه» وأناط به مسؤولية المحافظة على هذا الوقف، وحمايته من الأطماع، وتنميته، حتى يبقى قادرا على أداء مهمته في المجتمع كمؤسسة روحية وأخلاقية وكقاعدة من القواعد الأساسية التي يعتمد عليها الدين في مسيرته الإصلاحية،

والناظر أيها السادة هو ذلك الشخص الذي اختاره المشرع ليكون قيما على بيوت الله يضمن سيرها الطبيعي، ويسهر على رونقها وبهجتها ونظافتها وطهارتها ظاهرا وباطنا، ويحرص على أن تبقى مفتوحة في وجه الجميع يقيمون فيها الصلوات، ويتلون كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ ويتدارسونهما في مأمن من كل تشويش، وفي منجاة من كل زيغ أو تهريج، ويقف في وجه كل من تسول له نفسه استغلال بيوت الله لخدمة أغراض معينة تمس بمقدسات الأمة، أو تفرق كلمتها، أو تبث الخلاف بينها في أمور دينها، أو دنياها. فالناظر على هذا هو الحارس الأمين على بيوت الله، والناظر أيها السادة هو ذلك الإنسان الفاضل الذي يرعى شؤون القيمين الدينيين، حتى لا يلحقهم حيف ولا تنتهك لهم حرمة، بالإضافة إلى تنظيم نشاطهم، وترتيب أعمالهم، والناظر بعد هذا هو مستشار الوزارة الأمين، وممثلها في الإقليم، وقطب رحا نشاطها في الجهات.

ولذلك ومن منطلق هذا الفهم لدور الناظر ومسؤوليته فإن من واجبي كوزير للأوقاف والشؤون الإسلامية، أن يجدني النظار معهم في كل وقت، وأن أعتبرهم المساعدين الأقربين، الذين أختارهم للرفقة في المسيرة المباركة، التي تسير على بركة الله، وبهدى منه، بقيادة أمير المؤمنين وحامي الوطن والدين مولانا الحسن الثاني أيده الله ونصره.

أيها السادة الأفاضل :

إن من نعمة الله، على هذا البلد، أن منحه عرشا قائمة قواعده على الإسلام ومؤسس بنيانه على الدين، ولذلك كان هذا العرش ظلا يستظل به المؤمنون، ودوحة كريمة يلجأ إليها المسلمون، وبقي هذا العرش على هذا النحو منذ تأسس إلى اليوم، وسيبقى بإذن الله تعالى كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهذه نعمة تستحق الحمد من جهة، وتستحق العمل المثمر الدؤوب البناء في خدمة هذا العرش، وإذا كان أساس هذا العرش هو الإسلام فإننا ندرك كل الإدراك جسامة مسؤوليتنا كوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، وكنظار للمملكة، فالمسؤولية التي نتحملها لها ارتباط وثيق، والتحام شديد، بأس العرش وقواعده، وكلما كان إخلاصنا لهذا العرش مستمرا ودائما بالعمل الدؤوب، كلما انعكس ذلك على واقع الإسلام في هذه الأرض وعلى مستقبل الإسلام في هذه الأرض، لذلك نرى السادة نظار الأوقاف والشؤون الإسلامية، يوحي نشاطهم الكبير، وعملهم الدؤوب، بإدراك هذه المسؤولية وإعطاء هذه الأمانة ما تستحقه من تقدير، وإذا كنت قد ذكرت في أول هذه الكلمة بمفهوم الناظر وبمدى مسؤولياته وتشعبها فإنه مما ينبغي أن نذكر به : مسؤولية أخرى تقع على عاتق هذا الناظر المجاهد في سبيل دينه، وفي سبيل قيمه الروحية، والوطنية، هذه المسؤولية، تتعلق بثمرة من ثمار الفكر الحسني، وحسنة من حسنات العرش العلوي، ألا وهي المجالس العلمية، هذه المجالس التي تعتبر فريدة من نوعها في العالم، وفي العالم الإسلامي بالخصوص، وتعتبر مفخرة من مفاخر النظام المغربي ومفاخر العرش المغربي، وتعتبر جوهرة من جواهر الفكر الحسني هذه المجالس العلمية من واجب النظار أن يدعموها وأن يخدموها وأن ينسقوا معها لتؤدي الغرض الذي من أجله أسست، ولتقوم بالدور الذي من أجله نظمت، وإن عمل النظار الداخل في إطار التعاون مع المجالس العلمية، هو عمل داخل في عمق وصميم رسالة النظار، ومهمة النظار، ومسؤولية النظار، أننا نريد أن تسير النظارات، والمجالس العلمية جنبا إلى جنب في هذه المسيرة الحسنية، مسيرة البعث الإسلامي ومسيرة الصحوة الإسلامية، التي على رأسها والتي يحمل لواءها أمير المؤمنين الحسن الثاني حفظه الله ونصره.

قبل أن أحضر إلى هذا الجمع المبارك راجعت ما يتعلق بالنظار في الوزارة ووجدت أن السادة الوزراء الذين سبقوني على رأس هذه المسؤولية ما وفروا جهدا ولا ادخروا طاقة في العناية بالسادة نظار الأوقاف والشؤون

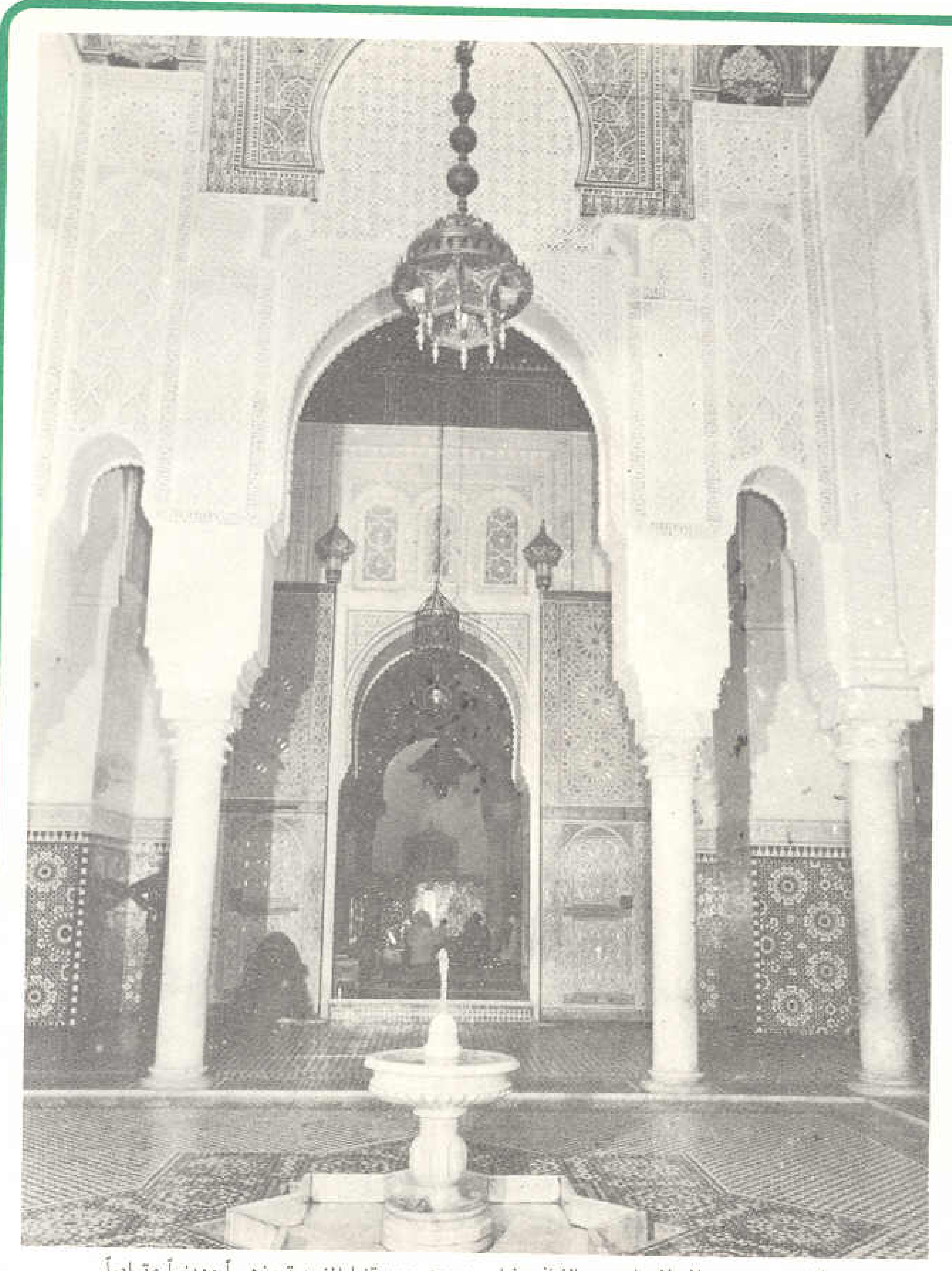
الإسلامية، ووجدت تعليماتهم مكتوبة إلى السيد الكاتب العام، والإدارة التابعة له، بمواصلة العناية بالنظار، ووجدت أن من واجبي أن استمر في ذلك، لأن هذا هو الخط السليم، ومنذ تقلدت هذه المهمة التي شرفني بها أمير المؤمنين أصدرت للسيد الكاتب العام وللإدارة تعليماتي الواضحة في كل ما يتعلق بشؤون النظار وما يساعدهم على أداء مهمتهم، وأحب بهذه المناسبة أن أطمئن السادة النظار، وأريد أيضا أن يحسوا إحساسا صادقا وعميقا بأن الوزير والإدارة التابعة له تعتبرهم جزءا منها، وأنها على استعداد تام لدعمهم بكل الوسائل، وأنا أنتظر ما سيسفر عنه هذا الجمع العام المبارك، من توصيات ومن مطالب، ومستعد لاستقبال من يمثلكم لدراسة هذه المطالب والتوصيات دراسة عملية وإخراجها إلى حيز التنفيذ، ويمكنني أن أقول لكم بأن الشخص الذي لا أقبل أن يسلك معه مسطرة الشكليات في الدخول على الوزير هو الناظر. فالباب مفتوح أمام الناظر في كل وقت، والاتصال المباشر بالوزير والناظر ميسور في كل وقت. وهذا لغرض واحد هو أننا الآن في ظرف، ظرف الصحوة الإسلامية التي هي ثمرة من ثمار الجهود الكبيرة والقوية التي بذلها أمير المؤمنين حفظه الله ونصره منذ جعل الله مقاليد هذه الأمة بين يديه، والصحوة تضاعف من المسؤولية، لأن المسؤولية التي تجليها الصحوة، هي مسؤولية المحافظة على هذه الصحوة والمحافظة على طهارة هذه الصحوة والمحافظة على السير قدما بهذه الصحوة، والاحتياط لهذه الصحوة، من كل استغلال، والحفاظ على هذه الصحوة، لتسير إلى حيث أراد بها قائدها الملهم أمير المؤمنين دام له النصر والتمكين، فهذه مسؤوليتها، ومسؤوليتنا تتطلب جهودا كبيرة وتتطلب تجندا يوميا في الميدان، وهذا التجند اليومي في الميدان إذا عرقلته الشكليات، وعرقلته المسطرة الروتينية الثقيلة ستفرغه من كل محتوى وستؤدي به للشلل، فهذا الطريق هو الذي سنسلكه، وستلمسون ذلك وربما لمستم شيئا منه في هذه الفترة.

ووزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية لها نشاط، ونشاط كبير وليس وليد اليوم، الحمد لله وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية كانت دائما نشيطة ودائما عاملة ودائما في الميدان، اليوم تريد أن تستمر في نشاطها وفي عملها لكن الاتجاه الذي نريده اليوم لهذا النشاط هو أن يكون اتجاها وأن يكون نشاطا ممنهجا، وعلميا، وقائما على الدراسة الميدانية المنظمة، لماذا ؟ لأنه حصل تطور كبير في أساليب أعداء أمتنا، وفي أساليب أعداء وحدتنا، وفي أساليب أعداء مسيرتنا العظيمة، هذا التطور ينبغي أن يقابله أيضا تطور في الأساليب والطرق، وينبغي أن نواكب العصر من جهة، وأن نواكب النشاط المتزايد للتيارات التي تحيط بنا، ولذلك كما أن الوزارة تريد أن تسلك هذا المسلك العلمي الممنهج المنظم كذلك نحب ونرغب في أن تكون أنشطة وأعمال النظارات تسير في نفس هذا المنهج وعلى نفس هذا الخط.

رأيت هنا أن من النقط المدرجة في جدول أعمالكم : المجالس العلمية وقد قلت فيها ما أعتقد أنه كاف وما يتعلق بالوعظ والإرشاد، وخطب الجمعة، وخطب الجمعة بالذات أدخلنا عليها نوعا من الإصلاح وطبعنا كتابا - اليوم صدر - وسيصلكم قريبا، عنوانه **«الخطب المنبرية»** وهذه الخطب ستصدر في كتيبات كل كتاب يتضمن عشرين خطبة من وضع علماء أجلاء، ومطبوعة بشكل يسمح لكل أحد أن يقرأها بقراءة سليمة، وستوزع في البوادي والمدن لمساعدة الخطيب الذي ربما في بعض الظروف لا يسمح له الوقت أو الاحوال في إعداد خطبته الإعداد اللازم، أو في بعض البوادي التي يكون مستوى الإمام لا يكفي لإنشاء خطبة في المستوى الطيب، هذه السلسلة سيتابع إصدارها، وقد صدرنا الكتاب بتوجيهات عامة وخاصة للخطيب حول منهجية الخطبة وطريق الخطبة والمسلك الذي ينبغي أن يسلكه في الخطبة، حتى يخاطب الناس على قدر عقولهم وحتى يبسط العبارة، ويشرح لهم ما يأتي في خطبته من عبارات تستعصي عليهم،

وحتى يبشر ويسلك طريق التبشير بدل التنفير والتيسير بدل التعسير، وحتى يعرف طريقة تناول بعض المشكلات أو إبداء بعض الملاحظات وذلك بأن يقدم الجانب الإيجابي، بحيث وأنا أقول هذا لأنني أغتنم فرصة وجودكم كنظار موجهين للخطباء والوعاظ والمرشدين في أقاليمكم، ولوجود عدد من السادة الأئمة معنا، فينبغي أن نجعل الخطاب الذي ألقاه أمير المؤمنين حفظه الله ونصره عند رئاسته للدورة الثانية للمجلس العلمي الأعلى، منهجا وخطة.

وفيما يتعلق بالوعظ والإرشاد قمنا بخطة تتضمن إصدار مجموعة من الكتب تعتبر دراسات : دراسة عن كل إقليم، جميع ما يحتاج إليه قائد الدعوة الإسلامية في ذلك الإقليم من معلومات... وكذلك نحن الآن في صدد وضع دليل عام لرجال الدعوة في المغرب حتى يستطيعوا ويستطيع النظار، ويستطيع رؤساء المجالس العلمية، أينما أرادوا أن يقوموا بدراسة، أن يجدوا لائحة الجدد الذين سيمكن لهم ذلك النشر، وفي ميدان الكتاتيب القرءانية، ومراكز تكوين الأطر الدينية، نعتني بهذا الباب عناية كبيرة، وأنا أريد أن أؤكد كثيرا على حفظ كتاب الله وستنشأ جائزة لحفظ كتاب الله، حتى يتنافس الناس في جميع الأقاليم لنيل هذه الجائزة، ومن خلال نيلهم لها، سينالون جائزة أكبر عند الله تعالى، وهي حفظهم لكتاب الله المبين، كذلك في هذا الميدان الديني مما لا شك أنكم شاهدتم أننا فتحنا في التلفزة ركنا للمفتي، نجيب فيه على جميع أسئلة المواطنين، وفتحنا كذلك ركنا، وهو ركن حوار مع المجالس العلمية الذي سيهتم بالجانب العلمي، وبتوجيهه لهذه المدارس، وفي مجال البناءات والتجزئات الخ... هذا الميدان النفسي للوزارة، كثير من الناس لا يفهمون ارتباطه بالميدان الروحي، حتى أن أحد زملائي، اقترح أن تسمى الوزارة : وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف بدلا من وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. وقلت له إنك تريد أن تربط الخيول في ظهر العربة. لأن الأوقاف هي التي تمد الشؤون الإسلامية وهي التي تعطينا الوسائل : وسائل العمل، وسائل تموين نشاط الشؤون الإسلامية، فارتباط الأوقاف بالشؤون الإسلامية ارتباط سليم، وكل مجهود بذل في ميدان الوقف، وما سمي هنا في هذه الورقة من بناءات وتجزئات ومعاوضات وشؤون فلاحية، وتعديل الأكرية، هو داخل في صميم رسالة الشؤون الإسلامية لأنه يصب في هذا المصب الكبير، ولأن خيره يفيض على الشؤون الإسلامية، ولأنه يجزي الفقير إلى إيجاد وسائل العلم، ولذلك ينبغي للنظار أن يهتموا بالجانب المادي، وبالجانب الروحي، ويهتموا برسالة وزارتهم، وكل مخلص يحمد الله على أن جعل على هذه الأوقاف والشؤون الإسلامية أمناء في المستوى الرفيع فكريا وخلقيا، وإن كان هذا التقدير وهذا الثناء يعتبر ثناء على الوزارة، وثناء على أشخاص هم من الوزارة وإليها، ومع ذلك فإن هذا لا يمنعني بأن أشيد بالسادة نظار الأوقاف والشؤون الإسلامية، وبجهودهم وبنشاطهم، وأن أسأل الله تعالى أن يعينهم على تحمل مسؤوليتهم، ويسدد خطاهم ويوفقهم، وأن يجعلنا جميعا عند حسن ظن أمير المؤمنين وحامي الأوقاف والشؤون الإسلامية مولانا الحسن الثاني وأن يحفظه بما حفظ به الذكر الحكيم، وأن يجعل كتاب الله نورا يمشي به بين الناس، وأن يطيل عهده السعيد وعصره المجيد وأن يقر عينه بسمو ولي عهده الأمير الجليل سيدي محمد وصنوه المولى الرشيد وسائر أفراد الأسرة العلوية المجيدة. والسلام عليكم ورحمة الله.



جانب من ضريح المولاي ادريس الثاني بفاس : رمز وحدتنا المغربية مذهبياً ودينياً وترابياً.



















صدر العدد الأول في يوليوز سنة 1957